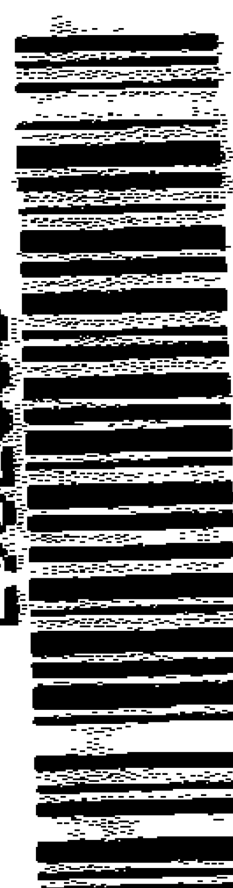
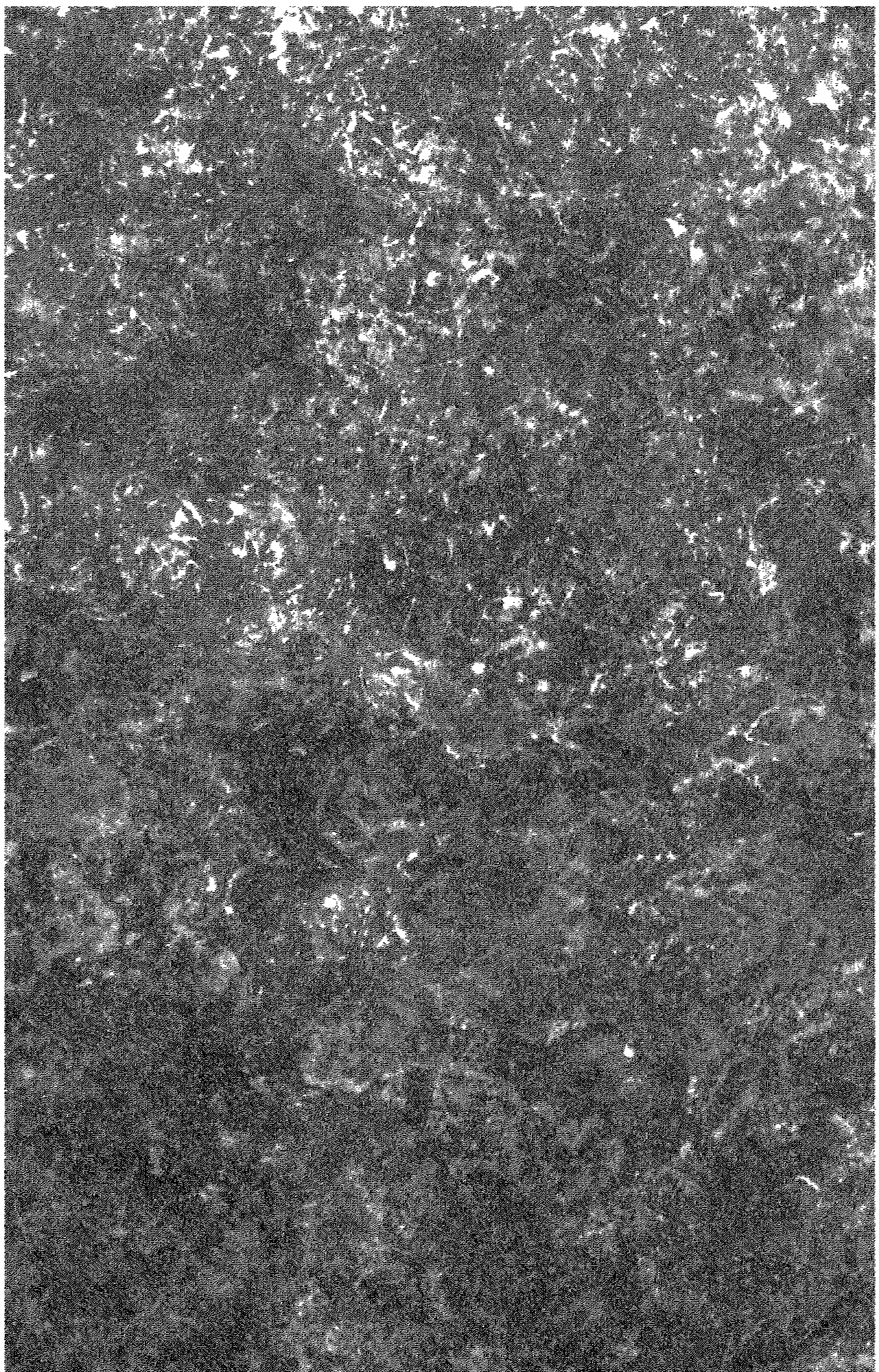
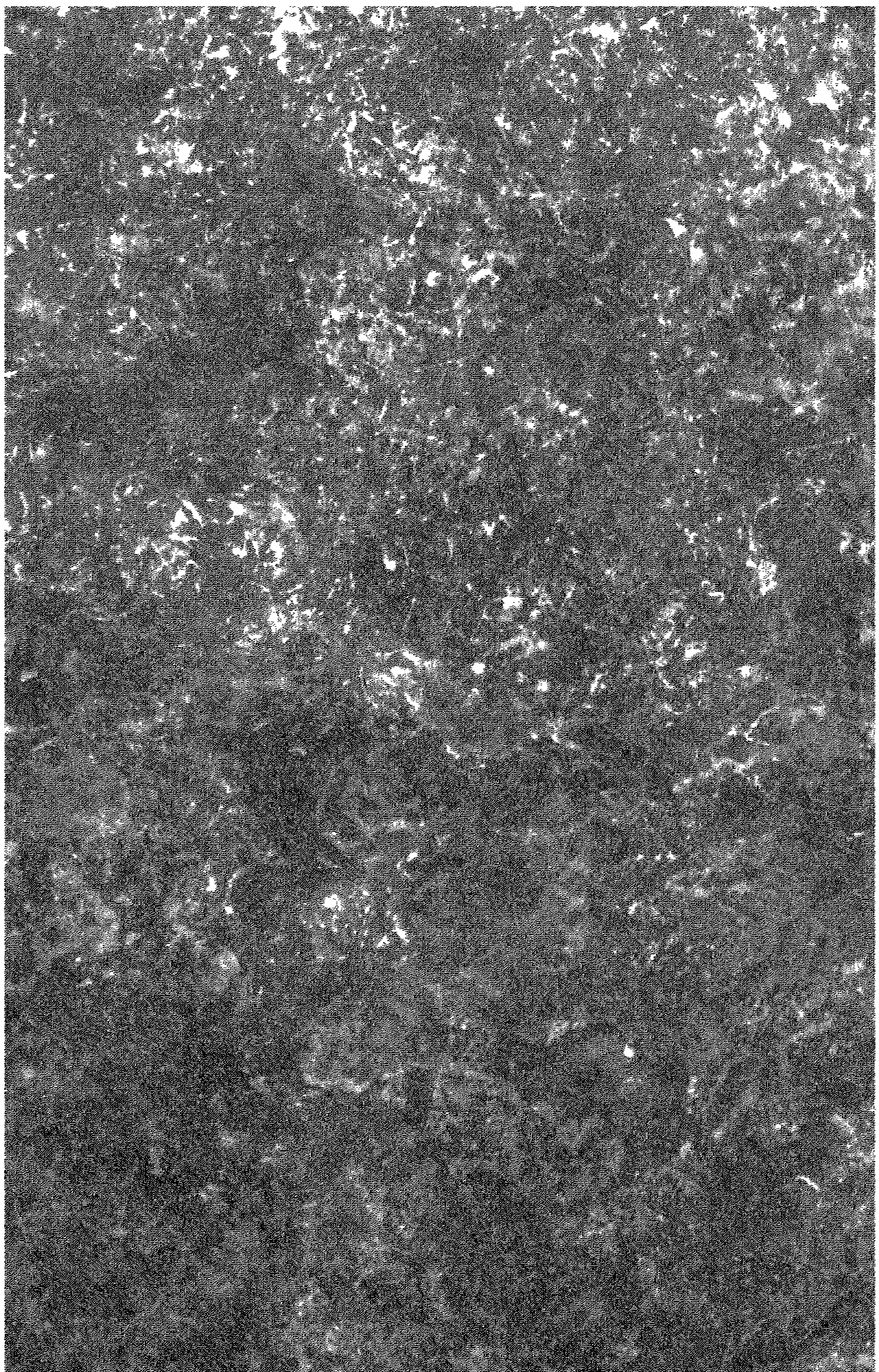







رينه ديكارت

مقال عن المنهج

لإحكام قيادة العقل وللبحث عن الحقيقة في العلوم

ترجمه وشرحه وصدّره بمقدمة

محمود محمد الخضيري

ليسانسيه في الآداب من الجامعة المصرية

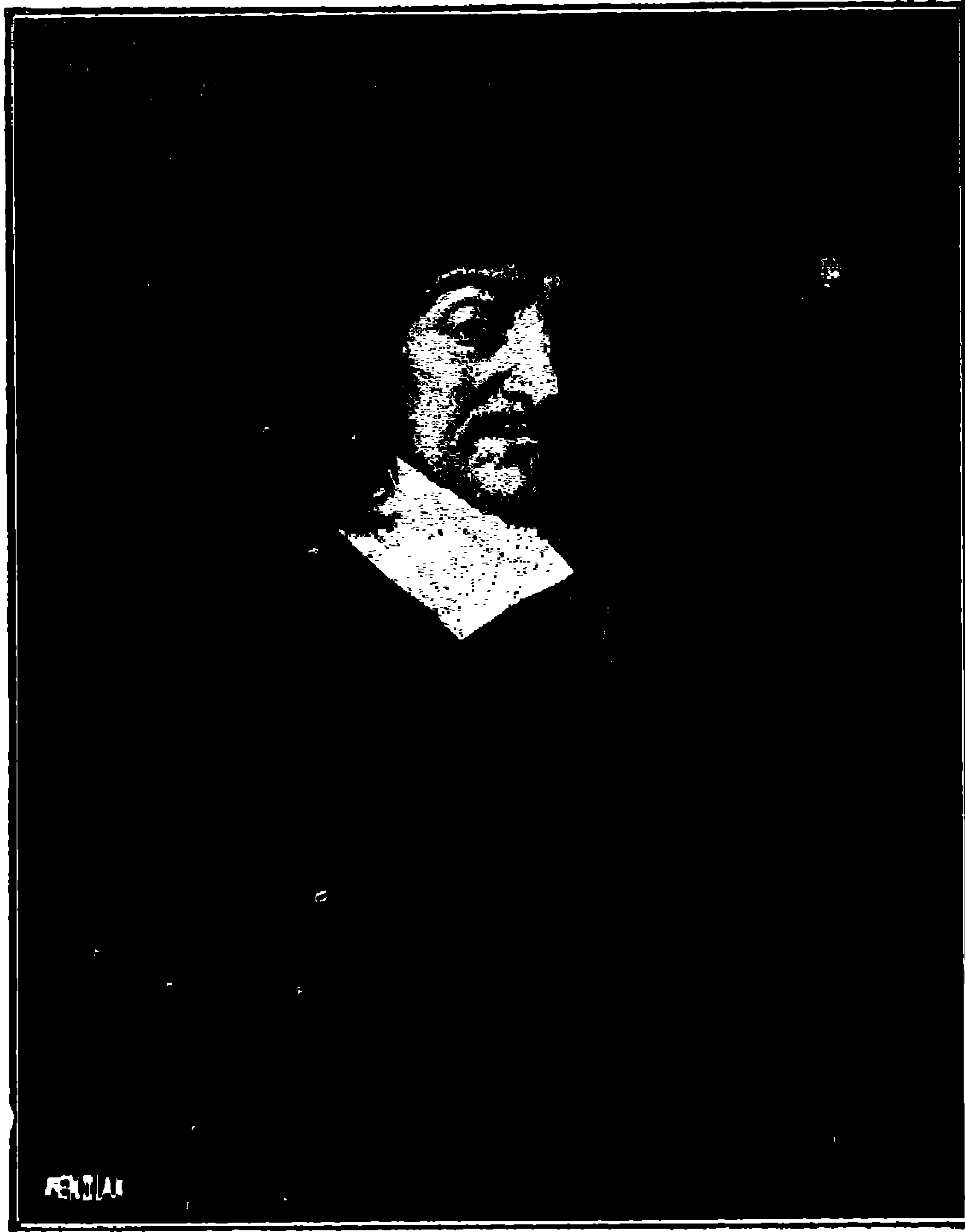
القاهرة

١٣٤٨ — ١٩٣٠

المطبعة السلفية — ومكتبتها

ملحوظة

تدل الحروف الرقعة على أسماء الكتب وقد استعملتها كما يستعمل الاوربيون في الطباعة الفنية الحروف المائلة *Italique* وكذلك تدل أحياناً على الكلمات المراد اظهار أهميتها . أما الحروف الظاهرة فانها تدل على أسماء المؤلفين واستعملتها كما يستعمل الاوربيون أيضاً الحروف الكبيرة Majuscule



ـــ عن صورة في متحف اللوفر ، من عمل فرنس هلز ـــ

رينه ديكارت

René Descartes

ولد فى لاهاي فى ٣١ مارس سنة ١٥٩٦ ـ توفى فى السويد فى ١١ فبراير سنة ١٦٥٠
ونقلت رفاته الى باريس سنة ١٦٦٦

بسم الله الرحمن الرحيم

مدخل

— ١ —

حياة ديكارت

من المستطاع أن تبسط نظريات علم مثل علم الطبيعة ، وأن يعترف في هذا البسط لكل من اشترك في تكوينها بما له من أثر ، أو أن يهمل هذا الاعتراف ؛ بل وأن يعرض عن ذكر الشخص الذي جاء للعالم ببعض هذه النظريات ، دون أن يختلف فهم الناس لها ، ونظرهم فيها ؛ ولكن ليس من المستطاع أن نفهم النظريات الفلسفية فهماً واضحاً متميزاً بدون أن نعرف موضعها من مذاهب القائلين بها ، ومن غير أن نلمّ بالتاريخ العقلي للذين اشتركوا في تكوينها . والتاريخ العقلي لأي فيلسوف هو جزء من تاريخ حياته ؛ واذن فمن المفيد أن نستعين على فهم ديكارت بالوقوف على موجز لتاريخ حياته ؛ وسنرى في هذه الفذلكة التالية مبلغ تفرغه لتحقيق مقاصده ، وهي البحث عن منتهى ما يستطيع أن يصل اليه العقل من أشرف المعارف وأتمها للانسان

* * *

ولد رينه ديكارت أبو الفلسفة الحديثة في ٣١ مارس سنة ١٥٩٦ ميلادية في مدينة صغيرة اسمها لاهاي تقع على الشاطىء الايمن لنهير لاكرز Le Creuse وهو يصب في نهير آخر يدعى ڤين Veinne بعد نهر اللوار أكبر أنهار فرنسا . ولاهاي من أعمال إقليم توران Touraine ؛ ولكن أصل أسرة الفيلسوف من إقليم بواتو ، واليه ينتسب عند ما انتقل الى هولندا (١)

وكانت أسرته من طبقة النبلاء المتوسطين ، إذ كان أبوه يواقيم ديكارت مستشارا في برلمان إقليم بريتانيا ، وكان جده من جهة أبيه طبيباً ، أما جده من جهة أمه فقد كان حاكما لپواتيه

وقضى الفيلسوف سن الطفولة في لاهاي مسقط رأسه ، وعنيت بتربيته جدته إذ أن أمه ماتت بعد ولادته بنحو عام ، وانتقل أبوه مع ولديه شقيقي الفيلسوف الى بريتانيا . وفي سنة ١٦٠٤ ألحق بمدرسة لافلش La Fléche وهي مدرسة أسسها اليسوعيون سنة ١٦٠٣ وكان ملك فرنسا

---

(١) ذكر في سجل جامعة ليدن الهولندية في ٢٧ يونيه سنة ١٦٣٠ على الوجه التالى : Renatus Descartes Picto 33 Math أي رينه ديكارت أصله من بواتو عمره ٣٣ عاما ، رياضي . ويلاحظ أن عمره هنا يقل سنة عن عمره الحقيقي إذ أنه ولد في ٣١ مارس سنة ١٥٩٦ فيكون عمره إذ ذاك ٣٤ عاما وربع عام تقريبا . انظر شارل أدام حياة ديكارت وأعماله ١٨ ص ١٢٤ هامش حرف C

هنري الرابع [1] قد وهبهم دارا لها فأطلقوا عليها اسم المدرسة الملكية ، وعني اليسوعيون بأمور التعلم فيها واختاروا لها خير الرؤساء والمدرسين ، حتى أصبحت ، كما يقول ديكارت « من أشهر مدارس أوربا » وانها خير مكان تعلم فيه الفلسفة [2]

وقد تلقى فيها علومه الاولى كما رتبها في المقال عن المنهج في صفحتي ٨ و ٩ بادئاً بالقصص ومنتهياً بالبلاغة والشعر ، وفي السنوات الثلاث الاخيرة درس الفلسفة وكانت تنقسم الى أقسام ثلاثة المنطق والطبيعة وما بعد الطبيعة ، وكان علم الاخلاق يعلم مع المنطق والرياضيات مع الطبيعيات وكان أستاذه في الفلسفة راهبا يدعى الأب فرانسوا فيرون Francois Véron وهو رجل صالح تقي بارع في المناقشة والجدل ؛ أما أساتذته في الرياضيات فقد كانوا على فضل وعلم ، وكان أحدهم يُلقب باقليدس الجديد [3] وعُرف في المدرسة أنه كان متمسكا بالدين ، مخلصاً للملك ، نابغاً في الرياضيات حتى لقد كان يعجز أساتذته بعض الأحايين . وكان أحد مديري الكلية يمت بالقرابة الى أسرة أمه فحاطه بالعناية

---

(١) عاش من سنة ١٥٥٣ ـ سنة ١٦١٠ وتولى الملك سنة ١٥٨٩ واعترضته فتن لم ينته منها إلا بعد عناء وصبر ، ولما استقر له الأمر نهض باصلاح أفاد مملكته وفي سنة ١٦١٠ اغتاله أحد المتعصبين ضده

(٢) المقال عن المنهج ص ٧ من الترجمة التالية والتعليق في ص ٧ و ٨

(٣) شارل أدام حياة ديكارت [18] ص ٢٣ و ٢٤

وقد ذكر بابيه في كتابه عن حياة ديكارت أنه صنع وهو لا يزال في الكلية منهجا للمناقشة الفلسفية شبيها بطريقة الرياضيين في استدلالاتهم [1]

وانتهى من الكلية سنة ١٦١٢ ، ولا يعرف على وجه التحقيق كيف أنفق السنوات السبع التالية بالتفصيل ، ولكن الذي لا شك فيه أنه نال شهادة البكالوريا والليسانس في القانون الديني والمدني من جامعة بواتيه في ٩ و ١٠ نوفمبر سنة ١٦١٦ [2] ومن المحتمل أنه درس قليلا من الطب أثناء إقامته في بواتيه

وبعد أن أتم دروسه على هذا الوجه ، وانتهى من الدور الذي يأخذ فيه العلم عن غيره ، وأصبح يثق أنه حر في تفكيره وعمله ، وبعد أن وقف على العلم الذي كان يُعلم في المدارس ويحفظ في الكتب ، ورأى أنه ليس

---

(١) انظر ص ٥ حيث يقول « . ألفيت نفسي منذ الحداثة في بعض الطرق التي قادتني إلى أنظار وحكم ، ألفت منها منهجا ، به يبدو لي أن عندي وسيلة لزيادة معرفتي بالتدريج ، إلخ » وانظر الهامش رقم ٣ في نفس الصفحة . وبابيه BAILLET المذكور هو صاحب كتاب حياة السيد ديكارت *La Vie de Monsieur Des - Carte* الصادر في باريس سنة ١٦٩١ وهو كتاب غني بالوثائق لا يزال يرجع اليه الباحثون في ديكارت ، وقد ولد بابيه في سنة ١٦٤٩ ومات سنة ١٧٠٦ كان راهبا واشتغل أمينا لمكتبه وله مؤلفات كثيرة أشهرها كتابه عن حياة ديكارت وكتاب حياة القديسين في سبعة عشر مجلدا

(٢) انظر نص شهادة الجامعة في كتاب أدام حياة ديكارت ص ٤٠ هامش حرف A

العلم الذي تستطيع الانسانية أن تقنع به إذا بلغت رشدها ، صمم على أن يطلب علما أجل من ذلك العلم من مصادره الاولى وهي العقل والعالم . وفي ذلك يقول في **المقال عن المنهج** : « من أجل هذا فانني ما كدت أن تسمح لي السن بالتحلل من ربقة معلمي حتى هجرت كل الهجر دراسة الآداب وإذ صممت على ألا ألتمس علما الا ما اشتملت عليه نفسي ، أو ما كان في الكتاب الكبير ، كتاب العالم ، فانني أنفقت بقية شبابي في السفر ، وأن أتصل بقصور وبجيوش وأغشى أناساً من مختلف الأمزجة والدرجات ، وفي جمع التجارب المختلفة ، وأن أبتلي نفسي فيما ساق الى الحظ من مصادفات وأن أفكر أينما كنت في الأمور التي كانت تعرض لي تفكيراً يمكنني أن أستخلص منها فائدة الخ [(١)]

ورأى أبوه ان يهيئ له مستقبلا حربيا ، فنصحه أن يتطوع في جيش هولندا ، إذ أنه كان أتم جيوش أوربا نظاما بعد انتصاره على الاسبان وإجلائه إياهم عن بلد ظلوا يحكمونه ويظلمون أهله زمنا طويلا . وكان شبان أوربا من أبناء النبلاء يعتبرون هـذا الجيش خير مدرسة حربية فكانوا يلتحقون به ويمدون عدتهم كلها على نفقاتهم ويستصحبون معهم تابعا على الاقل ليكون في خدمتهم . وكان لديكارت من اليسار ما يمكنه من ذلك ، إذ أنه ورث عن أمه وجدته وبعض خالاته ثروة لا يستهان بها ، وقد جملته يقول فيما بعد في المقال عن المنهج « ... لم أكن أشعر ، بفضل من الله ،

---

(١) ص ١٤ و ١٥ وانظر التعليقة رقم ١ ص ١٥

أنني في حالة تضطرني الى ان أجعل من العلم صنعة »[1]

وفي أوائل سنة ١٦١٨ سافر الى هولندا وكان يدعى إذ ذاك سيد برّون باسم ضيعة آلت اليه عن طريق الميراث[2] . وقد ألهاه هذا الوسط الحربي عن شغفه بالعلوم ، على أن الصدف جمعته بطبيب هولندي اسمه اسحق بيكمن Beekman كان ينوي السفر الى فرنسا فارتاح الى ان يعرف شاباً فرنسياً ذا مكانة . وكان بيكمن متبحراً في كل أنواع العلوم والمعارف فائتلف الاثنان وتمكنت بينهما أسباب الصداقة ؛ وكان لبيكمن الفضل في بعث ديكارت الى درس علم الطبيعة والرياضيات والبحث في تأسيس روابط بينهما ، وكان له على العموم كما يكون المعلم أو الاخ الاكبر ، وقد اعترف ديكارت بما له عليه من فضل فقال « كنت نائماً فأيقظتني »[3] . واليه أهدى في ٣١ ديسمبر سنة ١٦١٨ أول كتبه **موجز في الموسيقى**[4] *Compendium Musicae* . وكانا يدرسان الرياضيات معاً لكي يطبقاها على علم الطبيعة وكذلك كانا يدرسان علم الطبيعة لكي يرداه الى الرياضيات

وغادر ديكارت هولندا في ابريل سنة ١٦١٩ ثم ذهب الى ألمانيا وحضر تتويج القيصر فرديناند الثاني في فرانكفورت في ٩ سبتمبر سنة

---

(١) ص ١٤

(٢) M. du Perron على نحو ما يدعى النبلاء بأسماء أملاكهم

(٣) **أعمال ديكارت** ج ١٠ ص ١٥١ و ١٦٢ من مطبوعة أدام وتانري

(٤) شارل أدام **حياة ديكارت** ص ٤٥

١٦١٩ ثم ألجأه بدء الشتاء الى قرية لم يذكر اسمها ولكن المرجح أنها قرية بجوار أولم Ulm [1] الواقعة على نهر الدانوب ، وقد اعتزل هناك في حجرة دافئة كان يقضي فيها اليوم كله وحده ، منصرفا الى التفكير . وكانت أولم مشهورة بمن أنجبت من الرياضيين حتى لقد كان يقال في بعض جامعات ألمانيا « من أولم يأتي الرياضيون Ulmenses sunt Mathematici » [2] والمرجح أنه زار الرياضي المشهور فاولهابر .

وقد حدث في هذه الفترة حادث ذو شأن كبير في حياة الفيلسوف وقد أفرد له رسالة صغيرة سماها *Olympica* [3] ومعناها عند اليونان الوطن الالهي الذي هو فوق وطن المعقولات وآلهة الشعر وفوق وطن المحسوسات والتجريبيات . ذلك أنه بعد استغراقه في التأمل والتفكير وجد في يوم ١٠ نوفمبر سنة ١٦١٩ قواعد علم يستحق الاعجاب وهو يسجل ذلك بقوله

" X novembris 1619 , cum plinus forem Enthousiasmo, et mirabilis scientiae fundamenta reperirem "

ويقول بابيه بعد وصفه لعناء ديكارت في البحث عن طريق يؤدي الى الحقيقة حتى اهتدى الى « قواعد علم يستحق الاعجاب » ، « بلغ به التعب والاعياء ان كاد يشتعل مخه ، وقد أصابه نوع من الحماس والحمية

(١) راجع كلامه في مطلع القسم الثاني ص ١٨ والتعليقتين الأولى والثانية في نفس الصفحة

(٢) شارل أدام الكتاب المذكور ص ٤٧

(٣) أعمال ديكارت ج ١٠ ص ١٧٩ ـ ١٨٨ مطبوعة أدام وتانري

سما به الى حيث يرى الرؤيا »[1] ثم يقول بايبه إن الفيلسوف استسلم للنوم بعد تعبه في هذا الاستكشاف فرأى ثلاثة أحلام اعتقد أنها موحى بها من عند الله، ولما استيقظ قرأ في مجموعة شعر كان يحتفظ به [2]

أي سبيل من سبل الحياة تتبع ؟

Quod vitae sectabor iter ?

والظاهر أن الفيلسوف قد أخذه شيء من التصوف على أثر استكشافه الكبير ؛ لان الرجل العظيم اذا قام بعمل جليل لم يسبق اليه ، وأبصر في لحظة واحدة مدى ما وصل اليه وما يمكن ان يصل اليه عمله ، نسي نفسه وفني في ذات أكبر من ذاته ، وآمن أن الفضل في نجاحه انما هو لله .

ولكن أي استكشاف اهتدى له ديكارت في ١٠ نوفمبر سنة ١٦١٩ ؟ لم يتفق الباحثون في ديكارت على رأي واحد ؛ ذلك بأن الكونت فوشيه دي كاري Foucher de Careil ، وهو أول من نشر رسالة أولمبيكا ، لا يشك في أن المقصود بهذا الاستكشاف هو المنهج الديكارتي بأكمله [4] . والاستاذ

---

(١) أي « في ١٠ نوفمبر سنة ١٦١٩ وجدت وأنا ممتلئ حماسا قواعد علم يستحق الاعجاب » في المقالة المذكورة

(٢) بايبه حياة المسيو ديكارت La Vie de Monsieur Des-Cartes ج ١ ص ٥٠ ـ ٥١

(٣) شارل أدام حياة ديكارت[18] ص ٤٩ و ٥٠ و ميلو أزمة صوفية عند ديكارت سنة ١٦١٩[9] والتعليق في ص ١٧ و ١٨

(٤) أعمال ديكارت غير المطبوعة[14] المقدمة والمدخل

مييه Millet يقول بأن ديكارت استكشف في يوم ١٠ نوفمبر سنة ١٦١٩ قواعد منهجه وهندسته التحليلية [١] . وكذلك الاستاذ كينو فشر يقول بأن ديكارت استكشف في نيوبرج [٢] في هذا التاريخ منهجه وقواعد فلسفته [٣] . والاستاذ ليار Liard يرى أن ١٠ نوفمبر سنة ١٦١٩ هو تاريخ استكشاف ديكارت لمنهجه [٤] . والاستاذ هملان يذهب هذا المذهب ويقول إن الذى اهتدى اليه ديكارت في هذا التاريخ هو هندسته التحليلية باعتبارها وجها من وجوه منهجه العام [٥] . ولا يختلف عن ذلك رأي الاستاذ ينجمن [٦]

أما الاستاذ أدام فهو لا يجاري هؤلاء العلماء ، ويقول إن هذا النص « في يوم ١٠ نوفمبر سنة ١٦١٩ وجدت وأنا ممتلىء حماسا قواعد علم يستحق الاعجاب » لا يفيدنا في تحديد هذا العلم ، واذن فلا سبيل لنا الى معرفته الا

---

(١) تاريخ ديكارت قبل سنة ١٦٣٧ *Histoire de Descartes avant 1637* ص ٧٤ باريس سنة ١٨٦٧

(٢) ذلك لأن الاستاذ فيشر يرى أن عزلة ديكارت الحقيقية كانت في نيوبرج وهي بالقرب من أولم حياة ديكارت وعمله ومذهبه [١٠] ص ١٧٥

(٣) الكتاب المذكور [١٠] ص ١٨١ وما بعدها

(٤) ديكارت ص ١٠٧

(٥) مذهب ديكارت [٣] ص ٤٤

(٦) ينجمن JUNGMANN ، رينيه ديكارت [١٦] ص ٢ ، وهو يقول أيضا إن الاستكشاف كان في نيوبرج

مجرد الظنون ؛ اذ أن ديكارت اهتدي حوالي هذا التاريخ الى علوم كثيرة تستحق الاعجاب ، وهي : الرياضة العامة ، واصلاح الجبر ، والتعبير عن المقادير بخطوط ، وعن الخطوط برموز جبرية [1] وإذن فنحن في حيرة في اختيار أحدها والجزم بأنه مقصود ديكارت [2]

والاستاذ ميلو يتفق مع الاستاذ أدام في الخروج على رأي الكثرة وله رأي خاص به ؛ ذلك بأنه يذهب الى أن يوم ١٠ نوفمبر سنة ١٦١٩ ليس تاريخ استكشاف المنهج ، أو اصلاح الجبر ، أو الاهتداء الى الهندسة التحليلية ، أو تاريخ غيرها من تجديدات ديكارت العلمية ، وانما هو يوم وصل فيه الى حالة صوفية سامية ، فرأى رؤيا « ليس للنفس الانسانية فيها أي نصيب » كما يقول ديكارت نفسه ؛ ويرى الاستاذ ميلوأن الاولى تفسير هذه الرؤيا مع ما عقبها من أحلام بأن الفيلسوف سمع صوتا الهيا يأمره « انهض وأقم هيكل العلوم جميعها بنفسك ، واحذ في هذا حذو الشعراء ، وخذ بما تلهم كما يأخذون بما يلهمون ، واعرض عن تعليم الكتب ؛ اذ سوف تنمو بذور العلوم الموجودة في نفسك من تلقاء ذاتها ، ولسوف تهدى الى الانسانية العلم العام الذي يسع كل شيء » . وينتقد الاستاذ ميلو التأويل المشهور لنص الاولمبيكا ، ورأيه أن ديكارت اهتدى في يوم ١٠ نوفمبر سنة ١٦١٩ الى ان ينحو في حياته العقلية نحوا جديدا«أي طرق الحياة تتبع ؟

(١) أي الهندسة التحليلية راجع المقال عن المنهج ص ٣٣ ـ ٣٥

(٢) شارل أدام حياة ديكارت ١٨ ص ٤٩ إلى ٥٥

Quod Vitae sectabor iter? وذلك بأن يعرض عن تحصيل علوم السابقين ومعرفة مقالات المتقدمين وان يقتصر على البحث عن العلم الذي تشتمل عليه نفسه ، وألا يستفيد الا من الكتاب الكبير ، كتاب العالم (1)

ولكننا رأينا أن ديكارت هجر دراسة الآداب كل الهجر وعزم على ألا يلتمس من العلم الا ما اشتملت عليه نفسه وصمم على ان ينفق بقية حياته في السفر وجمع التجارب في سنة ١٦١٦ أي بعد انتهائه من جامعة بواتييه مباشرة (2) وقبل ان يبدأ السفر في سنة ١٦١٨ ؛ أما نص الاولمبيكا فقد كتبه في منعزله بألمانيا في ١٠ نوفمبر سنة ١٦١٩ كما ورد في مطلع النص .

واذن فنحن نرى أن قول الاستاذ ميلو ليس من القوة بحيث يجوز لنا قبوله والأخذ به ؛ ولا يسعنا الا ان نأخذ برأي الكثرة ، أي أن ديكارت استكشف منهجه في ١٠ نوفمبر سنة ١٦١٩ ، وليس هذا لمجرد قول الكثرة به ، اذ أن ديكارت نفسه يقول انه أرجح ان يجد الحقيقة شخص واحد من ان تجدها أمة بأسرها ، بل لاننا نرى أن كل ما استكشفه ديكارت في العلوم انما يقوم على أساس منهجه ، وليس لديكارت الا منهج واحد هو قواعد كل العلوم ؛ وهي قواعد تستحق كل اعجاب

وفي اليوم التالي نذر ان يحج الى كنيسة العذراء في لورت ـ

---

(1) ميلو أزمة صوفية عند ديكارت في سنة ١٦١٩ (9)

(2) المقال عن المنهج ص ١٤ و ١٥ انظر التعليقة رقم ١ ص ١٥ والمقدمة صفحة ز

Notre Dame de Lorette حمداً لله على أن وفقه لهذا الاستكشاف ؛ وان يسعى اليها من البندقية سيرا على قدميه : وكان يريد ان يفي بهذا النذر قبل انتهاء شهر نوفمبر ولكنه لم يف به الا بعد خمس سنين [(١)]

وغادر منزله الذي وافته فيه قواعد فلسفته قبيل ان ينتهي الشتاء أي في سنة ١٦٢٠ وقضى القسم السنوات التالية في السفر هنا وهناك في العالم مجتهدا ان يكون فيه متفرجا لا ممثلا في كل المهازل التي تمثل فيه [(٢)] . وقد باع أملاكه في بواتيه التي ورثها من جهة أمه في سنة ١٦٢٣ ويظهر من ذلك أنه كان قد صمم رأيه على ألا يستقر في وطنه [(٣)] . وذهب الى ايطاليا وطاف فيها وحج الى لوريت سنة ١٦٢٤ موفيا بنذره القديم وحضر احتفالا دينيا كبيرا في رومة في السنة التالية وبعد عدة أسفار في ايطاليا عاد الى وطنه وفكر أبوه في أن يوطد له مركزا في فرنسا فعرض عليه ان يشتري وظيفة حاكم عسكري Lieutenant général فأبى الفيلسوف ؛ ونصحه بالزواج ولكنه لم يتزوج لانه رأى استحالة العثور على ضالته بين النساء ثم لانه كان يفضل جمال الحقيقة على الجمال الانساني [(٤)] وقد ذكر بابيه أن أقارب

(١) انظر كينوفشر حياة ديكارت وعمله ومذهبه [١٠] ص ١٨٢

(٢) المقال عن المنهج ص٤٥

(٣) شارل أدام حياة ديكارت [١٨] ص ٦٣

(٤) نفس الكتاب [١٨] ص٦٩ و ٧٠

ديكارت أرادوا ان يزوجوه بفتاة من أسرة طيبة وعلى كثير من الجمال ، وكانت هـذه الفتاة تجتمع مع الفيلسوف في أحايين كثيرة وقد روت فيما بعد أن ديكارت كان يؤثر الفلسفة على كل جمال وأن كل ما قاله لها من العبارات التي يعتاد الشبان على قولها للفتيات اللاتي سيصبحن لهم زوجات انه لم يجد قط جمالا من المستطاع مقارنته بجمال الحقيقة [1]

وكان وهو في فرنسا يؤثر العزلة في الأقاليم واذا ذهب الى باريس أخفى نفسه عن أصحابه واعتزل ليفرغ للقراءة والتفكير والكتابة وروى بابيه أن أحد أقاربه استدعاه ليقضي عنده زمنا في باريس ، وكانت شهرة ديكارت قد بدأت تذيع في الاندية ، فأصبح بيت مضيفه كأنه ناد علمي زاخر بالرواد ، ولم يطق الفيلسوف صبرا على هذا ، وهو الذي يؤثر الراحة والعزلة على كل شيء ، فاختفى فجأة ولم يعلم أحد شيئاً من أمره ، وقلق مضيفه غاية القلق ، واتفق ان عثر بعد زمن غير قصير على خادم الفيلسوف ، فسأله عن مقر سيده فأفاده بعد تردد

ثم قضى في باريس أعواما ثلاثة من سنة ١٦٢٦ — ١٦٢٨ ، وكان فيها كسائر شباب النبلاء يلهو ويغشى الأندية والمجتمعات ويكثر من قراءة القصص والاشعار

وكان الالحاد ذائعا في فرنسا ذلك العهد وكان للشعراء الملحدين

(١) حياة المسيو ديكارت ج ٢ ص ٥٠١ مقتبس في أدام الكتاب المذكور ص ٧٠ تعليقة حرف ب

الاباحيين حظوة عند الشباب وشهرة بين جمهور القراء والمتأدبين، ولم يكن ما يلقاه الملحدون من علماء الدين ومن البرلمان من أنواع المقاومة العنيفة وألوان التعذيب الا ليزيد الناس تعلقاً بهم وتوفرا على قراءة آثارهم . ولكن ديكارت الشاب الذي أبى عليه عقله وذكاؤه ان ينحو في تفكيره نحو سابقيه مع مالهم في نفوس أهل العلم من قداسة أيدتها القرون الطويلة ، أبى عليه عقله أيضا ان يجاري معاصريه ، بل لقد كان أكثر من ذلك حرية وشجاعة فقد عزم على ان يحارب الالحاد ، وكان هذا العزم من الاسباب التى بعثته الى الكتابة

ومما هو جدير بالذكر لوصف الحياة العقلية في ذلك العصر ما هو مشهور عن ثلاثة من العلماء عقدوا اجتماعا كبيرا في ردهة من أجمل ردهات باريس ليدحضوا بعض آراء أرسطو في الطبيعيات ، وشهد الاجتماع نحو الالف ، وقبل أن يبدأ الكلام أمر أولو الامر باخلاء المكان وان ينصرف الحاضرون ثم أصدر البرلمان أمراً باعدام مقالاتهم وان يغادروا باريس في ٢٤ ساعة وألا يكونوا في أي بلدة تدخل في اختصاص محكمة التفتيش التي حكمت عليهم وحرمت عليهم ان يعلموا الفلسفة في أي جامعة وهددت كل من يتناقش في هذه المقالات أو ينشرها أو يتجر فيها بأن يعاقب عقابا بدنيا مهما كان مركزه . ولم يفت البرلمان ان ينص في قراره على تحريم اذاعة الآراء التى تخالف آراء المؤلفين القدماء الذين تقرهم الكنيسة لاسيما أرسطو ، وأن كل من يرتكب هذا الاثم يحكم عليه بالاعدام . وقد علم ديكارت بكل هذا ، وربما كان ذلك مما حبب له الابتعاد عن فرنسا .

واتفق ان شهد الفيلسوف اجتماعاً عند سفير البابا في باريس ، وقام أحد العلماء يبسط آراءه فأعجب به الحاضرون كل الاعجاب ماعدا ديكارت ولما دُعي للكلام نهض وانطلق يتكلم بفصاحة وأثبت عكس ماقاله العالم بحجج قوية واضحة ورأى أحد الحاضرين من أولى الشأن أن ديكارت لم يكن مجددا فحسب بل كان مصلحا أيضا فأخذ يطلب اليه ان يفرغ لاصلاح الفلسفة وقال له انه يعقد عليه أمله في النهضة بفلسفة حديثة . ورأى ديكارت أن الكثيرين أخذوا يضعون هـذا الامل فيه فشجعه ذلك على ان يصمم العزم على كتابة مذهبه فيما بعد الطبيعة ورأى أن تدوين طبيعياته لن يكلفه بعد ذلك الا شهورا عدة (١)

وهكذا انقضت التسع سنين من سنة ١٦١٩ الى سنة ١٦٢٨ وهو ينتقل من بلد الى بلد ويغشى النوادي المختلفة ويتصل بالجيوش ويبتلي نفسه في مصادفات الحياة ، وفي هذه المدة كان يفكر ، فرأى ان ينتزع من عقله كل الآراء التي وجد أنها موضع للشك ، وألا يدخل في اعتقاده الا ما يتمثل أمام عقله في وضوح ، وكان يروض نفسه على تطبيق منهجه على معضلات العلوم الرياضية وكان يجتهد في تخليص معضلات العلوم الاخرى من مبادئها وتحويلها الى ما يشبه معضلات الرياضيات ، وهو يعترف أنه لم يستقر حتى هذا العهد على رأي نهائي في المعضلات التي هي فى العادة موضوع الخلاف بين العلماء ، وعلى العموم لم يصل الى فلسفة جديدة بدل الفلسفة

---

(١) شارل أدام حياة ديكارت [١٨] ص ٩٥ الى ٩٨

التي كانت ذائعة في العصور الوسطى والتي كان حجتها وامامها الاول أرسطاطاليس [1]

وقد رأى أنه لا يستطيع ان ينهض بالواجب الذي اضطلع به الا اذا ابتعد عن معارفه، وانفرد حيث يجد من الراحة مايعينه على النظر والتفكير ولم يجد مقاماً أوفق له من هولندا فرحل اليها فكان فيها في خريف سنة ١٦٢٨

وكانت هولندا اذ ذاك في أوج مجدها، اذ أنها كانت قد انتصرت على اسبانيا القوية واستخلصت منها استقلالها. وكان جيشها مدرسة أوربا الحربية يقصد اليه أبناء النبلاء ويلتحقون به، وكانت لها تجارة رائجة مع الهنود والعرب والاتراك، وازدهرت فيها العلوم والآداب فأخذت جامعة ليدن في الترقي حتى أصبحت في القرن السابع عشر تضارع جامعات ألمانيا العتيدة، وكذلك تأسست في المدن الكبيرة جامعات أخرى، وأخذت معاهد العلم ونواديه تنتشر في البلاد. وتبع هذا الرغد في الحياة والنور ازدهار الفنون الجميلة، ولا تزال لمدينة ليدن شهرتها في الطباعة حتى الآن. وكان فن التصوير على شيء من الكمال كثير، ومن آثاره صورة ديكارت التي نشرناها في مطلع هذا الكتاب وهي من رسم فرانس هلز پنكس Franz Hals Px وكانت الحرية والتسامح مبسوطين هناك، حتى لقد كان يطبع في هولندا من كتب العلماء الاوربيين مالا يمكن طبعه في بلادهم مثل

(١) المقال عن المنهج ص ٤٥ — ٤٧

كتب غاليليه التي تولى طبعها آل الزفير Les Elzviers أهل الشهرة العريضة في تاريخ الطباعة

وليس السبب الرئيسي في تفضيله هولندا على غيرها لكي يقيم فيها هو أن فيها من الحرية ماليس في أي بلد آخر . اذ أنه كان كاثوليكي المذهب والهولنديون پروتستنت وكان العداء بين علماء المذهبين قوياً ولم يتوان ديكارت في مناصرة أساتذته اليسوعيين فاعتبره علماء الدين الهولنديون ملحداً . وكذلك لم يكن جو هولندا ، وأ كثر العام فيها شتاء ، ليجذبه اليها ولكن السبب الرئيسي لاختياره الاقامة هناك هو ما أبداه في قوله : « . . . . حملتني تلك الرغبة على أن ابتعد عن كل الأماكن التي أجد فيها بعض من أعرفهم ، وأن أنعزل هنا في بلد وطد فيه طول استمرار الحرب نظما [جيدة] ، حتى أن الجيوش التي يحتفظ بها في هذا البلد تبدو كأنها لاتستخدم إلا في أن ينعم الناس بثمرات السلام في كثير من الطمأنينة ، وحيث استطعت في غمرة شعب كبير جم النشاط ، يعنى بأعماله عناية أكثر من تطلعه الى أعمال الآخرين ؛ بدون أن أحرم أى رخاء مما يوجد في المدن الغاصة بالنازلين ، أن أعيش منفرداً ومنعزلا كما لو كنت في أقصى الصحاري[1] »

ورأى للمرة الثانية صديقه بيكمن واستمرت بينهما صلة العلم والصداقة واتصل ببعض الاطباء وأساتذة جامعة ليدن والمستشرقين والرياضيين

(١) المقال عن المنهج ص ٤٨

والادباء والأعيان وعلماء الدين الكاثوليكيين والبروتستانت ، وتنقل في مبدأ إقامته في هولندا بين فرانكير وليدن وأمستردام

وفي آخر سنة ١٦٢٩ ، بدأ ديكارت في كتابة رسالته « العالم *Le Monde* » (١) . ولكن حدث في ٢٣ يونيه سنة ١٦٣٣ أن دانت محكمة التفتيش في رومه غاليليه لاصداره كتابه المشهور عن مذهبي بطليموس وكوبرنيك في سنة ١٦٣٢ ، وذلك لان السلطة الدينية أحست بالخطر الذي يتهددها من نقض القول القديم بأن الارض ثابتة وسط العالم ، وأن الفلك يدور حولها . وقد علم ديكارت بهذا الحكم ، وكان يريد أن يبعث بمخطوطة رسالته العالم الذي اشتغل فيه من سنة ١٦٢٩ الى ١٦٣٣ الى صديقه الاب مرسن ، فبلغ به الفزع مبلغاً كبيراً لأنه قال بدورة الارض في رسالته وورد في كتاب له أرسله اليه في ٢٢ يوليه سنة ١٦٣٣ « أدهشني هذا الى حد كدت معه أن أصمم على احراق أوراقي ، أو على ألا أظهرها لاحد على الاقل ... وإني لاعترف أنه اذا كانت [حركة الارض] باطلة ، فان كل أصول فلسفتي باطلة كذلك ؛ اذ أن هذه الأصول تثبتها اثباتا واضحاً وأنها من الاتصال بكل أجزاء رسالتي بحيث لا أستطيع فصلها عنها دون ان أصيب كل ما يبقى بنقص . ولكن لما كنت لا أريد أن يصدر عني قول يمكن ان توجد فيه كلمة واحدة لا تقرها الكنيسة ، فانني أفضل ان ألغي

(١) انظر كتابه الى صديقه مرسن في ١٨ ديسمبر سنة ١٦٢٩ في ج ١ ص ٨٤ و ٨٥ من الاعمال طبعة أدام وتانري

هذا القول على ان أظهره مشوها »[1]

والسبب فى امتناعه عن نشر رسالته هو رغبته الشديدة في راحة البال ، وقد كان شعاره الدائم « عاش سعيدا من أحسن في الاختفاء Bene vixit qui bene latuit »[2] . ثم إنه كان يطمع في أن تحل طبيعياته محل طبيعيات أرسطو ، أي ان تعلم في المدارس ، واعتقد أن هذا ليس من المستطاع ما لم يقرها رجال الدين ؛ كما أنه اعتقد أن ما تستنكره محا كمهم مقضي عليه بالفناء

ولكن آراء غاليليه لاقت من النجاح ما لم يكن يتصوره ديكارت فترجم كتابه الى اللاتينية ونشر فى هولندا ، وشرح مذهبه فى فرنسا كما نقلت أيضاً الى الفرنسية بعض كتاباته ؛ وكان من المدافعين عن آرائه والعاملين على نشرها فى فرنسا الاب مرسن صديق ديكارت . كما أن البعض كتب ضد قول غاليليه بحركة الارض حول محورها في أربع وعشرين ساعة في الفضاء ، ونقتبس من كتابة هذا البعض الاخير الفقرة التالية من كتاب لاحد أساتذة الكوليج ده فرانس في هـذا المهد ليتبين للقارىء تنازع وجهات النظر في القرن السابع عشر واختلاف الانحاء العلمية في أوربا في هذا العصر « بما أن الله قد أرسل ابنه لينقذنا بموته ، فلا ينبغي ان يستغرب إذن لو أنه جعل السموات تدور من أجلنا ، ولو أنه خلق العالم الجسمي كله

---

(١) أعمال ديكارت ج ١ ص ٢٨٥ و ٢٨٦ مطبوعة أدام وتانري

(٢) كتابه الى مرسن ١٠ مارس سنة ١٦٣٢

لفائدة الناس ولذتهم »[1]

ولكن ديكارت لم يكن ليرتاح الى عزمه في سنة ١٦٣٣ على ألا ينشر شيئاً، ذلك لان الكثيرين كانوا ينتظرون شيئاً من هذا الفيلسوف الذي هجر بلاده واعتزل الناس في هولندا ليفكر في راحة واطمئنان. صمم على ان ينشر للناس بعض ما انتهى اليه؛ ورأى ان يقدم لهم نماذج من فلسفته حتى اذا قرأوها اشتاقوا الى ان يطلعوا على مذهب الفيلسوف بأكمله. وما كاد يستقر على هذا الرأي حتى عكف على العمل، وفي قليل من الزمن كان قد أتم ثلاث رسائل هي **انكسار الاشعة** و **الانواء** و **الهندسة** ووضع لها مقدمة هي **المقال عن المنهج** وعزم على نشرها جميعا في سفر واحد دون ان يذكر فيه اسمه وفي سنة ١٦٣٦ قصد ليدن لطبع هذا الكتاب، وبعد اتمام الطبع غادرها وأخذ يتنقل بين مدن هولندا، ثم عاد الى ليدن فلبث فيها من سنة ١٦٤١ الى سنة ١٦٤٣

واتصل بالاميرة إليزابيت البلاتينية[2]، وكانت مثقفة بالثقافة الفرنسية، وتعرف لغات كثيرة، وواسعة الاطلاع في علوم عصرها؛ وقد

(١) نص مقتبس في شارل أدام **حياة ديكارت** [18] ص ١٧٣

(٢) هي ابنة الناخب البلاتيني فريدريك الخامس كان ملك بوهيميا وخسر تاجه وعرشه في سنة ١٦٢٠ ثم انتقل الى هولند ومات سنة ١٦٣٢ وظلت الاميرة مع أمها في هولندا وقد عاشت من سنة ١٦١٨ الى سنة ١٦٨٠. انظر تفاصيل تاريخها وعلاقتها مع ديكارت في كتاب كينو فشر حياة **ديكارت وعصره ومذهبه** [10] ص ١٩٩ وما بعدها

عرفت الفيلسوف من كتبه فبدأت بمراسلته فرحب ديكارت بهذه الصلة الجديدة ، وتمكنت بينهما الصداقة فكانت تستشيره في كل شؤونها حتى في مصير أسرتها الملكية وأعجب هو بذكائها وحبها للعلوم فأهداها كتابه **مبادىء الفلسفة** سنة ١٦٤٤ ، وكان يشرح لها أصول مذهبه ويطلعها على استكشافاته الرياضية . وقرأ معها كتاب **الحياة السعيدة** *de vita beata* للفيلسوف الروماني الرواقي سنكا SENECA . ثم أخذ يكتب اليها بعد ذلك في الاخلاق . وبعد سنة ١٦٤٦ شرع يكتب اليها عن كتاب ميكافلي **الامير** ويستنتج الاستاذ أدام من ذلك أن ديكارت يرى أن درس واجبات الحياة المدنية يعقب درس واجبات الحياة الخاصة وبتعبير آخر أن علم السياسة يأتي بعد علم الاخلاق . وقد اتفق الفيلسوف مع الاميرة على مخالفة مكيافلي في آرائه ، ولم يريا معه أن الغاية تبرر الوسيلة ، بل ذهبا الى أن الشر لا يعقب غير الشر ، والعنف لا يجلب إلا العنف ، وأن الكذب لا يولد سوى الكذب ، وإذن فمن الخير ان تتجنب هذه السياسة منذ المبدأ [1] . واستمر تبادل الكتب بينهما حتى مات ديكارت في السويد فحفظ السفير الفرنسي شانو Chanut مسودات رسائل ديكارت مع ردودها عليها ، وطلب اليها ان تأذن له بنشر رسائلها مع رسائل الفيلسوف فأبت عليه ذلك ، لانه كان قد عارض في بعض الظروف في سفرها الى السويد ، وطلبت اليه أن يرد اليها رسائلها ففعل وظلت محفوظة لديها ثم عثر عليها الكونت فوشيه دي كاري

(١) **حياة ديكارت** [18] ص ٤٢٦

Foucher de Careil في مكاتب بعض النبلاء فنشرها لاول مرة سنة ١٨٧٩ وقد أدمجت فيما بعد في مطبوعة أدام وتانري بعد مراجعتها بالمخطوطة التي اعتمد عليها دي كاري نفسه . أما الاميرة فقد اعتزلت في آخر حياتها في دير وقضت بقية عمرها في التنسك وماتت سنة ١٦٨٠ بعد أن ذاعت شهرتها بين الجميع بعلو كعبها في العلوم وبسمو أخلاقها وفضائلها

وقد سافر ديكارت الى فرنسا سنة ١٦٤٤ بعد غيابه الطويل عنها ليسوي فيها بعض مصالحه ، ثم غادرها راجعا الى هولندا في سنة ١٦٤٧ . وكانت شهرته إذ ذاك قد ذاعت فعزم ملك فرنسا في سبتمبر من نفس العام على ان يفرض له راتباً سنوياً مقداره ٣٠٠٠ جنيه ، وجاء فى الوثيقة الرسمية التي اقتبسها مترجم حياته بايبه عن ذلك أن هذا الراتب قد قرر له « نظرا لفضائله الكثيرة وللفائدة التي تحصلها للنوع الانساني فلسفته وبحوثه فى دراساته الطويلة ؛ وكذلك معاونة له على مواصلة تجاربه الجليلة التى تستلزم النفقات »[1] ولكنه غادر باريس على غير علم بهذا لانه لم يسع الى ذلك ولم يطلب شيئا . ويظهر أنه لم يعلم إلا فى يناير سنة ١٦٤٨ فعزم على مغادرة هولندا وأخذ يودع أصدقاءه وداعاً نهائياً وترك منعزله في مايو من نفس السنة

ولكنه لم ينل شيئاً من هذا الراتب ، بل لقد دفع نفقات الصك الملكى من ماله ، وكان مكتوباً على الرق الثمين ، وقد اشتكى غلاء ثمنه فيما بعد الى

(١) شارل أدام حياة ديكارت [18] ص ٤٥٨ و ٤٥٩

صديقه شانو السفير الفرنسي في السويد

ولم يطمئن للبقاء فى باريس ؛ ذلك لان الحرب الداخلية كانت قائمة فى فرنسا اذ ذاك ، ولم يستقبله العلماء الفرنسيون على نحو ما كان ينتظر ؛ وكانت الحرب الخارجية تهدد فرنسا كذلك ، ولما كان السلام والطمأنينة أحب شيء لديكارت فقد عجل بمغادرة وطنه فى أغسطس سنة ١٦٤٨ بعد ان ودع صديقه القديم الأب مرسن الذي كان في مرض الوفاة وعاد الى منعزله في اجموند Egmond فى هولندا

وكان مرسن أوفى أصدقائه ، عرف عنه التبحر في العلوم والاخلاص في التمسك بالدين ؛ وكرم الاخلاق ، وقد مات في سبتمبر سنة ١٦٤٨ وطلب الى أطبائه قبيل وفاته أن يشرحوا جثته كي يعرفوا علة دائه ، ولم يكونوا قد اهتدوا اليها في حياته ، ليتيسر لهم فيما بعد أن يعالجوا من يصاب بما أصيب به

واهتم ديكارت في منعزله بأخبار وطنه وكان شديد الجزع على فرنسا من الحروب والأخطار التي تهددها ولما علم بزحف الارشيدوق ليوبولد على باريس ، دعا الله في صلاته « أن يجعل حظ فرنسا يعلو على سعي الذين يريدون بها السوء[1] » . وظل ديكارت في منعزله هادئاً مطمئناً الى أن دعته ملكة السويد لزيارة استوكهلم

***

(١) شارل أدام حياة ديكارت ١٨ ص ٤٧٣ — ٤٧٤

كان للسويد في هذا الزمن شهرة واسعة بفضل ملكها العظيم جستاف أودلف الذي أدهش العالم بشجاعته وانتصاراته في الحروب ، وورثت عنه الملك ابنته فأرادت أن تحتفظ لمملكتها في أيام السلم بما أكسبها من مجد في أيام الحرب فشرعت تستدعي العلماء لبلادها ، وكان أشهر من استدعت هو رينه ديكارت ، وكان السفير الفرنسي في بلاطها شانو صديق ديكارت قد عرفها بفضله فرغبت في دعوته كما أنه اجتهد في حمل الفيلسوف على قبول هذه الرحلة . وقد استدعته في ٢٧ فبراير سنة ١٦٤٩ لزيارة استوكهلم قاعدة ملكها ثم بعثت باميرال سويدى الى هولندا ليستصحب الفيلسوف في سفينته[1] . وقد تردد في قبول الدعوة ، ولم يأنس من نفسه في بادىء الامر ميلا للنزوح الى السويد وكان يسميها بلد الدببة Pays des ours . ووصل اليه القائد البحري في ابريل من نفس العام وأبلغه طلب الملكة فاعتذر بأنه لا يستطيع فراق منعزله . وعلم السفير الفرنسي بذلك وكان يريد أن يسافر الى فرنسا فعجل بالسفر ومر به وأقنعه بضرورة الذهاب الى الملكة فقبل وسار في أول سبتمبر سنة ١٦٤٩ ووصل الى عاصمة السويد بعد شهر . وفى أثناء السفر فى البحر دهش قائد السفينة من سعة اطلاعه بفنون الملاحة وأحوال البحر فقال للملكة عند ما قدمه اليها : « ليس الذي أقدمه لصاحبة الجلالة رجلا ، بل هو نصف إله[2] »

(١) الكتاب المذكور ١٨ ص ٥٣١

(٢) الكتاب المذكور ١٨ ص ٥٣٥

ولم يرتح للبقاء فى السويد ؛ اذ أنه شعر بالوحدة ووحشة الغربة ، وكان أكثر ما يعنى به البلاط السويدى هو علوم اللغات والشعر ، فعزم على العودة ، ولكنه رأى أن يُبقى أثراً فى السويد فرسم للملكة مشروع مجمع علمى ، واشترط ألا يكون للاجنبي حق العضوية فيه ، وقيل أنه اشترط هذا الشرط حتى لا يُستبقى فى السويد

وفى أوائل سنة ١٦٥٠ كانت الملكة تختلف اليه في حجرة عملها للتحدث معه فى الفلسفة ثلاث مرات في الاسبوع في الساعة الخامسة من الصباح . ولم تكن هذه الساعة المبكرة ملائمة له ؛ اذ أنه اعتاد منذ حداثته أن يستيقظ في ساعة متأخرة ؛ ثم انه كان يتعرض لبرد الشمال القارس لاسيما في فصل الشتاء فاصابه التهاب في صدره ، ورفض معاونة الأطباء وأبى الاصغاء لنصائحهم ، وأخذ يعالج نفسه بنفسه ، واشتد عليه المرض حتى بلغ رئتيه وأدركته المنية في الساعة الرابعة من صباح ١١ فبراير سنة ١٦٥٠

وأرادت الملكة أن يدفن فى مقابر الاسرة الملكية فرفض صديقه السفير شانو أن يدفن مع من هو على غير دينه ، لأن السويد بروتستنتية المذهب ، ودفنه فى قبر موقت ثم أقام له قبراً فى مايو سنة ١٦٥٠ ، وفى ١٦٦٦ ألح أصدقاؤه والمعجبون به من الفرنسيس أن تنقل رفاته الى باريس فقبلت الحكومة ذلك واحتفل بدفنه فى ٢٤ يونيه سنة ١٦٦٧ ونقلت رفاته في مدافن عدة وهى الآن في كنيسة سان جرمان ده بره Saint - Germain des - Prés

— ٢ —

شخصية ديكارت

ان أظهر نزعة فى خلق ديكارت هى حبه للراحة والسكينة وولعه بالعزلة والهدوء ؛ ولقد رأينا أنه هجر وطنه وهو شاب لا نه رأى أن السلطات في فرنسا لا تطيق أن ينهض فيها داع لمذهب يخالف الفلسفة الرسمية التي كان معلمها الاول ارسطاطاليس ؛ ثم لانه أدرك أنه يستحيل عليه أن يعيش فى وطنه منعزلا عن الناس منقطعاً للتأمل والتفكير كما ينعزل الرهبان والمتصوفة في الصوامع والكهوف ورءوس الجبال والصحاري للنسك والعبادة ؛ فهاجر الى هولندا مع قسوة بردها وطول شتائها وذلك لانه عرف أنه يقدر على أن يعيش فيها آمناً على حياته مطمئناً على متاعه إذ أن هذه البلاد تحتفظ بجيش كبير ، يقوم على حفظ الامن ورعاية السلام (١) ، ويجب أن ينتبه القاريء الشرقي ؛ كي يقدر هذا ، الى أن قطع الطرق ، واغتيال المسافرين ، والسطو على الآمنين ، كانت حوادث مألوفة الوقوع فى بلاد مثل ايطاليا وفرنسا فى هذا العهد

وقد دفعه شغفه بالهدوء والاطمئنان الى أن يجزع جزعاً شديداً عندما بلغه خبر الحكم على غاليليه ، ولم يجزع اشفاقاً على هذا العالم الهرم ، ولكنه جزع لانه رأى رأيَ غاليليه ، وانتهى بمنهجه الى اثبات أن الارض كوكب سيار

(١) أنظر ص ٤٨

تتحرك حول محورها وتتحرك حول الشمس ، وكان على وشك أن ينشر رسالته **العالم** *Le Mond* التي يشرح فيها هذا الرأي ، ولـكنه ما كاد يعرف أن السلطة الدينية في روما رأت أن قول غاليليه مخالف لقول الانجيل وقول أرسطو بأن الأرض مركز العالم وأنها ثابتة لا تتحرك وأنها من أجل هذا لم تتوان في مؤاخذته وادانته ، حتي اضطرب واتهم نفسه وشك في أصول فلسفته ، وكاد يحرق أوراقه . ونحن نعرف أنه كان في هولندا البروتستنتية أي في منأى عن أذى محاكم روما وتعذيبها ، ثم انه مع ذلك كان على ثقة من أنه ليس في القول بحركة الارض شيء يتعارض مع العقيدة الدينية في شيء[1] ، إلا أنه خشي أن يقال عنه إنه خارج على رجال الدين[2] وأقل ما في هذا هو إزعاج راحته ، وإقلاقه في حياة صمم على أن يمضيها متخذاً هـذا الشعار :

« عاش سعيداً من أحسن الاختفاء Bene Vixit, qui bene latuit »

وبلغ به الفزع والخوف الى أن قال في مطلع القسم السادس من المقال « لا أريد أن أقول إنني كنت على هذا الرأي » ولكنه عند ما اضطر الى التعرض لمسألة حركة الارض في كتابه **مبادئ الفلسفة** أخذ يدور ويلف

---

(١) انظر كتابه إلى مِرْسِنْ ١٠ يناير سنة ١٦٣٢ **والمقال عن المنهج** ص ٩٩

(٢) بلغ من تقديره للمحققين في روما أن قال عنهم « لهم من السلطة على اعمالي ما لا يقل عما لعقلي من السلطة على أفكاري » انظر ص ٩٩

ويعرف الحركة تعريفاً غريباً [1] ، وبالاختصار قال بحركة الارض بتعبيرات بالغة في الغموص والالتواء لتحميه من غضب السلطة الدينية عليه . وقد عد الكثيرون هذا جبناً من الفيلسوف ، ولكننا نرى أنه جبن اضطر اليه في سبيل غاية جريئة هي أن تحل طبيعياته محل طبيعيات أرسطو في التعليم وهذا كان مستحيلا بدون رضاء الكنيسة

* * *

ومن صفات ديكارت البارزة أيضاً شدة تمسكه بدينه ومذهبه ، وقد رأينا كيف نذر أن يحج الى كنيسة العذراء في لورت بايطاليا Notre - Dame de Lorette شكراً لله على أن هداه الى أصول فلسفته في ليلة ١٠ نوفمبر سنة ١٦١٩ م ورأينا كيف أوفى بنذره ، وانضم الى جانب أساتذته اليسوعيين في نزاعهم الديني مع علماء هولندا البروتستنت مع أنه كان نزيلهم وضيفاً في بلادهم

ولم يمنعه تمسكه بمذهبه من أن يحمل السلاح في جيوش هولندا البروتستنتية التي حاربت اسبانيا الكاثوليكية في سبيل حريتها وخلاصها من أشهر ضروب الاستعباد في التاريخ

ويضاف الى تمسكه بالدين حبه لوطنه فقد رأينا أنه بعد أن غادر فرنسا لآخر مرة ، وكانت فريسة للحروب الاهلية ومهددة بالخطر الخارجي ، كان كثير الاهتمام بأخبار وطنه ، وكان يدعو الله في صلاته أن ينجيه من

---

(١) أنظر الجزء الثاني الفقرات رقم ٣١ ، ١٣ ، ٢٥

كيد أعدائه . وروى الطبيب الذي عُني به أثناء مرض الوفاة في السويد ، وكان ألماني الجنس أنه رأى أن يفصد له ، فرفض ديكارت رفضاً شديداً وقال له : « لا تقرب الدم الفرنسي [1] » .

***

وكان ديكارت جم التواضع ، يشهد له بذلك كثير من تعابيره في كتبه ، وفي المقال من هذه التعابير الشيء الكثير مثل قوله « أما أنا فلم أدع قط أن نفسي أكمل من نفوس الغير ، بل كثيراً ما تمنيت أن يكون لي من سرعة الفكر ، أو من وضوح الخيال وتميزه ، أو من سعة الذاكرة وحضورها ، مثل ما لبعض الناس [2] » أو كقوله « ما كنت قط عظيم العناية بالاشياء التي كانت تصدر عن نفسي . . . الخ الى أن يقول : مع أن أنظاري كانت ترضيني كثيراً ، فانني كنت أعتقد أن لغيري أنظارا قد يكونون بها أشد اعجابا [3] »

ومما يجدر ذكره أنه بعد أن تم طبع المقال والرسائل الثلاث سنة ١٦٣٧ ، أرسل الكتاب الى صديقه مرسن ليحصل له من السلطات الفرنسية على الاذن بتداوله في فرنسا ، وأراد صديقه أن يقوم له بعمل ليجذب الكتاب اهتمام الجمهور ، فقصد الى مستشار يمت بصلة الرحم الى بعض

(١) شارل أدام حياة بطارت ١٨ ص ٥٥١ والهامش رقم ١
(٢) ص ٤
(٣) ص ١٠٠

أصدقاء ديكارت ، وكان المستشار محبا للآداب والعلوم ؛ فلما شرح له مرسن غايته وأطلعه على رغبته ، أردف الاذن بنشر الكتاب باطراء المؤلف ومدحه والاشارة الى ما ينتظر منه في سبيل تقدم العلوم والفنون ورسم اسمه في الاذن Des - Cartes [ده كارت] اظهارا له بمظهر النبلاء[1] ولكن ديكارت لم يستبق من كل هذا الا المعالم التي لا يمكن تداول كتاب في فرنسا اذ ذاك بدونها وأظهر كتابه دون أن يظهر عليه اسمه.

وجمع الى تواضعه اباء وشمما . أرسل اليه في هولندا الكونت داڤو d' Avaux مبلغاً كبيرا من المال ليستعين به على صنع التجارب التي أشار اليها في القسم السادس من **المقال** فرده واعتبر هـذا اهانة له[2] . وفكرت كرستين ملكة السويد فى أن تقطعه ضيعة من أملاكها في ألمانيا ، التي آلت اليها بفضل معاهدة وستفاليا ، ولـكن ديكارت علم أن هذه الضيعة منتزعة من أوقاف بعض الاديرة فأبى هذه المنحة الملكية[3]

ولو شئنا احصاء النوادر التي يتبين مبلغ ماكان عليه ديكارت من سمو في الاخلاق يضارع سموه فى التفكير ، لطال الكلام ولـكن قبل أن نغادر هذا المجال يحسن بنا أن نعرض لما قال عنه خصومه فى هذا تكميل للصورة التي نريد اظهارها لديكارت أمام القراء

***

(١) شارل أدام حياة ديكارت ١٨ ص ١٨٤

(٢) نفس الكتاب ص ٤٦٩

(٣) نفس الكتاب ص ٥٤٧

لم ينج ديكارت من خصوم حقدوا عليه واتهموه شتى التهم ، فقال البعض عنه انه ملحد مع أن الرجل يضع نظريته في المعرفة على أساس وجود الله وكونه متصفاً بكل الكمالات . والدافع الى هذه التهمة غضب المتعصبين للقديم عليه ، لأنه جاء بفلسفة جديدة مختلفة كل الاختلاف عن فلسفة أرسطو ، التي أصبحت مع توالي الزمن مقدسة ، وأصبح رجال الدين في أوربا يفسرون بها الانجيل وقواعد الدين المسيحي

ومن طبيعة الانسان أن ينفعل ويغضب اذا صدم فيما ألفه وتعود عليه . ذلك لانه لكي يغير ما تعود عليه ، يحتاج الى قوة لم يكن يحتاج اليها لو أنه ظل بدون تغيير ، ويشتد انفعال المرء اذا اصيب في معتقداته أو آرائه التي عاش عليها طول حياته ، وعاشت عليها من قبله أجيال يتصل بها أوثق اتصال ، اذ أن هذه المعتقدات والآراء تصبح بعد رسوخها في العقل وتأثيرها في العواطف أعز ما يمتلكه الانسان في حياته وأقوى ما يكوّن شخصيته

ويجب ، لكي نتصور مقدار هذا الانفعال ، أن ننتبه الى طول الزمان الذي مر على الانسانية وهي تعتبر أرسطو استاذها الاول ، والى أن أهل العلم في العصور الوسطى قد اعتادوا في تفكيرهم طريقة شاذة وهي اعتبارهم قول هذا المعلم الاول الحجة وفصل الخطاب ، عنده يقف العقل مصدقا مؤمناً وان تجاوزه انسان أو خالفه اعتبر جاهلا أو اتهم بالزيغ في العقيدة والفسق عن الدين . بل ويبلغ من قوة سلطته على العقول أنه عندما اخترع المنظار المقرب (التلسكوب) وأمكن بواسطته رؤية بعض البقع على وجه

الشمس ، أن الكثيرين من العلماء لم يصدقوا هذا وشكوا في الذي تبينه لهم الحواس ، وذلك لان أرسطو لم يشر في كتبه الى بقع على الشمس

لم يخضع ديكارت لسلطة أرسطو ، بل كان يؤمن بما يقنعه به العقل الذى يدعوه بالنور الفطرى ، وقد اشتد تحقيره للذين لا يؤمنون بالأشياء إلا إذا قال أرسطو بها و كتب في هذا المعنى **فى المقال عن المنهج** « ...واني لواثق أن أكثر متابعي أرسطو حماسا الآن ، يرون أنفسهم سعداء لو أن لهم من العلم بالطبيعة ما كان له حتى بشرط ألا يتجاوزوا قدر ما علمه . إنهم مثل اللبلاب الذي ليس مستعدا لانه يرتفع الى ما فوق الاشجار التى تسنده ، بل وكثيرا ما يهبط بعد أن يبلغ ذروتها ، لأنه يبدو لى أيضا أن هؤلاء يهبطون ، أي إنهم يردون أنفسهم ، على وجه ما ، أقل علما مما لو كفوا عن التحصيل الخ الخ » [1]

وإذن فقد كان من حظ ديكارت أن يناله من السوء ما يناله الذي يغير ما ألفه الناس زمنا طويلا وارتاحوا لتعوده ، ولو كان باطلا ، وكانت له أسوة بالسابقين من المصلحين البائسين الذين يعنيهم جويته بقوله :

« إن القليلين الذين عرفوا منه شيئاً ، والذين كانوا من الحماقة بحيث لم يحفظوا ما في صدورهم ، و كشفوا للعامة عن عواطفهم وآرائهم ، صلبوا وصُلوا النار » [2]

---

(١) ص ١٠٩

(٢) **فاوست** *Faust* الجزء الاول القسم الاول

ويكفي القراء ليتبينوا كذب اتهامه بالالحاد أن يقرأوا **المقال عن المنهج** وأن يطلعوا على ما كتبناه في تاريخ حياته

وننتقل الآن من هذه التهمة ، بعد أن فندناها ، إلى تهمة أخرى سنرى أنها ليست أقل من السابقة تهافتاً وضعفاً ، وهي دعوى الذين قالوا عنه انه نسب لنفسه كل الفضل في بعض الاستكشافات العلمية التي استكشفها معاصروه وأهم هذه الاستكشافات قانون انكسار الاشعة الذي اهتدى اليه اسنليوس Snellius قبيل ديكارت

والدافع الى هذا النوع من الاتهام هو أن الفيلسوف لم يهتم بحركة العلوم في عصره ، وأهمل تقدير معاصريه بعض الاهمال ، ومع أن فيهم من له بعض الشأن في تاريخ التقدم العلمي ، الا أنه كان اذا ذكر هذا البعض لا سيما ممن عالجوا من المسائل العلمية ما عالجه ، لم يذكره باحترام يرضيه ويرضى أتباعه ، ولم يعترف له بفضل ، وهذا كاف لاغضاب الكثيرين وجعلهم خصوماً له ، وإذن فماذا يكون مبلغ عدائهم له إذا رأوه ينسب إلى نفسه كل الفضل في كل استكشاف علمي يصل اليه ؟ واذا اعترضوا عليه بأن غيره سبقه الى بعض هذه الاستكشافات ، أجابهم بأنه لم يقرأ ما كتبه هذا البعض ، ويشرح كيف وصل اليها بفضل منهجه الذي لم يسبقه اليه أحد ، وكيف تبرهن عليها أصول فلسفته الخاصة به

وعلى كل حال فان كل ما وجه اليه من تهم من هذا النوع انما يعتمد على التشابه بين نتائجه ونتائج غيره في بعض البحوث العلمية [1] . ومن الهين

---

(١) ميلو MILHAUD **مسئلة صدق ديكارت** ، ص ٣٠٢ و ٣٠٣

دفع هذا الاتهام بقول يثبته التاريخ وهو أن تقدم العلوم في أى عصر ، إذا وصل إلى درجة معينة يهيء الفرص لاستكشافات لابد من الانتهاء اليها . ثم انه مما لا ريب فيه أن الثقافة قد يسودها في زمن من الازمان تيار فكرى واحد ، فتتفق نزعات العلوم ، ويصل العلماء الى حقائق مشتركة ونتائج متشابهة دون أن يتعاونوا في البحث ، أو يكون بينهم أي اتصال . وقد اتهم ديكارت بعد وفاته بالاختلاس العلمي ليبنتز ونيوتن ، ومن أعجب المصادفات أن البعض اتهم ليبنتز باختلاس استكشاف نيوتن في الرياضة وأن البعض الآخر ينكر على نيوتن فضل التقدم ويعزو الاستكشاف الى الفيلسوف الألمانى ، مع أننا إذا تأملنا في حركة العلوم الرياضية في القرن السابع عشر أيقنا أنها كانت لابد أن تنتهي الى هذه الاستكشافات [1] ثم إن نظرة واحدة إلى ما يقوله ديكارت عن هارفي في المقال عن المنهج [2] تكفى لنفي القول بأنه كان كثير التحقير لمعاصريه

ورأينا إذن ، هو رأى كل العلماء الباحثين في ديكارت أي أنه لم يختلس الاستكشافات العلمية القليلة العدد التى استكشفها أيضاً معاصروه ، إذ أنه انتهى اليها بفضل منهجه ، وبرهن عليها بأصول فلسفته . ثم ان نظرة منتبهه في تاريخ حياته وأخلاقه ، بل في نفس صورته ، تستطيع أن تقنعنا أن الرجل لم يكن من أهل المهازل ، وهيهات أن يقم الرجل الذي حبس حياته علي

---

(١) ميلو نفس الموضع ص ٣٠٤

(٢) ص ٨٦

البحث عن علم يرقى بالطبيعة الانسانية الى أسمى مرتبة لها في الكمال أن يقع في خطأ خلق هو من أدنى ما تنحط اليه الطبيعة الانسانية من درجات النقص

نظرة في فلسفة ديكارت

يطلق ديكارت كلمة الفلسفة على مجموع العلوم ويشبهها بشجرة ؛ أصلها علم مابعد الطبيعة ؛ وساقها علم الطبيعة ؛ والفروع الخارجة من هذه الساق هي سائر العلوم التي يمكن حصرها في ثلاثة هي : الطب والميكانيكا وعلم الاخلاق [1]

والواجب علينا إذن لكي نعرض فلسفته ، ان نبسط آراءه في كل هذه العلوم وما يتشعب منها ، وان نثبت للقراء ما كان ديكارت شديد العناية باثباته ؛ أي كيف تقوم نظرياته العلمية على أنظاره في علم مابعد الطبيعة ، وكيف يسير في الاستكشاف والبرهان وفقاً لقواعد منهجه ؛ ولكنني أكتفي ، تواضعاً ، في شرح فلسفته بالكلام عن مذهبه في علم ما بعد الطبيعة ، لانه في نظره أول العلوم وأساسها ؛ ثم أتبع هذا بتحليل منهجه ، ثم انتهى بشرح آرائه في علم الاخلاق لانه تبعاً لتصنيفه للعلوم نهاية الفلسفة ويعتمد على معرفة كاملة بكل العلوم .

---

(١) مبادىء الفلسفة [6] المقدمة

مابعد الطبيعة أو نظرية المعرفة

٣ – المبدأ الاول

بحث ديكارت عن مبدأ عقلي لا يكون موضع شك ليقيم عليه فلسفته وعلمه ، وقال « ان أرشميدس لم يطلب الا نقطة ثابتة غير متحركة ليزحزح الكرة الارضية من مكانها ولينقلها الى موضع آخر ؛ وعلى هذا النحو يكون لى الحق في ان أتصور آمالا سامية اذا كنت من التوفيق بحيث أجد شيئاً واحداً يقينياً لا يقبل الشك » (١)

واذا كان من المستحيل ان توجد في الكون هذه النقطة الثابتة غير المتحركة التي تصلح ان تكون تكأة ، أو محور ارتكاز كما يقال ، لنقل الكرة الارضية من مكانها على نحو ماتخيل أرشميدس ، فانه لم يكن مستحيلا على ديكارت ان يجد هذه التكأة العقلية التي استطاعت ان تكون قاعدة قام عليها علم ثابت قوي

من المعروف أن من الفلاسفة من قال بنفي كل معرفة يقينية ، وهؤلاء هم اللاأدريون الذين ذهبوا الى أنه يستحيل على العقل الانساني أن يدرك الحقيقة الجازمة . وكان مذهبهم شائعا في فرنسا في عصر الفيلسوف وقد اطلع على مقالاتهم وعنى بها جد العناية وقرأ منتاني (٢) وتأثر به الى حد

(١) التأملات الثانية ١٣

(٢) هو ميشيل ده مُنْتَانْي Montagne الكاتب الفرنسى صاحب الرسائل المشهورة كان فيلسوفا وعنى عناية كثيرة بعلم الاخلاق وهو مشهور بلا أدريته ومع ذلك كان مخلصا في دينه عاش من سنة ١٥٣٣ الى سنة ١٥٩٢ ميلادية

بعيد ، وقد بين الاستاذ جاسون في تمليقه على المقال عن المنهج وجوه الشبه بين كثير من عبارات ديكارت وعبارات منتانى ، وقال الاستاذ برنشفيك في ذلك انه يقتبس عبارات منتاني دون ان يشعر بحاجة الى ذكر مصدرها كما كان يفعل عند اقتباس عبارات التوراة أو الانجيل [(1)] ، وكما تفعل نحن عند اقتباس آيات القرآن

وشاء ديكارت أن يبدأ بالشك في البحث عن مبدئه العقلي ، وأن يجاري اللاأدريين في غلوهم ، فاعترف بأنه شاهد أن الحواس قد خدعته في بعض الاحايين « ومن الحزم ألا نثق البتة تمام الثقة في الذين خدعونا مرة واحدة » [(2)] ، ثم أقر بأننا نتصور فى الحلم أشياء نحسبها اذ ذاك حقيقية فاذا استيقظنا تبدد الحلم وتبين لنا أن ما رأيناه أثناء النوم لم يكن من الحقيقة في شيء ، ومعنى هذا أن كثيراً من الصور والافكار التي تتوارد أمامنا في اليقظة ترد علينا بنفسها أثناء النوم دون أن تكون اذ ذاك حقيقية ، واذن ما الذى يمنع أن تكون تصوراتنا في اليقظة مثل تصوراتنا في النوم كلها خيالات وأوهام ؟ وفرض فرض اللاأدريين أن الذاكرة ، وهي خزانة التجارب والمعارف ، لا يمكن الاطمئنان اليها ، وقال أيضاً « . . . ولأن من الناس من يخطئون في التفكير ، حتى في أبسط أمور الهندسة ، ويأتون فيها بالمغالطات ، فاني لما حكمت بأنني كنت عرضة للزلل مثل غيري ، نبذت

---

(١) الرياضة وما بعد الطبيعة عند ديكارت ١٧ ص ٢٧٩

(٢) التأملات الاولى ١٢

في ضمن الباطلات كل الحجج التي كنت أعتبرها من قبل في البرهان » (١)

يتبين من هذا أنه شاطر اللاأدريين فيما لهم من أسباب التشكك ، ومع ذلك ذهب الى ابعد مما ذهبوا اليه وفرض أن شيطانا خبيثاً مضللا قويا يستعين بكل ما في وسعه من الحيل على تضليله ، وقال : ان السماء والهواء والارض والالوان والاشكال والاصوات وسائر الاشياء الخارجية لا تكون اذن الا اوهاماً وأحلاماً استخدمها في سبيل تضليلي وان ما أعتبر نفسي حاصلا عليه من أيد وعيون ولحم ودم ليس الا مجرد اعتقاد باطل (٢)

ومن طبيعة المذهب اللاأدرى انه لا يقيم علماً ، وقد عرف ديكارت ذلك خير معرفة وقال : انا اذا سلمنا بهذه الفروض السابق ذكرها تصبح العلوم الطبيعية محض خيالات لان موضوعها يقع في ميدان المكان والحركة وهما مع هذه الشكوك لا يكونان الا من أوهام النفس . ولكن ديكارت لم يكن قط لا ادريا ، لان مقصده، هو كما عرفنا ،البحث عن قاعدة أمينة يقيم عليها صرح العلم ، أي ايجاد مبدأ ضروري لا يقبل الشك ، وفي ذلك يقول « ما كنت في ذلك [الشك] مقلدا اللاأدرية الذين لا يشكون الا لكي يشكوا ، ويتكلفون أن يظلوا دائماً حيارى،فانني على العكس ، كان مقصدي لا يرمي الا الى اليقين ، والى أن أدع الارض الرخوة والرمل ، لكي أجد الصخر او الصلصال » (٣)

---

(١) المقال عن المنهج ص ٥٠

(٢) التأملات الاولى ١٢

(٣) المقال عن المنهج ص ٤٥ و ٤٦

يصل ديكارت الى مبدأ يقيني عندما يقول ان هذا الشيطان الخبيث، مهما بلغ من القوة لا يستطيع منعي من التوقف في التصديق ولا يقدر على أن يفرض على شيئاً [1] ، وأذن فأنا حر غير مجبر على الاخذ بتضليله ولا خاضع لسلطانه ، ولا يقدر على أن يمنع كوني **موجوداً** ما دمت أرى انى شيء من الاشياء [2] ، ولكن أي شيء أكون ؟ انني انتهيت بنفسي الى حقيقة كوني موجودا بمجرد التفكير وإذن فأنا شيء مفكر ، وبعبارة أخرى **أنا أفكر ، اذن فأنا موجود** *Je pense, donc je suis*

«ولما انتهيت الى أن هذه الحقيقة : **أنا أفكر ، اذن فأنا موجود** ، كانت من الثبات والوثاقة [واليقين] بحيث لا يستطيع اللاأدريون زعزعتها ، بكل ما في فروضهم من شطط بالغ ، حكمت أني أستطيع مطمئناً ان آخذها مبدأ أول للفلسفة التي كنت أتحراها » [3] . وقد بينت في صفحة ٥١ التعليقة حرف ا ماذا يقصد ديكارت بكلمة التفكير . وبينت في التعليقة حرف ب ص ٥١ و ٥٢ أن القضية ليست قياسا ، كما أن مجرد شرح استدلالاته للوصول اليها على نحو ما شرحتها الآن معتمداً على **التأملات** يكفى لعدم اعتبارها قياساً ، ويجب ان يضاف الى كل هذا أن الفكر يشتمل على عمليتي البداهة التي تشتمل على الاوليات الضرورية والقياس الذي يطلقه ديكارت

(١) **التأملات الاولى** ١٣

(٢) **التأملات الثانية** ١٢

(٣) **المقال عن المنهج** ص ٥١ و ٥٢

على النظريات [1] ، وإذن تصح ان تكون القضية مبدأ أول وسنرى كيف وفق ديكارت الى أن يقيم عليه كل فلسفته

***

٤ — التميز بين النفس والبدن

أول شيء يستنتجه ديكارت من مبدئه **أنا أفكر ، اذن فأنا موجود** هو تمييزه بين النفس والجسم . والنفس عنده هي الجوهر الذي يحل فيه الفكر مباشرة [2] ، والجسم هو الجوهر المتحيز الذي يتخذ شكلا ووضعا [3] . وله في التميز بين النفس والبدن حجج ثلاث نبدأ في بسطها بالحجة التي وردت في **المقال عن المنهج** ؛ ومجملها أنه بعد أن تأكد أنه موجود مفكر قال انه يستطيع أن يفرض أن لا جسم له ، وأن يغفل وجود السماء والأرض والهواء وكل شيء يقع في المكان ، ولكنه مع ذلك يظل واثقاً من وجود نفسه وإذن تكون الانية أو النفس موجودة مع فرض أن البدن غير موجود ، واذن فهي شيء متميز عنه ، لا يستلزم وجودها مكاناً ولا تتوقف على أي مادة [4]

---

(١) انظر الفصل الخاص بالمعرفة وص ٣ التعليقة ١

(٢) **الردود على الاعتراضات الثانية** ^١٢^ الحد السادس وانظر في ص ٥٦ التعليقة الأولى تعريف الجوهر

(٣) **التأملات الثانية والردود على الاعتراضات الثانية** ^١٣^ الحد السابع

(٤) انظر ص ٥٢ وما بعدها ومبادئ **الفلسفة** ^٦^ ج ١ الفقرة الثامنة

وقد اعتبر الكثيرون هذه الحجة خاصة بديكارت ، أي انه أول من ذكرها ؛ وقد أثبتُ من أقوال هؤلاء قول هملان . ولكني أثبت في التعليقات نصوصاً لابن سينا يتبين من مقارنتها بكلام ديكارت أن الفيلسوف العربي سبق أبا الفلسفه الحديثة الى هذه الحجة [1] ومع أن المستشرق فورلاني يبين امكان اطلاع ديكارت على كلام ابن سينا ، إلا أننا لا نشك أقل شك في أن الفيلسوف انما وصل الى هذه الحجة منتقلا من مبدئه **أنا أفكر ، اذن فأنا موجود** انتقالا منطقياً وهذا واضح جداً الوضوح في **المقال عن المنهج** ، وفي **مبادىء الفلسفة** حيث يشرح في الفقرة السابعة من الجزء الاول مبدأه الاول ويبسط هذه الحجة في الفقرة الثامنة تحت عنوان « بيان أن التمييز بين النفس والبدن يعرف بعد هذا مباشرة » بل إن نفس المبدأ ينطوي في الواقع على هذه الحجة بحيث لا يبقى أي داع للارتياب في أن ديكارت لم يأخذها عن سابقيه

وموجز الحجة الثانية في التمييز بين النفس والبدن أن البدن مثل كل الأجسام قابل للقسمة ولكن النفس واحدة لا تتجزأ ؛ ونحن نورد فيما يلي ترجمة للنص الذي يودعه هذا الحجة :

« . . . . ان الاختلاف عظيم بين النفس والبدن في أن البدن بطبيعته قابل دائماً للقسمة ، وان النفس غير قابلة للقسمة على الاطلاق إذ أنه في الواقع عند ما أنظر فيها ، أي عند ما أنظر في نفسي ، من جهة أنني شيء

(١) أنظر التعليقات ص ٥٣ ـ ٥٥

يفكر ، فانى لا أستطيع أن أميز في نفسى أجزاء ما ، ولكنني أعرف وأتصور تصوراً جد واضح أنى شيء واحد تام على الاطلاق . ومع أن النفس كلها تبدو متحدة مع البدن كله ، فانه اذا فصلت عنه ساق أو ذراع أو أي جزء آخر ، فانى أعرف خير معرفة ، أنه لم يفصل ، من أجل هذا ، أي شيء من نفسي . وان قوى الارادة ، والاحساس ، والتصور الخ لا يمكن أن يقال عنها قولا صحيحاً انها أجزاء النفس ، لان النفس التي تتصرف بتمامها في الارادة ، وتتصرف بتمامها في الاحساس والتصور ، هي واحدة بعينها . ولكن الامر على نقيض هذا فيما يتعلق بالاشياء الجسمية أو المتحيزة لانى لا أقدر على ان أتخيل منها شيئاً واحداً ، مهما كان صغيرا ، لا يسهل على تجزئته في الوهم ، أو لا يقسمه عقلي بسهولة كبيرة الى أقسام كثيرة وبالتالى لا أعرف أنه غير قابل للقسمة [1] »

ويوجد ما يشبه هذه الحجة عند أفلاطون الذي يقول بأنه من الضروري ، لجمع الصور الحسية المختلفة والمعاني والمقارنة بينها ، أن يوجد مبدأ واحد بسيط هو النفس [2] . وكذلك لم تكن الحجة مجهوله عند العرب في العصور الوسطى ، اذ أن ابن سينا كتب فصلا عن وحدة النفس ، يظهر فيه تأثير أفلاطون وهو يقول فيه ان قوى النفس المختلفة يجب ان تجتمع كلها عند ذات واحدة هي المبدأ لها ، وأن قوى الشهوة أو الحس والغضب

---

(١) التأملات السادسة ١٢.

(٢) محمود مذهب ديكارت ٣ ص ٢٥٨

(وهذه لغة افلاطون في تقسيمه قوى النفس) تؤدي الى مبدأ واحد ، وليس المراد من قولنا اننا أحسسنا فغضبنا أن شيئا منا أحس وشيئا منا آخر قد غضب ولكن المراد أن الشيء الذي أدى اليه الحس هذا المعنى عرض له ان غضب [1] .

وكذلك حكى ابن حزم عن بعض الفلاسفة أن « النفس عند هؤلاء جوهر قائم بنفسه حامل لاعراضه لا متحرك ولا منقسم ولا متمكن أي لا في مكان » [2]

وكذلك عرض الغزالى عشرة براهين للفلاسفة في القول بأن النفس جوهر غير متحيز ولا منقسم [3] . ومع أنه لا ينكر هذا المذهب « انكار من يرى أن الشرع جاء بنقيضه » الا أنه ينكر على الفلاسفة « دعواهم دلالة مجرد العقل عليه والاستغناء عن الشرع فيه » وأهم ما في هذه البراهين العشر هو أنه قد يحل في النفس من العلم مالا يقبل القسمة مثل الكليات المجردة واذن يكون محله وهو النفس غير منقسم.

والحجة الثالثة هي قوله بوجود معقولات خالصة غير محتاجة لتدركها

---

(١) النجاة ص ٣١٠ ـ ٣١٥ طبعة القاهرة ١٣٣١

(٢) الفصل فى الملل والنحل ج ١ ص ٢٧ طبعة القاهرة ١٣٤٧

(٣) مقاصد الفلاسفة ص ٢٩٢ وما بعدها طبعة القاهرة سنة ١٣٣١ وتهافت الفلاسفة ص ٣٠٤ وما بعدها من طبعة بُويجْ Bouyges بيروت سنة ١٩٢٧ وص ٧١ وما بعدها طبعة القاهرة سنه ١٣٢١

النفس الى وجود مادة ، ومعنى هذا استغناء النفس في هذا الادراك عن الصورة التي تدركها الحواس (وهي آلات جسمية) ويحفظها الخيال (وله عند علماء العصور الوسطى وعند ديكارت آلة جسمية أيضاً . أنظر ص ٩١ و ٩٢). وانما تدرك النفس هذه المعقولات بالنور الفطري . وهو يعني بهذه المعقولات الاوليات البسيطة مثل هذه القضية : اذا ساوى شيئان كل منهما شيئا ثالثا كانا متساويين [1] . واذن يكون هذا برهانا على استقلال النفس عن البدن

وأقواله في هذه الحجة قليلة وهو ينقض فيها دعوى الماديين القائلين بأن الفكر من عمل المخ [2] . وكانت هذه الحجة هي حجة الروحيين في العصور الوسطى وقد استعان بها كما استعان بسابقتها ليثبت تميز النفس عن البدن . ويلاحظ أنه صبغهما بصبغة مذهبه ، ولم يأخذهما على صورتيهما الاولى . ويكفي ان يتأمل القاريء مقدار الفرق بين الثانية على نحو ما يبسطها وبينها على نحو ماهي عليه عند أفلاطون وفلاسفة العرب ليتبين مقدار عمل ديكارت .

ويستنتج من هذا التمييز بين النفس والبدن أنها ليست عرضة للفناء مثله وانها خالدة لا تقبل الموت معه [3] . وهو لا يبرهن على خلود الروح ببراهين خاصة ، مع عنايته الشديدة بهذه المسئلة حتى إنه ليجعلها من

(١) راجع القواعد لقيادة العقل القاعدة الثانية عشر

(٢) هملان مذهب ديكارت ص٢٦٠ لاسيما التعليقة الثانية

(٣) المقال عن المنهج ص ٩٨

الموضوعات التي تكون علم ما بعد الطبيعة [1] ، وذلك لانه يرى أنها من اختصاص الدين والوحي ؛ ومن رأيه أن الحقائق الدينية التي يأتي بها الوحي هي فوق الفهم ، ومن الحكمة ألا تسلم الى ضعف الاستدلالات العقلية [2].

***

٥ — اثبات وجود الله

بعد ان يثبت ديكارت تميز النفس عن البدن بالحجة الاولى ، ينتقل الى البحث عما ينبغي لقضية من القضايا لتكون يقينية ، أي الى البحث عن معرفة ما تكون منه اليقين . يقول انه وجد قضية عرف أنها يقينية ويعني بها مبدأه الاول **أنا أفكر ، اذن فأنا موجود** ؛ ثم يلاحظ أنه لا شيء فيها يجعله يثق من أنه يقول الحق الا كونه يدرك ما يقول ادراكا واضحا متميزا [3] ؛ واذن فهو يستطيع الاطمئنان الى ان يتخذ قاعدة عامة أن **الاشياء التي نتصورها تصورا قوي الوضوح والتميز هي جميعا حقيقية** [4] ؛ أي واقعية سواء من جهة الوجود أو الماهية (التعقل) ؛ اذ أنه يرى أن الماهيات والصور الذهنية على العموم هي موجودات لانها تقوم في الذهن

---

(١) **مبادئ الفلسفة** ٦ المقدمة

(٢) **المقال** ص١٢

(٣) انظر حده للمعرفة الوضحة والمعرفة المتميزة في ص٣١ التعليقة الاولى.

(٤) **المقال** ص ٥٨ و مطلع **التأملات الثالثة** ١٢

وتفكر في النفس [1]

بعد ذلك ينتقل الى اثبات وجود الله ، ويختص في البرهان على هذا حجج ثلاث نوجز شرحها على حسب ترتيبها في **المقال** [2]

الاولى : فكر في شكوكه واستنتج منها أنه ليس تام الكمال ، لان المعرفة شيء أكمل من الشك مادام الشك قصورا عن ادراك الحقيقة ؛ ولكن معرفته أنه ليس تام الكمال تفيد تفكيره في شيء تام الكمال [3] ، واذن فهو يريد ان يعرف أني جاءه هذا التفكير . هنا يستمين ديكارت بمبدأ العلية ويقول ان علة تفكيره في شيء أكمل منه يجب أولا ـ ان تكون موجودة ؛ ثانيا ـ ان يكون فيها من الكمال أكثر مما في المعلول [4] . واذن يستحيل ان تكون الصورة الذهنية للكمال التام مستمدة من العدم ، كما يستحيل ان تكون مستمدة من نفسه ، واذن لا بد ان تكون قد ألقيت اليه بواسطة كائن طبيعته أكثر كمالا ، بل ولها من ذاتها كل الكمالات . هذا الكائن هو الله

---

(١) أنظر ص ٧٠ و التعليقة الثانية في نفس الصفحة وفي الصفحة التالية

(٢) أنظر القسم الرابع من ص ٥٨ الى ص ٦٥ مع التعليقات عليها

(٣) أو غير متناه . أنظر ص ٦١ التعليقة الثانية لبيان سبق معنى غير المتناهي على معنى المتناهي

(٤) يقرب من هذا قول السهروردي « المعلول لا يكون أشرف من العلة » اقتبسه الاستاذ هرتن HORTEN في كتابه Die spekulative u. positive Theologie des Islam ص ١٨٣ ليبزج سنة ١٩١٢

الثانية ـ بما أنه عرف أنه موجود غير تام الكمال ، اذن فهو ليس الكائن الوحيد في الوجود ، اذ لا بد لوجوده من علة ، لانه لو كان هو علة وجود نفسه ، لكان يستطيع ان يحصل من نفسه على كل ما يعرف أنه ينقصه من الكمالات ، لان الكمال ليس الا محمولا من محمولات الوجود ، والذي يستطيع ان يهب الوجود يستطيع أن يهب الكمال . واذن تكون علة وجوده ذاتا لها كل ما يتصور من الكمالات وهذه هي ذات الله

الثالثة ـ نظر الى الهندسة ولاحظ أن كل ما يعزوه الناس الى براهينها من يقين انما يقوم على أنها تتصور بوضوح وتميز تبعاً لقاعدته العامة . ولكن لا شيء في هذه البراهين يؤكد لنا وجود موضوع الهندسة الذي هو الكم المتصل المتحرك ، فمثلا اذا فرضنا مثلثا نستطيع ان نثق بفضل البرهان الهندسي أن زواياه الثلاث مساوية لزاويتين قائمتين ، ولكن هذا لا يستطيع ان يجعلنا على ثقة من أن في العالم مثلثا ، على حين أنه عند امتحان ما عندنا من صورة ذهنية لموجود تام الكمال ، نرى أن الوجود داخل فيها على نحو ما يدخل في الصورة الذهنية لمثلث أن زواياه الثلاث مساوية لقائمتين . ومحصل هذا كله أن معنى الكمال المطلق ، أو معنى غير المتناهي يشتمل على معنى الوجود . واذن يبيح لنا القول بأن الله حاصل على كل الكمالات أن نستنتج أنه موجود وان نثق من ذلك أكثر من ثقتنا في أي برهان هندسي

***

بعد ذلك يقول ديكارت إن قاعدته العامة : الاشياء التي نتصورها تصوراً جد واضح وجد متميز هي جميعاً حقيقية ، ليست ثابتة إلا لان الله

كائن أو موجود [1] ، وأنه على نحو ما أثبت ، مصدر الجود والصدق ، ومن المستحيل ان يخدعنا» ويقول أيضاً « إن معرفة الله والنفس جعلتنا على ثقة من هـذه القاعدة » [2] . ولـكننا لاحظنا أنه أثبت وجود الله معتمداً على قاعدة وضوح المعاني وتميزها ، ومعنى ذلك أنه ارتكب ما يسمى في المنطق بالدور

لم يفت معاصري ديكارت ان يلاحظوا ذلك ، وكان ممن انتقدوه جاسندي الذي كتب اليه « إنك تسلم بأن الصورة الذهنية الواضحة المتميزة حقيقية ، لان الله موجود ، ولأنه خالق هذه الصورة وهو ليس خادعاً ، وأنت تسلم من جهة أخرى أن الله موجود وبأنه خالق حق لانك حاصل على صورة ذهنية له متميزة واضحة . إن الدور واضح » [3] . وقد رد الفيلسوف على كل المعترضين بما لا يتعدى المعنى التالي «ثم إني بينت بوضوح لا بأس به في ردودي على الاعتراضات الثانية ، أنني لم أقع في الخطأ المسمى بالدور ، عند ما قلت إننا لسنا على ثقة من أن الاشياء التي نتصورها تصورا شديد الوضوح والتميز هي جميعاً حقيقية الا لان الله كائن أو موجود ، وأننا لسنا متأكدين من أن الله كائن أو موجود الا لاننا نتصور ذلك بوضوح وتميز شديدين ، وذلك بتمييزي بين الاشياء التي نتصورها في الواقع تصوراً واضحاً جداً وبين الاشياء التي نتذكر أننا تصورناها فيما سبق بوضوح

(١) **المقال** ص٧٠

(٢) **المقال** ص٧١

(٣) **الاعتراضات الخامسة** ١٢

شديد ذلك لانه ، أولا ، نحن على ثقة من أن الله موجود لاننا نوجه انتباهنا الى الحجج التي تثبت لنا وجوده . ولكن يكفي بعد ذلك ان تتذكر أننا تصورنا شيئاً تصورا واضحاً لنكون على ثقة من أنه حقيق ، وهذا لا يكون كافياً اذا لم نعرف أن الله موجود ، وأنه لا يمكن ان يكون خادعا » [1]

ومعنى هذا أنه يميز بين المعرفة البديهية وبين المعرفة النظرية التي تحتاج الى الذاكرة ، والاخيرة هي التي لا يمكن ان تكون صحيحة الا لان الله موجود وأنه حق . ونحن نكتفي في نقض اتهامه بالدور بدفاعه عن نفسه ويضطرنا تعمد الايجاز الى اغفال دفاع غيره والمسائل التي يثيرها الجدل في هذا الموضوع

٦ — منهج ديكارت

ا — تحليل المعرفة أو البداهة والقياس

بحث ديكارت عن منهج واحد من المستطاع استخدامه في كل البحوث ، مهما اختلفت موضوعاتها ، لأجل الوصول الى الحقيقة . و من أجل هذا نظر في العلوم التي درسها ووازن بين حججها وبراهينها فوجد أن أكثرها تأكداً ويقيناً هي براهين الرياضيات ؛ ولما كان يعتقد بأن العقل الانساني واحد ، فانه لم يجد سبباً لهذا الاختلاف بين العلوم في مراتب اليقين ، الا اختلاف المناهج التي يسلكها الباحثون في العلوم المختلفة ؛ وأيقن أنه لو طبق على كل علم المنهج الذي يتبعه الرياضيون في الوصول

(١) الردود على الاعتراضات الرابعة

الى براهينهم ، لبلغت العلوم درجة الرياضة من حيث استقرار النتائج ولم يبق شيء يبرر اختلاف العلماء ومجادلاتهم

صمم ديكارت عزمه على أن يعرف كيف يتصرف العقل في طريقة البرهان الرياضي ؛ أي إنه عزم على أن يحلل المنهج الرياضي الى عناصره العقلية ، فلم يتعسر عليه أن يشاهد أنه ينحصر في استنباط النتائج استنباطاً عقلياً ، أي في **القياس** *Déduction* ؛ ولكن القياس لا يبدأ من غير أن يسبقه عمل عقلي آخر ؛ إذ أنه لكي يكون يقينياً وبرهانياً بالمعنى الصحيح ، يجب أن يبدأ سيره من أشياء بسيطة يسلم بها العقل ، والعمل الذي به يفرض العقل على نفسه هـذه الاشياء البسيطة يسمى **البداهة** *Intuition*[1] وهو

---

(١) يستعمل بعض أساتذة الجامعة المصرية كلمة « الحدس » ترجمة لكلمة Intuition . ونحن لم نأخذ بهذا الاستعمال لسببين : الأول لان كلمة الحدس تثير كثيراً من الشبهة إذ أنها تفيد عند مناطقة العرب « حركة الى اصابة الحد الاوسط إذا وضع المطلوب أو اصابة الحد الاكبر اذا أصيب الاوسط ، وبالجملة سرعة الانتقال من معلوم الى مجهول كمن يرى تشكل استنارة القمر عند أحوال قربه وبعده عن الشمس فيحدس أنه يستنير من الشمس » (**ابن سينا النجاة** ص ١٣٧) . وهذا مخالف كل المخالفة لما يعنيه ديكارت بالـ intuition كما سيأتي بيانه عن قريب . وقد ترجم الاستاذ **هرتن** HORTEN كلمة الحدس في معناها المذكور بكلمة Scharfsinn أي الامضاء في الفهم ، كما أن الاستاذ أورد معانيها المختلفة وأورد مايقابل هذه المعاني من كلمات في اللغة الالمانية ولم يترجمها بكلمة intuition إلا عند مايكون المقصود بها « النفس القدسيـة » أي عند ما تصبح

يرى أنه ليس للمعرفة الصحيحة غير سبيلين هما البداهة والقياس (١) . وهو يقول في حده للبداهة : « لا أعني بالبداهة الاعتقاد في شهادة الحواس المتغيرة ، أو أحكام الخيال الخادعة . . . ولكني أعني بها تصور النفس السليمة المنتبهة تصوراً هو من السهولة والتميز بحيث لا يبقى أي شك فيما نفهمه ؛ أي التصور الذي يتولد في نفس سليمة منتبهة عن مجرد الانوار العقلية » . وعلى هذا النحو يستطيع كل إنسان أن يرى بالبداهة أنه موجود وأنه يفكر ، وأن المثلث محدود بثلاثة خطوط ، وأنه ليس للكرة الا سطحاً واحداً ، وغير ذلك من الحقائق المشابهة التي هي أكثر عددا مما يعتقد في العادة » (٢)

الكلمة من لغة الصوفية الذين يخالفون الفلاسفة فيما لهم من معان ومقاصد (أنظر *Die spekulative u. positive Theologie des Islam* ص ١٤٨ و ٢٩١ وراجع أيضاً الجرجاني التعريفات عند كلمة النفس القدسية) . والسبب الثاني أن لكلمة intuition في الفلسفة الاوربية معاني متعددة ويعني ديكارت بها معنى خاصا رأينا أنه يطابق مفهوم كلمة « بداهة » في اللغة العربية واستعملناها باعتبارها العمل العقلي الخاص بادراك البديهي ، وهو كما يعرّفه صاحب كشاف الاصطلاحات « يطلق على معان منها مرادف للضروري المقابل للنظري . ومنها المقدمات الاولية وهي مايكفي تصور الطرفين والنسبة في جزم العقل به وبعبارة أخرى مايقتضيه العقل عند تصور الطرفين والنسبة من غير استعانته بشيء» ج ١ ص ١٥٨

(١) القواعد لقيادة العقل القاعدة الثانية عشرة

(٢) نفس الكتاب القاعدة الثالثة

وتختص البدهة بادراك الأشياء البسيطة ، والبسيط عند ديكارت ماليس له أجزاء فاما أن يعرف كله أو يجهل كله ؛ وعلى ذلك تكون البداهة هي العمل الذي به نعرف المبادىء الأولى (١)

ويفيد القياس عنده النظر على العموم أي كل أنواع الاستنباط وهو يعرفه بأنه العملية التي يستنبط بها شيء من شيء آخر (٢) ، ومعنى ذلك المرور من حد الى حد آخر يتلوه أو ينتج عنه مباشرة وبالضرورة

ويلاحظ أنه بالبداهة تعرف الطبائع البسيطة ، ولكن المركبة تدرك بالقياس ؛ ثم إن القياس متتابع ، ولكن البداهة وقتية (٣) ؛ والقياس يستمد ماله من يقين من الذاكرة ، بينما تمتلك البداهة يقينا حاضرا (٤) . ثم ان البداهة لا غنى عنها في القياس عند الانتقال من حد الى حد ؛ بل ويرى الاستاذ هملان أن استنباط النتيجة هو بداهة وهو يذهب في ادماج القياس بالبداهة الى حد قوله ان نظرية ديكارت في المعرفة تتلخص في القول بأن المعرفة هي إدراك طبائع بسيطة ببداهة لا تضعف وإدراك الروابط بين هذه الطبائع البسيطة ، التي ليست في ذاتها الا طبائع بسيطة (٥)

***

(١) نفس الكتاب القاعدة الثانية عشر وهنكان منهج ديكارت ٢ ص٧٦٢

(٢) القواعد لقيادة العقل ١ القاعدة الثانية

(٣) هملان مذهب ديكارت ٣ ص ٨٠

(٤) هنكان منهج ديكارت ٢ ص ٧٦١

(٥) هملان الكتاب المذكور ص ٨٢ و ٨٧ و ٨٨

ب — القواعد الاربع

بعد أن أوجزنا شرح التحليل الديكارتي للعمليتين اللتين يقوم بها في سبيل المعرفة العقل بأقوى معناه *Le Bon Sens* ، نريد الآن أن نلم بقواعد منهجه التي سردها في القسم الثاني من **المقال عن المنهج**

يعني ديكارت بالمنهج « قواعد وثيقة سهلة تمنع مراعاتها الدقيقة من أن يؤخذ الباطل على أنه حق ، وتبلغ بالنفس الى المعرفة الصحيحة بكل الاشياء التي تستطيع ادراكها ، دون أن تضيع في جهود غير نافعة ، بل وهي تزيد في ما للنفس من علم بالتدريج »(1)

وهو يرى أنه كلما اتجهنا نحو البساطة وكلما اقتصرنا في نشاطنا العلمي على النور الفطرى ، كان وصولنا للحقيقه أأمن وأيسر . وذلك لانه يقول ان النفس تشتمل على شيء إلهي أودعت فيه البذور الأولى للافكار النافعة ، واذا أثقلت هذه البذور بالدروس المعقدة ، لم يجن منها إلا ثمرات غثة لا يرجى منها نفع دائم أو خير مقيم (2) . ومن هذه الناحية قال انه شاهد أن تعدد القوانين في الدولة كثيرا ما يهيء المعاذير للنقائص (3) ؛ وعلى ذلك رأى أن يستبدل بتعليمات المنطق الكثيرة المعقدة أربع قواعد سهلة بسيطة من

---

(1) **القواعد لقيادة العقل** ، القاعدة الرابعة

(2) **نفس الموضع** وراجع للوقوف على مراده ببذور الافكار صفحة ١٠٣ من المقال مع التعليقة الواردة في نفس الصفحة

(3) انظر صفحة ٢٩ و ٣٠ والتعليقة الواردة في تينك الصفحتين

المستطاع تطبيقها بنجاح في كل أنواع البحوث النظرية

الاولى وتسمى قاعدة اليقين ونصها هو « ألا أقبل شيئاً على أنه حق، مالم أعرف يقيناً أنه كذلك : بمعنى أن أتجنب بعناية التهور ، والسبق الى الحكم قبل النظر ؛ وألا أدخل في أحكامي إلا ما يتمثل أمام عقلي في جلاء وتميز ، بحيث لا يكون لدي أي مجال لوضعه موضع الشك » (1)

وفي اعتقادنا أن المعرفة التي تنطبق عليها هذه القاعدة هي البداهة لان المعرفة البديهية تمتاز بالبساطة والوضوح والتميز ؛ ثم لانها ، كما سبق القول في القسم الاول من هذا الفصل ، تشتمل على يقين حاضر ؛ أي الاعتقاد الجازم بأن موضوع المعرفة هو كذا مع الاعتقاد في نفس الوقت بأنه لا يمكن أن يكون إلا كذا (2) ؛ مثل القول بأن للمثلث ثلاثة أضلاع ، وأنه اذا

(1) انظر ص ٣٠ و ٣١ وراجع التعليقات في تينك الصفحتين لشرح ما يقصده ديكارت بالتهور والسبق الى الحكم قبل النظر والجلاء والتميز

ومما يجدر بالذكر أنني اخترت كلمة التهوّر ترجمة لكلمة Précipitation لانني راعيت الاصل التاريخي لهذا المعنى ؛ إذ أن القديس توماس الاكيني سبق ديكارت الى هذا المعنى في علم الاخلاق فقال عنه انه رذيلة تقابل فضيلة التروي والمشورة التي هي تابعة لفضيلة الحزم . وعلى ذلك يكون التهور عند القديس توماس من عيوب الارادة وعند ديكارت من عيوب العقل أنظر جلسون التعليق ص ١٩٨ و ١٩٩

(2) أنظر لتعريف اليقين كليات أبي البقاء ص ٢٥ طبعة القاهرة سنة ١٢٨١ هـ وكشاف الاصطلاحات صفحة ١٠٤٧ وقارن ذلك بما جاء في "معجم الفلسفة" للاستاذ لالاند تحت كلمة Evidence

تساوى شيئان كل منهما ساوى شيئاً ثالثا كانا متساويين وغير ذلك .

القاعدة الثانية تسمى بقاعدة التحليل وبها ينبغي أن تقسم المعضلة التي تدرس الى أجزاء بسيطة على قدرما تدعو الحاجة إلى حلها على خير الوجوه (١) والواقع أن هذه القاعدة متصلة بالتالية ، حتى إن ديكارت جعلها في القواعد (وهي مكتوبة قبل المقال) قاعدة واحدة حيث قال « ينحصر المنهج بأجمعه في أن نرتب وننظم الاشياء التي ينبغي توجيه العقل اليها لاستكشاف بعض الحقائق . ونحن نتبع هذا المنهج خطوة خطوة ، اذا حولنا بالتدريج القضايا الغامضة المبهمة الى قضايا أبسط ، واذا بدأنا من الادراك البديهي لابسط الاشياء كلها ex omnium simplicissima rum intuitu ، فاننا نجتهد أن نرقى بنفس الدرجات الى معرفة سائر الاشياء » (٢)

القاعدة الثالثة تسمى بقاعدة التأليف أو التركيب ويعبر عنها بقوله : « أن أسير أفكاري بنظام ، بادئا بأبسط الامور وأسهلها معرفة كي أتدرج قليلا قليلا حتى أصل الى معرفة أكثرها تركيباً ، بل وأن أفرض ترتيباً بين الامور التي لايسبق بعضها الآخر بالطبع » (٣) . وقد ذهب الاستاذ هملان الى أن هذه القاعدة هي أساس المنهج الديكارتي ، وأنها أظهر القواعد أثرا

---

(١) المقال ص ٣١

(٢) القواعد لقيادة العقل ، القاعدة الخامسة

(٣) المقال ص ٣١ و ٣٢ مع التعليقات عليها

عند تطبيق ديكارت لمنهجه على المعضلات [1] ، كما أن الاستاذ برنشفيك ينبه الى أن كل الذين درسوا ديكارت ومنهم جلسون لم يعنوا بقوله « كي أتدرج قليلا قليلا » العناية الواجبة إذ ما الذي يميز المعادلات الرياضية غير التدرج شيئاً فشيئاً ؟ ويرى أن ديكارت يقصد من هذه العبارة التعبير عن أمنيته الكبيرة وهي تطبيق المنهج الرياضي على كل العلوم . ثم ان ديكارت نفسه ، كما رأينا في النص الذي اقتبسناه من القواعد يشير بأهمية هذه القاعدة حتى ليقول إن المنهج بأجمعه ينحصر فيها . وهو يرى أيضاً أن العالم الذي لا يتبع هذه القاعده في الترتيب مثله كمثل الرجل الذي يريد أن يرقى منزلا من أسفله الى أعلاه فيحاول أن يثب وثبة واحدة ، ضاربا الصفح عن السلم المجعول لهذه الغاية ، أو غير مبصر إياه [2]

والقاعدة الاخيرة تسمى بقاعدة الاستقراء التام أو الاحصاء أو التحقيق ؛ وهو يعرضها في هذه العبارة الموجزة : « أن أعمل في كل الاحوال من الاحصاءات الكاملة والمراجعات الشاملة ما يجعلني على ثقة من أني لم أغفل شيئاً » [3]

والغرض من هذه القاعدة تكميل العلم وذلك بأن نمر بحركة فكرية متصلة

(١) هملان مذهب ديكارت ٣ ص ٧٠ و ٧١

(٢) القواعد ١ الخامسة

(٣) المقال ص ٣٢ والتعليقة الثانية في نفس الصفحة . وأنا أنبه هنا الى أنه يعني بقوله « كل الاحوال » حالتيْ التحليل والتركيب ، أي في القاعدة الثانية والثالثة

على كل الموضوعات التي تتصل بغرضنا ، وأن نحيط بها في احصاء كاف ومنهجي [1] وفي الواقع إنه قد تتعدد حدود الاستدلال في مسألة من المسائل بحيث يصبح من المستحيل أن نصل بالبداهة الى اقامة علاقة بين الحد الاول والحد الاخير أي ان الوصول الى النتيجة لا يكون من عمل البداهة . واذن فوظيفة هذه القاعدة هي مراجعة الصلات أو الروابط الموجودة بين الحلقات التي تكوّن سلسلة الاستدلالات ، فاذا تأكدنا من وثاقة اتصالها جاز لنا أن نحكم حكما صحيحاً ويصبح هذا الحكم بالغا من اليقين ماتبلغه البداهة . ويجب أن تكون عملية الاستقراء التام متصلة غير منقطعة ، إذ لو أننا أهملنا حلقة من الحلقات التي تتكون منها سلسلة الاستدلالات لانقطعت السلسلة ولما تبقى شيء من اليقين . ثم يجب أن يكون الاستقراء التام وافياً حتى نستطيع به أن نبلغ اليقين ، اذ أننا في هذه القاعدة عرضة لتضليل الذاكرة ، واذن يجب مع احاطتنا بكل سلسلة القضايا أن ننتبه الى تميز كل واحدة عن الاخرى حتى لا يتطرق الغموض والابهام الى معرفتنا [2]

ويرى مما سبق أن قواعد المنهج الثلاث الاخيرة كلها متصلة بعضها مع بعض ففي عملية الاستقراء التام نجد التحليل والتركيب كما أن الاستقراء التام يحقق التحليل والتركيب ويساعدهما على الاستكشاف . وكذلك رأينا أنه أدمج التحليل والتركيب في قاعدة واحدة في كتابه القواعد

(١) القواعد ' عنوان القاعدة السابعة

(٢) القواعد ' القاعدة السابعة

٧ - الاخلاق

بعد ان شرحنا مذهب ديكارت في علم ما بعد الطبيعة ، الذي هو في رأيه أول العلوم ؛ لانه يشتمل على مبادىء المعرفة الصحيحة ، وبعد ان تكلمنا عن منهجه الذي يحتوي على تحليل وسائل المعرفة ، وبيان الطرق التي تؤدي بالعقل الى بلوغ الحقيقة في كل بحث ، على نحو ما يفعل الرياضيون في الوصول الى أوثق براهينهم ؛ نريد الآن أن نتكلم قليلا عن مذهبه في علم الاخلاق الذي هو عنده آخر مراتب الحكمة والعلوم ، إذ يستلزم البحث فيه إحاطة تامة بسائر أنواع المعرفة . ونحن ، في سبيل الايجاز ، نعتذر للقارىء على تركنا الكلام عن رياضياته وطبيعياته في هذه المقدمة ، مكتفين بالقليل الذي كتبه عنها في **المقال عن المنهج** وبتعليقاتنا عليها

نحن نعرف الآن مبلغ حماسة ديكارت في رغبته ان يجدد الفلسفة والعلوم ، وقد رأى الفيلسوف ان يبنيها على أساس جديد قوي بدل ان يكتفي بترقيم البناء القديم القائم على أساس ضعيف . وفي سبيل هذا تخلص من كل الآراء القديمة التي وجد أنها موضع شك ، حاشا ما يختص بالدين لان حقائقه موحى بها ، وأخذ يبحث بعد هذا عن قواعد قوية للعلم وعن طريقة قوية لتكوينه . ولكنه تمثل بالحكمة القديمة : **الحياة أولا ثم الفلسفة** *Primo vivendi, deinde philosophare* . وقال إننا اذا شئنا تجديد المسكن الذي نقيم فيه ، وجب علينا قبل هدمه ان نجد منزلا آخر نأوي اليه أثناء

العمل في مسكننا . وكذلك لما كانت السعادة والنجاح في الحياة العملية لا يجتمعان مع الشك والتردد ، فقد رأى ان يضع لنفسه قواعد للاخلاق مؤقتة [1] .

وقد بينت في تعليقاتي على مطلع القسم الثالث من **المقال** ماذا يقصد ديكارت بقوله **قواعد مؤقتة** . ومما يؤسف له أن الكثيرين فهموا من هذا التعبير أنه كان ينوي المدول عنها ؛ والواقع مخالف لذلك ، اذ أنه يسميها أخلاقا مؤقتة لانه لم يكن قد انتهى من بنائه لهيكل العلوم بعد ، وهو يرى أن موضع الاخلاق في قمة هذا الهيكل . واذن لو أنه كتب شيئاً عن الاخلاق قبل ان ينتهي من كل العلوم لكان اسم هذا الشيء **مؤقتا** . وتعتبر هذه القواعد مؤقتة أيضاً لانها كافية للانسانية قبل ان تبلغ علومها غاية الكمال . وقد كان ديكارت على ثقة من أن ما بقي له من الحياة لن يتسع لتطبيقه منهجه على كل العلوم ، أي لتجديدها ، ولكنه مع ذلك كان شديد العناية بعلم الاخلاق حتى قال صديقه كليرزليه « ان نصيب الاخلاق من تفكيره كان أكبر الموضوعات نصيباً » [2]

تتلخص أخلاق ديكارت المؤقتة في ثلاث قواعد [3] :

---

(١) **المقال عن المنهج** ص ٣٧ والتعليقات في ص ٣٧ و ٣٨

(٢) باييه **حياة السيد ديكارت** BAILLET *La Vie de Monsieur Des-Cartes* ج ١ ص ١١٥

(٣) **المقال** من ص ٣٧ إلى ٤٣

الاولى : ان يطيع الانسان قوانين بلاده وأن يحترم عاداتها، مع الثبات على الديانة التى نشأ عليها، وان يدبر شئونه في سائر الامور تبعاً لا كثر الآراء اعتدالا، التى أجمع على الرضاء بها أعقل الذين يعيش معهم

الثانية : ان يكون أكثر ما يستطيع ثباتاً في أعماله، وان يتجنب الشك والتردد في سياسته، مثله في هـذا مثل المسافرين الذين يضلون في غابة، اذا اتبعوا وجهة واحدة في سيرهم خرجوا من الغابة ونجوا، أما اذا ضربوا فيها ههنا مرة، وهاهنا مرة أخرى، أو وقفوا فيها ضعف أملهم في النجاة والسلامة

الثالثة : ان يجتهد في مغالبة نفسه، وحد رغباته وشهواته لا في مغالبة الحظ أو مقاومة القدر. لان أفكارنا ملك لنا نستطيع ان نتحكم فيها كما نشاء وبهذا نستطيع ألا نأسف لحرماننا من الاشياء التى لا نقدر على نوالها. وعلى هذا النحو نستطيع ان ننعم بالغنى والقوة والحرية وكل أنواع السعادة.

ولا أريد ان أكرر هنا ما كتبته تعليقا على هذه القواعد. ولكنني أنبه الى تمييز ديكارت بين عمل العقل في النظريات وعمله في الاخلاق والاشياء العملية : في النظريات يطرح كل ما يحتمل أقل شك ويتخلص من كل ما ليس الا محتملا. أما في الاخلاق فانه اذا عزم على عمل واتضح له وهو فى أثناء تنفيذه أنه مخطىء في رأيه فان العقل يأمره ان يستمر في عمله حتى ينتهى الى النتيجة [1]. واذا تساوت الآراء أمامه في الرجحان عليه

---

(١) المقال ص ٤٠

ان يتمسك ببعضها وألا يعتبرها بعد هذا موضعاً للشك باعتبارها متصلة بالعمل بل علينا أن نعتبرها جد حقيقية ووثيقة لان العقل الذي ألزمنا بها هو نفسه كذلك [1]

***

كنا نريد ان نتكلم عن تأثير ديكارت في العمران وكيف صدرت عن فلسفته كل المذاهب الفلسفية الحديثة ولكن المجال لا يتسع لمثل هذا ونرجو ان نقدر على ذلك في عمل آخر ان شاء الله . والآن فلنتقدم للقراء كتابه **المقال عن المنهج**



(١) ص ٤١

المقال عن المنهج

في سنة ١٦٣٧ ظهر في ليدن ، احدى مدن هولندا الكبيرة ، كتاب **مقال عن المنهج لاحكام قيادة العقل وللبحث عن الحقيقة في العلوم . ويليه علم انكسار الاشعة وعلم الانواء والهندسة وهي تجارب لهذا المنهج .**

وكان نص العنوان كما يلي :

DISCOURS
DE LA METHODE
Pour bien conduire sa raison & chercher la verité dans les sciences
PLUS
LA DIOPTRIQVE
LES MÉTÉORES
ET
LA GÉOMETRIE
Qui sont des essais de cette MÉTHODE

ولم يظهر اسم المؤلف على الكتاب ، لانه كان عدواً للشهرة ، ثم لان خلو الكتاب من اسم مؤلفه كان أمراً مألوفاً في هذا الزمن ، ولكن الظاهر أن الكتاب لم يقرأه قارىء في هذا العهد دون ان يعرف أن مؤلفه رينه ديكارت الفيلسوف الفرنسي الذي هجر وطنه ، واعتزل أهله ومعارفه ، وطلب الوحدة في هولندا ليفكر في هدوء واطمئنان لا يكدرهما أحد .

وكان ديكارت ينوي ان يجعل عنوان **المقال** ، **مشروع علم شامل يستطيع ان يرقى بطبيعتنا الى أعلى مرتبة لها من مراتب الكمال** ، ولكنه شم رائحة الغرور تنبعث من هذا العنوان فعدل عنه وآثر الذي ظهر به الكتاب .

ولكن **المقال عن المنهج** لم يكن الا مدخلا للرسائل الثلاث التي

تلوه ، لهذا ما كاد معاصرو ديكارت ينتهون منه على نحو ما ينتهي القراء من مقدمة أي كتاب ، حتى تخطوه الى ما بعده فاستفادوا من الوسائل ما يستفيد أهل العلم من أحدث البحوث التي تمد المعارف بجديد ، وتزيد في الثروة العقلية للانسان . على أن الطبيعيات التي أمدها فيلسوفنا ببحثيه عن انكسار الاشعة وعن الانواء ، والرياضيات التي اشترك في بنائها بهندسته ، قد تجاوزت الآن تصوراته ولم يعد لهذه البحوث أكثر من قيمتها التاريخية أما المقال فقد تحول انتباه الناس اليه ، وأخذ يبدو لهم كلما تهذب الفكر الحديث وترقى في وعيه بنفسه ، أنه يشتمل على أصح حد للفلسفة ، وتعيين غاياتها في العمران ، وبيان ما تختص به من أنحاء وطرق

ومازال المقال ، كلما أمعن في درسه طلاب العلم ، يجدون فيه أشياء جديدة ، حتى لقد قال عنه عالم ألماني هو الدكتور ينگمن K. Jungmann « عند ما يقرأ الانسان فاوست جويته لا بد ان يتذكر المقال عن المنهج لديكارت اذ يظهر في العملين نفس النزعة غير المتناهية التي تطمح في النفس الانسانية الى مزيد من الرقي والكمال » (١)

وعزا الكثيرون الى هذا الكتاب الذي لم يكن الا مجرد مقدمة كل النهضات الفلسفية في القرنين السابع والثامن عشر ، وذهب البعض الى أنه أساس المدنية الحديثة اذ جعلوا منه أصل الثورة الفرنسية . فقال الاستاذ اميل بوترو E. Boutroux ان الثورة الفرنسية وليدة المقال عن المنهج لان المجتمع قد تجدد في سنة ١٧٨٩ باسم مبدأ اليقين العقلي الديكارتي (٢) . وكذلك

(١) رينه ديكارت مبحث في عمله "١٦ ص ٨ من الترقيم الروماني

(٢) دروس في تاريخ الفلسفة "١٣ ص ٢٩٢ و ٢٩٣

Adam وتانرى Tannery لاعمال ديكارت التي نشرت في باريس من سنة ١٨٩٧ الى سنة ١٩١١ برعاية وزارة المعارف الفرنسية ويقع المقال عن المنهج في الجزء السادس منها من ص ١ الى ص ٧٨ وقد احتفظت بترقيم هذه الصفحات ووضعتها على هامش الترجمة ، وأذكر أيضاً أنني تصفحت الترجمة اللاتينية التي قام بها أتين دي كورسل Etienne de Courcelles [1] وقد راجعها ديكارت بنفسه وزاد فيها على النص الفرنسي بعض الزيادات أثبت منها الكثير ووضعته بين قوسين هكذا [ ] ، وكذلك راجعت أثناء النقل ، الترجمة الانكليزية للاستاذ ڤيتش Vietch [2] والترجمة الالمانية للدكتور بوشناو Buchenau [3] ، أما التعليقات والكتب التي استفدت منها فهي مذكورة في بيان المراجع والذي لم يرد وصفه في هذا البيان لقلة وروده في الكتاب وصفته عند ذكره في التعليقات أو في النهاية مع المراجع

واني أرجو من الله أن يوفقني في خدمة اللغة والوطن بأن أنقل الى العربية ما أقدر على نقله من أهم ما كتبه أبطال الفلسفة الحديثة ؟

القاهرة في : ١٤ شوال سنة ١٣٤٨ / ١٥ مارس سنة ١٩٣٠ محمود محمد الخضيرى

---

(١) ظهرت هذه الترجمة للمقال وانكسار الاشعة والانواء في أمستردام سنة ١٦٤٤ وعنوان المقال كما يلي

Renati Descartes specimena philosophia. Dissertatio de Methodo recte regendae rationis, & Veritatis in scientiis investigandae

وهو منشور في المجلد السادس من الاعمال الكاملة

(٢) *Discourse on Method* ومعها ترجمة لكتب اخرى لديكارت نشرت في لندن و إدنبره عند William Blackwood وأولاده الطبعة السادسة عشرة ١٩٢٥

(٣) *Abhandlung uber die Methode* في المجلد الاول من ترجمة أعمال ديكارت الفلسفية التي نشرها في ليبزغ Felix Meiner

مقال عن المنهج

لإحكام قيادة العقل وللبحث عن الحقيقة في العلوم

مقدمة المؤلف

اذا بدا هذا المقال طويلا جداً بحيث لا يقرأ كله دفعة واحدة ، فمن المستطاع تقسيمه الى ستة أقسام : في القسم الاول أنظار في العلوم مختلفة . وفي الثاني اصول القواعد للمنهج الذى بحث عنه المؤلف . وفي الثالث بعض قواعد الاخلاق التي استنبطها من ذلك المنهج . وفي الرابع الأدلة التي يثبت بها وجود الله والنفس الانسانية وهي أركان مذهبه فيما بعد الطبيعة . وفي الخامس ترتيب مسائل الطبيعيات التى بحث فيها ، لا سيما تفسير حركة القلب و بعض معضلات أخرى تختص بالطب ثم التفرقة بين نفسنا ونفس الحيوان . وفي القسم الاخير بيـان الامور التى يعتقد المؤلف بالحاجة اليها للسير بدراسة الطبيعة الى أبعد مما انتهت اليه ، و بيان الأسباب التي بعثته الى الـكتابة

القسم الاول

العقل[١] هو أحسن الاشياء توزعاً بين الناس [بالتساوي] إذ يعتقد كل فرد أنه أوتي منه الكفاية ، حتى الذين لا يسهل عليهم أن يقنعوا بحظهم من [٢] شيء غيره ، ليس من عادتهم الرغبة في الزيادة لما لديهم منه . وليس براجح أن يخطيء الجميع في ذلك ؛ بل الراجح أن يشهد هذا بأن قوة الاصابة في الحكم ، وتمييز الحق من الباطل ، وهي في الحقيقة التي تسمى بالعقل أو النطق ، تتساوى بين كل الناس بالفطرة ، وكذلك يشهد بأن اختلاف آرائنا

---

(١) التعبير الفرنسوي الذي استعمله ديكارت هو Bon sens وقصد به القوة اللازمة لاجادة الحكم أي لتمييز الحق من الباطل في النظري والعملي . وللعقل عملان فكريان أساسيان وهما البداهة Intuition والقياس Déduction (راجع القاعدة الثالثة من **القواعد لقيادة العقل**[١] وهاملان : **منهج ديكارت**[٢] في مجلة ما بعد الطبيعة وعلم الاخلاق نوفمبر سنة ١٩٠٦ ص ٧٦٠ وانظر في مقدمتنا شرح معنى البداهة والقياس عند ديكارت) . ومما يجدر بالذكر أنه وجد بين أوراق ديكارت بعد وفاته كتيب عنوانه *Studium bonae mentis* أي **درس العقل** وقد نقل هذا العنوان الى الفرنسوية مترجم حياته **بابيه** BAILLET كما يأتي *L'étude du bon sens ou de l'art de bien comprendre* **أي درس العقل أو فن اجادة الفهم** ، ويرجح أن تلك الكتابة كانت مشروع المقال عن **المنهج** (راجع **هملان مذهب ديكارت**[٣] ص ٣٦)

لا ينشأ من أن البعض أعقل من البعض الآخر ، وانما ينشأ من أننا نوجه أفكارنا في طرق مختلفة ، ولا ينظر كل منا في نفس ماينظر فيه الآخر لانه لايكفي أن يكون للمرء عقل ، بل المهم هو أن يحسن استخدامه . وان أكبر النفوس لمستعدة لاكبر الرذائل مثل استعدادها لاكبر الفضائل ، والذين لايسيرون إلا جد مبطئين يستطيعون حين يلزمون الطريق المستقيم أن يسبقوا كثيراً من يَعْدون، ويبتعدون عنه

أما أنا فلم أدّع قط أن نفسي أكمل من نفوس الغير ، بل كثيراً ماتمنيت أن يكون لي من سرعة الفكر ، أو من وضوح الخيال وتميزه ، أو من سعة الذاكرة وحضورها ، مثل مالبعض الناس . ولست أعرف فضائل غير هذه تعين على تكميل النفس : لاني أميل الى الاعتقاد بأن النطق ، أو العقل ، مادام هو الشيء الوحيد الذي يجعلنا أناساً ويميزنا عن سائر الحيوان ، هو بأكمله في كل [٣] انسان، واني أميل في ذلك الى اتباع الرأي الشائع بين الفلاسفة الذين يقولون انه لازيادة ولا نقصان إلا في الاعراض (١) ، ودون الصور الجسمية (٢) أو طبائع (٣)

---

(١) جمع عرَض وهو ما يتعلق بذات ما دون أن يلزمها في تعريف ماهيتها

(٢) جمع صورة ويقصد بها ديكارت « مبدأ باتحاده مع المادة يتكون جسم طبيعي ويحل في نوع معين » جلسون في تعليقه على المقال عن المنهج (٤) ص ٨٩)

(٣) جمع طبيعة ، وهي مبدأ أول وعلة لكل حركة وسكون ذاتيين للذي تكون فيه تلك الطبيعة (انظر تعريف أرسطو للطبيعة المقتبس في تعليق (٤) جلسون ص ٩٠ وتعريف ابن سينا لها في رسالة الحدود وهي في مجموعة

الافراد [١] من نوع واحد [٢]

ولكني لا أخشى أن أقول ما أعتقده من أنني كنت كثير التوفيق ، إذا ألفيت نفسي منذ الحداثة [٣] في بعض الطرق التي قادتني الى أنظار وحكم ، ألفت منها منهجاً ، به يبدو لي أن عندي وسيلة لزيادة معرفتي بالتدريج ، ولأن أسمو بها قليلا قليلا الى أعلى درجة [٤] يسمح ببلوغها مافي عقلي من ضعف ،

تسع رسائل في الحكمة وبتعريف أعم « هي القوة التي في الشيء فتجري بها كيفيات ذلك الشيء على ما هي عليه ، وإن أوجزت قلت هي قوة في الشيء يوجد بها على ما هو عليه » ابن حزم ، الفصل في الملل والنحل ج ١ ص ١٥ طبعة القاهرة سنة ١٣١٧.

(١) جمع فرد وهو ما لا تنطبق كل صفاته مجتمعة على غيره

(٢) يقصد ديكارت بالنوع هنا الكلي المقول على كثيرين مختلفين في العدد دون الحقيقة في جواب ما هو ، وذلك هو النوع الحقيقي

(٣) يقول بابيه في كتابه عن حياة ديكارت: إنه صنع ـ وهو لا يزال في كلية لا فليش ـ منهجاً غريبا للمناقشة الفلسفية ؛ وهذا المنهج ـ على حسب بسط المترجم له ـ هو منهج رياضي صرف ينحصر في معالجة المسائل كما يفعل أصحاب الهندسة وذلك بتقديم البديهيات ثم الانتقال إلى تعريفات ثم إيراد البراهين . (راجع نص بابيه المقتبس في كتاب هملان مذهب ديكارت [٢] ص٣٤) وهذه بعض محاولات ديكارت ، قبل شتاء سنة ١٦١٩ ، للبحث عن منهج للاختراع (انظر المقدمة)

(٤) كان العنوان الذي يريد ديكارت وضعه على المقال هو مشروع علم شامل يستطيع أن يرفع طبيعتنا الى أعلى درجة لها في الكمال (راجع كتابه

وما في مدى حياتي من قصر ، ذلك لاني جنيت من ثمرات ذلك المنهج [١]
ماجعلني أحاول دائما في الاحكام التي أكونها عن نفسي أن أميل الى جهة الحذر ، أكثر من ميلي الى جهة الغرور ، ولما نظرت بعين الفيلسوف الى فعال الناس ومقاصدهم لم يكد يظهر لي أن شيئاً منها عبث وعديم النفع ، على أن التقدم الذي أظنني تقدمته في البحث عن الحقيقة ، قد بلغ بي غاية الرضا ومهد لي في المستقبل آمالا تجعلني أرى أنه اذا كان من مشاغل الناس من حيث هم ناس [٢] ما هو خير وذو خطر ، فلي أن أجرؤ على القول بأنه هو العمل الذي تخيرته

وعلى كل حال فقد أكون مخدوعا ، وقد لا يكون إلا قليلا من النحاس والزجاج ذلك الذي أعتبره ذهبا وماسا . فانني لأعلم مبلغ الخطأ الذي نحن عرضة له فيما يمسنا من الامور ، ومبلغ الحذر الذي يجب أن تكون أحكام أصحابنا موضعا له ، عند ماتكون في مصلحتنا . ولكني سأجتهد أن أبين في
هذا المقال ، ما هي الطرق التي تبعتها ، وأن أمثل حياتي فيه كأنها في لوح [٤]
تصوير ، حتى يستطيع كل أن يحكم فيها حكمه ، وحتي يكون علي بمختلف

إلى صديقه مرسن Mersènne في مارس سنة ١٦٣٦ في المجلد الأول من الاعمال الكاملة طبعة ادام وتانري ص ٣٣٩)

(١) يقصد استكشافه للهندسة التحليلية وهي توفيق بين علمي الهندسة والجبر وكذلك اثباته وجود الله بالبراهين التي سيذكرها في القسم الرابع وكذلك آراءه في الطبيعيات وسيشير اليها في القسم الخامس

(٢) يقصد الأفراد العاديين الذين لم يهبهم الله قدرة فوق ما لغيرهم من بني الانسان بحيث يقومون بالمعجزات

الآراء فيها بما يصل اليّ من صدى ، وسيلة جديدة لتعليمي ، أضيفها الى ما اعتدت أن أستعين به من الوسائل

واذن ليس غرضي أن أعلم المنهج الذي يجب على كل فرد اتباعه لكي يحكم قيادة عقله ، ولكن غرضي هو أن أبين على أي وجه حاولت أن اقود عقلي . وان الذين ينصبون أنفسهم لاسداء النصائح ، يلزمهم أن يعتبروا انفسهم أحذق ممن يسدونها اليهم ، وإذا زلوا في أدنى الامور ، استحقوا الملام . ولكن ، لما لم يكن غرضي من هذا الكتاب إلا ان اجعله تاريخا ، وان شئت فقل قصة ، قد يكون فيها أمثلة تحتذى ، وقد تلفى فيها ايضا امثلة غيرها كثيرة يحق للمرء ألا يقتدي بها ، فانى آمل ان يكون هذا الكتاب نافعا للبعض ، من غير أن يضر احدا ، وان يرضى عنى الجميع لصراحتى

غذيت بالآداب منذ طفولتى ، وأقنعت أنه مستطاع بواسطتها تحصيل علم بين يقينى بكل ما هو نافع في الحياة ، فاشتدت رغبتى في تعلمها . ولكنى ما كدت انتهي من تلك المرحلة من الدراسة ، حيث كانت العادة قبول الانسان عند نهايتها في مرتبة العلماء ، حتى غيرت رأيى كل التغيير . ذلك بأني وجدت نفسى يحيرني من الشكوك والضلالات ، مابدا لي معه انني لم اكتسب من اجتهادى في التعلم ، إلا تبينى شيئا فشيئا جهالتي . على أني كنت في مدرسة من أشهر [٥] مدارس أوربا كنت أظن أنه يجب أن يكون فيها علماء ، اذا كان في أي موضع من الارض علماء[1] . ولقد تعلمت فيها كل ما كان يتعلم غيري ، بل إننى لما

(١) يقصد مدرسة لافليش الملكية التي أسسها اليسوعيون في عهد هنري الرابع عام ١٦٠٤ . و ديكارت يشهد بفضل تلك المدرسة في كتاب له إلى بعض

لم أقتنع بما كانوا يعلموننا من العلوم ، تصفحت كل ماوصل الي من كتب في العلوم التي يعتبرونها اعجب العلوم واندرها [١] وكنت ايضا اعرف ما يحكم به الآخرون علي ، ولم اشهد قط انهم ينزلونني دون منزلة رفاقي مع أن بعضهم كان يُعد لان يشغل مناصب أساتذتنا . ثم انه كان يخيل الي أن عصرنا في ازدهاره وفي خصبه بالعقول القوية ، لا يقل عن أي عصر من العصور السالفة . وهذا أورثني حرية في أن أحكم بنفسي في كل من عداي وأن ارى ان ليس في الدنيا من العلم ماينطبق على ما كنت قد صيرت من قبل الى القصد اليه [٢]

وعلى كل حال فانني ما غمطت حق ما يشتغلون به في المدارس من الدروس وإني لاعلم أن اللغات التي تعلم فيها لازمة لفهم الكتب القديمة وأن طلاوة القصص توقظ النفس ، وأن حوادث التاريخ المذكورة تسمو

أصدقائه يقول فيه « ويجب أن أنسب ذلك الشرف الى أساتذتي بأن أقول بأنه ليس في العالم مكان أحكم بأن الفلسفة تعلم فيه خيراً مما تعلم في مدرسة لافليش » **أعمال ديكارت** ج ٢ ص ٣٧٨

(١) يعني بالعلوم العجيبة السحر وأحكام النجوم والكيمياء (كما كانت قديما) وغيرها من العلوم التي لا يطلع على خفاياها إلا القليل ويعني بالعلوم النادرة ما عز على العامة مناله

(٢) يقصد بذلك « ان عدم كفاية العلم الذي تلقيته هو السبب الوحيد في تضليلي اذ لا يمكن تعليله بنقص في المدرسة التي تعلمت فيها ولا في أساتذتي ولا في نفسي ولا في زماني » (**تعليق** جلسون ص ١١٠)

بها ، واذا قرئت بتمحيص فانها تعين على تكوين الحكم [1] ، وأن قراءة كل الكتب الجيدة هي كمحاضرة مؤلفيها الذين هم خير أهل القرون الماضية بل هي محاضرة ممتنى بها ، لا يكشفون لنا فيها إلا عن صفوة أفكارهم وأن للبلاغة قوة وجمالا لا يضارعان . وأن للشعر رقة وحلاوة رائعتين جدا [٦] وأن في الرياضيات اختراعات جد دقيقة ، وتفيد كثيرا في ارضاء النفوس المتطلعة وفي تسهيل كل الفنون ، وتوفير جهد الناس ، وأن الكتب الباحثة في الاخلاق تشتمل على كثير من التعاليم وعلى مواعظ كثيرة تدعو الى الفضيلة وهي مفيدة جدا ، وأن علم أصول الدين يهدي الى طريق الجنة ، وأن الفلسفة تعطينا وسيلة للقول في كل شيء بما هو أدنى للحق ، ولكسب الاعجاب ممن هم أقل منا علما [2] ، وأن التشريع [3] ، والطب والعلوم الاخرى تأتي بالجاه والثروة للذين يتعلمونها ، وأخيراً فمن الخير أن نخبرها جميعا ، حتى أكثرها خرافة وبطلانا ، لنعرف قيمتها بالعدل ونحذر الخديعة فيها

ولكني كنت أعتقد أنني أنفقت الكفاية من الوقت في اللغات ، بل

(١) يقصد بالحكم القوة اللازمة لتمييز الحق من الباطل (انظر القاعدة الرابعة [12])

(٢) يقصد بالفلسفة فلسفة العصور الوسطى وهو يسوق قوله تهكما بها

(٣) يعني علوم القوانين والحقوق ــ وقد كان ديكارت طالبا في الحقوق بجامعة بواتييه ولبث فيها سنتين من سنة ١٦١٤ إلى سنة ١٦١٦ ونال منها اجازة القانون المدني والديني في ١٠ نوفمبر سنة ١٦١٦ . راجع شارل آدام حياة ديكارت ص ٤٠ مذكرة ١ .

وفي قراءة الكتب القديمة ، وأيضاً ما فيها من تواريخ وقصص : فان محاضرة أهل العصور الأخرى ، تكاد تكون كالسفر ، وانه لمفيد أن نعرف شيئاً عن أخلاق الامم المختلفة ، حتى يكون حكمنا على أخلاقنا أصح ، وحتى لا نظن أن كل ما خالف عاداتنا هو سخرية ومخالف للعقل ، كما هو دأب الذين لم يروا شيئاً [١] ولكن اذا أسرف المرء في صرف الوقت في السفر فانه ينتهي الى أن يصير غريباً في بلده ، ومن أسرف في التطلع الى ما كان يحدث في العصور الخالية ، ظل في العادة شديد الجهل بما يقع في زمانه . وفوق ذلك [٧] فان القصص تجعلنا نتخيل ممكناً ما ليس ممكناً من الحوادث ، بل وان أصدق التواريخ اذا لم يغير من قيمة الاشياء ولم يزدها ، كي يجعلها أجدر بأن تقرأ ، فانه على الاقل يكاد يهمل دائماً أدنى الظروف شأناً وأقلها شهرة : ومن ثم فان ما يبقى لا يبدو كما هو ، والذين يتخذون مما يستنبطونه منها أسوة لاخلاقهم يكونون عرضة للوقوع في الغلو الذي وقع فيه فرسان قصصنا ، وللتطلع الى ما فوق طاقتهم .

كنت عظيم التقدير للبلاغة ، وكنت مولعاً بالشعر ، ولكني رأيت أن كليهما أقرب أن يكون من المواهب النفسية ، لا من ثمرات الدرس [٢] .

(١) يقصد الذين لا تتجاوز معارفهم حدود بلادهم

(٢) هذه فكرة عزيزة لدى ديكارت وهو يأخذ بها منذ سنة ١٦١٩ (راجع المقدمة والتعليق على ختام الجزء الأول) وأرجح أنها ترجع الى سقراط الذي يقول « إن انتاج الشعراء يرجع الفضل فيه ، لا الى علمهم ، ولكن الى هبة طبيعية ، أو الى إلهام إلهي شبيه بالهام الأنبياء والعرافين » أفلاطون دفاع سقراط

والذين لهم الحجة البالغة ، الذين يرتبون أفكارهم على أحسن وجه ، كي يجعلوها جلية ومفهومة ، يقدرون دائما على الاقناع بما يرون ، ولو كانوا لا يتكلمون إلا بكلام العامة ، ولم يتعلموا قط علم الخطابة . والذين لهم الأخيلة الرائعة ، ويعرفون كيف يعبرون عنها بأحسن المجازات وأحلى الأساليب ، هم خيرة الشعراء ، وان كان فن الشعر مجهولا لديهم

كانت تعجبني الرياضيات على الخصوص ، وذلك لما في براهينها من الوثاقة والوضوح ، ولكني لم أكن ألحظ فائدتها الحقيقية ، إلا في الصناعات الميكانيكية [١] كنت أعجب أن تكون أسسها البالغة في متانتها وقوتها لم يشيد فوقها بناء أسمى ، وبالعكس فانني كنت أشبه كتابات القدماء (في الجاهلية [٢]) الباحثة في الأخلاق بقصور جد رائعة وفخمة ، لم تشيد الا فوق [٨]

ص ٢٢ (**أعمال أفلاطون** في مجموعة الجامعات الفرنسية المجلد الأول ص ١٤٦ ـ ١٤٧) . ويقول سقراط في نفس الصفحة إنه طلب الى بعض الشعراء تفسير بعض شعرهم فكانوا لا يفهمونه جيدا . ويأخذ أفلاطون بنفس الفكرة في حواريه فيدر و يون ويقول إن شعر الشعراء وحي من آلهة الشعر وانهم ينشدونه دون تمام فهمه

(١) كان يُهتم في عصر ديكارت بتعليم الرياضيات لتطبيقها في الأعمال ، مثل مساحة الأراضي وهندسة ميادين الحرب وفي المقاييس والموازين المختلفة وفي استعمال الآلات الصناعية وغير ذلك

(٢) في النص الفرنسي Les anciens païens ويقصد بهم كتّاب ماقبل المسيحية . ويظهر من الجملة التالية انه لا يقصد غير الرواقيين لأن الذي يذكره وينكره من الاخلاق هو من تعاليم بعضهم

الرمل والطين . وانهم ليرفعون الفضائل الى أعلى أوجها ، ويظهرونها أحق بالاجلال من كل شيء في العالم ؛ ولكنهم لا يرشدوننا الى تعرفها ارشاداً كافياً ؛ وكثيراً مايكون الذي يدعونه بأجمل الاسماء ، انما هو فقد العواطف والاحساس [١] أو الكبرياء [٢] أو اليأس [٣] أو قتل القريب [٤]

وكنت أجلّ علومنا الدينية ، وأطمع كغيري في الجنة ، ولكن لما علمت علماً مؤكداً أن الطريق اليها ليس ممهداً لاجهل الجهلاء أقل مما هو ممهد لأعلم العلماء [٥] ، وان الحقائق الموحى بها ، والتي تهدي الى الجنة هي فوق فهمنا ؛ لم يكن لي أن أجرؤ على أن أسلمها لضعف استدلالاتي ورأيت أن محاولة امتحانها امتحاناً موفقاً تحتاج لان يمد الانسان من السماء

(١) كان الرواقيون يدعون الى ألا يكون للأهواء والعواطف أي تأثير على الحكيم كما انه يجب ان يتحمل كل الآلام الحسية دون الاهتمام بها

(٢) كان الرواقيون يرفعون رتبة الحكيم فوق كل رتبة ويساوونه بالاله

(٣) وكان بعضهم يبيح الانتحار ، اذا اقتنع المرء باليأس من هناءة الحياة ، فيكون الموت في زعمهم خلاصا من الآلام

(٤) في النص الفرنسي Parricide ومعناها الآن قتل الأب ولكنها في زمن ديكارت كانت تفيد قتل القريب على العموم، ويحتمل أنه يشير الى قتل بروتس لقيصر ؛ وقول الثاني للأول عند ما تلقى منه الطعنة القاتلة « وأنت أيضاً ، يا بني « Tu quoque, fili mi

(٥) الوصول الى الجنة يكون بالايمان والايمان ليس من عمل العقل (راجع التعليقة التالية)

بمدد غير عادي وأن يكون فوق مرتبة البشر (١)

ولن أقول عن الفلسفة ، الا أنه لما رأيت أن الذين كانوا يتدارسونها هم خيرة العقلاء ، ممن عاشوا منذ عصور كثيرة ؛ ومع ذلك ليس فيها بعد أمر لا مجادل فيه ، أي ليس مشكوكا فيه ، فانني لم أكن قط من الغرور بحيث آمل أن أنال فيها من التوفيق خيراً من الآخرين ، ولما تأملت ما قد يكون في المسألة الواحدة ، من آراء مختلفة ، يؤيدها رجال علماء ، على أن الحق فيها لا يكون الا واحداً ، فاني اعتبرت كل ما ليس الا راجحاً يكاد يكون باطلا (٢)

أما العلوم الاخرى التي كانت تأخذ أصولها من الفلسفة ، فقد كان حكمي فيها أنه لا يستطاع اقامة بناء قوي على قواعد ليست على شيء من [٩]

---

(١) يقصد بالمدد غير العادي الوحي الذي يفيضه الله على بعض الناس ممن يختصهم ، وهم بذلك يرتفعون فوق مستوى الانسانية العادي . ولقد أحصى ديكارت أربعة أصول للعلم كما كان في زمانه وهي ١ ـ الافكار الجلية بذاتها التي تحصل بدون تفكير ٢ ـ ما يحصل بواسطة الحواس ٣ ـ معاشرة الناس ٤ ـ قراءة الكتب الجيدة . ثم يقول ان الحكمة كلها لا تكتسب الا بتلك الوسائل الاربع أما الوحي الالهي فانه لا يوصلنا الى العلم بالتدريج ، شأن تلك الطرق ، بل يسمو بنا مرة واحدة الى عقيدة معصومة من الخطأ (راجع رسالته الى من ترجم الى الفرنسية كتابه مبادىء الفلسفة)

(٢) يقصد ما لا يعتمد في اثباته على البرهان الصحيح الذي يوقع اليقين ، وانما يعتمد على القياس الجدلي الذي يوقع تصديقا شبيها باليقين

المتانة . ولم يكن ما تُغرى به من الجاه والكسب (١) يكاف ليبعثني على تحصيلها ؛ فانني لم أكن أشعر ، بفضل من الله ، أنني في حالة تضطرني الى أن أجعل من العلم صنعة لتحسين رزقي ومع أنه لم يكن من دأبي أن أكون كلبيا (٢) يحتقر المجد فانني مع ذلك لم أكن أعبأ الا قليلا بمجد لم أكن لآمل قدرة على تحصيله الا بالباطل (٣)

أما العلوم الباطلة ، فلقد كنت أعتقد أنني بلغت من عرفان قيمتها حدا لا أكون معه عرضة للخديعة بوعود الكيماوى أو بتكهنات المنجم ، ولا بتضليلات الساحر ، ولا بالتصنع أو الزهو ممن ديدنهم أن يظهروا بأكثر مما يعلمون

من أجل هذا فانني ما كدت أن تسمح لي السن بالتحلل من ربقة معلميّ حتى هجرت كل الهجر دراسة الآداب . واذ صممت على ألا ألتمس

---

(١) يشير الى الجاه الذي ينتج عن درس الفقه والقوانين ؛ والى الكسب الذي ينتج عن درس الطب

(٢) أي من أتباع المذهب الكلبيّ ، نسبة الى ديوجينيس الكلبيّ ؛ ويرجح الاستاذ جلسون أن تكون في تلك العبارة اشارة الى جواب ديوجينيس نفسه الى الاسكندر المقدوني « الذي أريده منك ، هو أن تنحرف كيلا تغنم عنى الشمس » (انظر التعليق (٤) ص ١٤٠)

(٣) يشرح النص اللاتيني ذلك بما زاد فيه على الاصل الفرنسي وهو « أي نظراً لما في هـذه العلوم من معارف غير صحيحة » (أعمال ديكارت ج ٦ ص ٥٤٤)

علما الا ما اشتملت عليه نفسي [١] أو ما كان في الكتاب الكبير، كتاب العالم، فانى أنفقت بقية شبابي في السفر ، وأن أتصل بقصور وبجيوش وأغشى اناسا من مختلف الامزجة والدرجات ، وفي جمع التجارب المختلفة ، وأن ابتلي نفسي فيما ساق الى الحظ من مصادفات ، وأن افكر أينما كنت في الامور التي كانت تعرض لي تفكيرا يمكننى من أن استخلص منها فائدة . فقد كان يبدو لي أنني أستطيع أن اجد من الحقائق ، في التفكير الذي يفكره كل انسان في الامور التي تهمه ، والتي سرعان ما تؤديه عاقبتها ، [١٠]
ان كان قد أخطأ في الحكم ، ما لا يوجد في تفكيرات احد النظار من رجال الآداب وهو بين جدران حجرته فيما يمس امورا نظرية ليس لها في الخارج

(١) في ذلك يظهر ديكارت اعتقاده بعدم كفاية العلم الذي كان موجودا في زمنه في الكتب ، وعلى ذلك فهو يبحث عن طريقة أخرى لاستكشاف علم جديد ، وهنا يرى أن تلك الطريقة هي في التفكير بعقله الحر المستقل ، لأنه كان يعتقد أن بذور العلوم كائنة فينا ، وأن الحقيقة تثوي في نفوسنا كما تثوى النار في حجر الصوّان . ولعله كان يريد بذلك تقليد الشعراء الذين يعتمدون على الاختراع ، أي على استخراج الحقائق من عقولهم ، وفي ذلك ينحصر فضل الشعر أكثر من اعتمادهم على تحصيل مادة أشعارهم من الكتب ، أو من محاضرة غيرهم . (راجع ميلو MILHAUD أزمة صوفية عند ديكارت عام ١٦١٩ [٩] في مجلة ما بعد الطبيعة والأخلاق المجلد الثالث والعشرين ج ٤ ص ٦٠٧ – ٦٢١) وأرجح أن ديكارت عزم على ذلك عام ١٦١٦ بعد انتهائه من درس الحقوق في جامعة بواتيه وقبل ابتدائه في الرحلات كما يظهر من النص

أثر(١)، ولا تكون له منها نتيجة ، الا ما قد يدركه من غرور بها على مقدار بعدها عن العقل ، بسبب ما بذل من الفكر والحيلة كي يجعلها شبيهة بالحق ، وكانت رغبتي شديدة دائماً في أن أتعلم كيف أميز الحق من الباطل ، كي أكون على بصيرة في أعمالي ولكي أسير على هدى في حياتي

في الحق أني حينما كان جهدي مقصورا على ملاحظة أخلاق الناس فاني لم أجد فيها موضعاً ليقين ، ولحظت فيها من التباين نحو ما لحظته من قبل في آراء الفلاسفة . وقد كان أكبر ما حصلته من فوائدها ، أنني لما رأيت أمورا كثيرة ، تبدو لنا من الشطط والسخرية ، ومع ذلك فان أمماً عظيمة تجمع على قبولها والرضاء عنها ، فانني تعلمت ألا اعتقداعتقادا جازماً في شيء ما بحكم التقليد أو العادة وكذلك تخلصت شيئاً فشيئاً من كثير من الأوهام ، التي تستطيع أن تخمد فينا النور الفطري(٢) وتنقص من قدرتنا

(١) في ذلك يهاجم ديكارت طرق التفكير في العصور الوسطى ، ويتهكم على عقم الجدل الذي كان يقتصر عليه العلماء

(٢) يقول ديكارت في «مبادئ الفلسفة»(٦) في الفقرة الثلاثين من الجزء الاول « وينتج من ذلك أن ملكة المعرفة التي وهبها الله لنا ، والتي نسميها بالنور الفطرى ، لاتتصور مطلقاً أي شيء مالم يكن حقيقياً من حيث هي تتصوره ، أي ما دامت تعلمه بوضوح وتميز ، الخ » . وكذلك فان لديكارت حوارا وهذا عنوانه الطويل « البحث عن الحقيقة بواسطة النور الفطرى ، الذى يعين وهو خالص وحده ، وبدونه أنه يستعين بالدين أو بالفلسفة ، الآراء التى يجب أن يراها رجل شريف فيما يختص بكل الامور التى تشغل فكره ، وينفذ الى أسرار أعجب العلوم(٧) » ويشار اليه للايجاز بالبحث عن الحقيقة فقط

على التمهل . ولكن بعد أن أنفقت بعض السنين في الدرس على تلك الحال في كتاب العالم ، وفي الاجتهاد في تحصيل بعض التجربة ، فانني عزمت في بعض الأيام أن أبحث أيضاً في نفسي وأن اصرف قوايَ العقلية كلها في اختيار الطرق التي يجب أن أسلكها (١) وقد لقيت في هذا على ما يبدو لي نجاحا لم أكن لألقاه لو انني لم افارق قط بلادي ولا كتبي [١١]

(١) سيساعد ما يلي ذلك ، أي مطلع القسم الثاني ، على تعيين ذلك الوقت الذي عزم فيه ديكارت ذلك العزم . ويتفق الشرّاح على أن هذا كان في يوم ١٠ نوفمبر سنة ١٦١٩ ، والاعتماد في ذلك على قول ديكارت في رسالة « أوليمبيكا » (وهي من كتابات ديكارت بالقرب من ذلك التاريخ وقد طبعت في المجلد العاشر في مطبوعة أدام وتانري) انه وجد في ذلك اليوم قواعد علم عجيب *Mirabilis scientiae fundamenta* على أن هناك خلافا في تقدير ذلك الاستكشاف والرأي الذي نأخذ به أنه استكشف يومئذ منهجه بأكمله ، اذ ليس عند ديكارت إلا منهج واحد وكل ما استكشفه في علوم الطبيعة وما بعد الطبيعة والرياضة لم يكن الا نتيجة لتطبيق منهجه ، والاستاذ آدم يرى أن في ذلك اليوم اهتدى ديكارت الى بعض استكشافاته الرياضية المهمة على أنه لا يعين ذلك الاستكشاف كما أنه لا يجزم برأيه (راجع اعمال ديكارت ج ١٢ ص ٥٠) . أما الاستاذ ميلو فيرى أن كل تلك الآراء باطلة وأن ديكارت اهتدى في ذلك اليوم الى وجوب العدول عن كتب الاقدمين والاقتصار في البحث عن الحقيقة « التي توجد في نفسنا بذورها كما يوجد شرر النار في حجر الصوان » على الاستعانة بالنور الفطري ، أو بالالهام الذي يشبه إلهام الشعراء بالبداهة . (راجع مقالة أزمة صوفية

القسم الثاني

كنت إذ ذاك في ألمانيا ، عند ما استدعتني الحروب التي لم تنته فيها بعد ، ولما كنت في عودتي من تتويج الامبراطور [١] الى الجيش ، ألجأني بدء الشتاء الى قرية [٢] ، لم أجد فيها شيئاً من السمر ملهياً ، على أنه لم يكن عندي ، لحسن الحظ ، ما يقلقني من هم أو هوى ، وكنت ألبث اليوم كله وحدي في حجرة دافئة ، حيث كانت لي كل الفرصة لتوجيه همتي للفكر . وكان من أول ما فكرت فيه أنني لاحظت أنه كثيراً ما تكون الاعمال المؤلفة من أجزاء كثيرة ، صنعتها أيدي حذاق مختلفين ، ليس فيها من الكمال

عند ديكارت عام ١٦١٩ . ولكننا رأينا فيما سبق أن ديكارت عزم على العزم الذي يتصوره الاستاذ ميلو عام ١٦١٦ بعد انتهائه من المدارس وقبل بدئه في الرحلات ، واذن فلا بد أنه بعد رحلاته قد اهتدى الى شيء آخر كما يتبين من كلامه في آخر القسم الاول ، وعلى ذلك يبطل قول ميلو (راجع تفصيل ذلك في المقدمة)

(١) المقصود بالحروب حروب الثلاثين عاما التي انتهت بمعاهدة وستفاليا عام ١٦٤٨ والامبراطور هو فرديناند الثاني الذي تُوّج قيصرا في ٩ سبتمبر سنة ١٦١٩ (راجع كينو فيشر KUNO FISCHER حياة ديكارت وعصره ومذهبه ص ١٧٤ وما يليها من الطبعة الخامسة ، هيدلبرج سنة ١٩١٢

(٢) نزل ديكارت أولا في أولم Ulm حيث زار الرياضي فاولهابر Faulhaber وبقي هناك بضعة شهور . ولكن عزلته الحقيقية كانت في نيوبرج Neuburg . والمدينتان على نهر الدانوب (راجع فيشر الكتاب المذكور ص ١٧٥)

مثل ما في الاعمال التي صنعها واحد ، كذلك ترى المباني التي بدأها مهندس واحد وأتمها هي في العادة أجمل منظراً وأحسن نظاما من تلك التي اجتهد في ترقيعها الكثيرون ، وذلك باستخدام جدر قديمة بنيت من قبل لغايات أخرى كما في تلك المدن العتيقة ، التي لم تكن في البدء إلا قرى ، ثم أصبحت بتعاقب الزمان ، مدنا كبيرة ، فانها في العادة قبيحة التأليف اذا قورنت بالمدن المنظمة ، التي يخططها مهندس واحد وهو حر في براح خال . ومع أننا اذا نظرنا الى عماراتها كل على حدة ، فكثيراً ما نجد فيها من الفن مثل ما في عمارات المدن الاخرى أو أكثر ؛ ثم اذا رأينا كيف نظمت ، نجد ها هنا بناء عظيما ، وهناك بناء صغيرا ، على وجه يجعل الطرق معوجة وغير متساوية ،
[١٢] فسوف تقول ان الأقرب أنه الحظ ــ لا إرادة أناس تصرفوا بعقولهم ــ هو الذي وضعها كذلك ، وعلى كل حال اذا لاحظنا أنه كان يوجد دائماً من العمال من يوكل اليهم ملاحظة أن يكون في المباني الخاصة مستمتع للجمهور ، عرفنا أنه من العسير أن نقوم بأعمال كاملة مادام كل عملنا هو تكميل عمل الغير . وكذلك ظننت أن الامم التي كانت في زمن من الازمنة نصف متوحشة ، ولم تأخذ بالمدنية إلا قليلا قليلا ، لم تسن قوانينها إلا حسبما كانت تضطرها اليه أضرار الجرائم والمنازعات ، هذه الامم لا تكون حاصلة على نظام يبلغ من الاحكام مبلغ ما عند الأمم التي منذ بدء اجتماعها ، قد اتبعت شرائع مشترع حكيم . كذلك يكون جداً يقين أن هيكل الدين الصحيح ، الذي شرع الله وحده أحكامه ، يجب أن يكون خيراً في النظام من كل ما عداه الى الحد الذي لا يبارى . وإذا تحدثنا عن الشئون الانسانية فاني أعتقد أنه

اذا كانت اسبرطة قديماً ذات مجد زاهر ، فليس السبب في ذلك صلاح كل قانون من قوانينها على حدة ، لان كثيراً منها كان شديد الشذوذ ، بل كان مخالفاً للاخلاق الطيبة ، ولكن السبب أنه لما كان مبدعها شخصاً واحدا ، فقد كانت جميعا ترمي الى غاية واحدة . وكذلك فقد رأيت أن علوم الكتب وعلى الاقل ما كان منها حججه ليست إلا جدلية [1] ، وليس له برهان ، فانها لما كانت قد ألفت وزيد فيها قليلا قليلا من آراء رجال كثيرين مختلفين فانها ليست قريبة من الحقيقة قرب الاستدلالات البسيطة التي يكونها بالفطرة رجل عاقل فيما يعرض من الامور . وكذلك رأيت أيضا أنه نظراً لاننا كنا جميعا أطفالا قبل أن نصير رجالا ، وأنه كان يلزمنا في زمن طويل أن نظل تحكمنا أهواؤنا ومعلمونا ، وكان أحدهما في الغالب يناقض الآخر ، وربما لم يكن كلاهما لينصحنا دائما أحسن النصائح ، فانه يكاد يكون مستحيلا أن تخلص أحكامنا ، أو أن تكون قوية كما كانت تكون ، لو أننا استعملنا عقلنا تمام الاستعمال منذ ميلادنا ، ولم نسير قط الا بواسطته

وفي الحق إنا لا نشاهد أن بيوت مدينة تهدم جميعها لغيرغرض الا أن يعادبناؤها على نظام آخر ، وأن تجعل طرقها موفورة الجمال ولكن المشاهد غالباً أن كثيرين يهدمون بيوتهم ليعيدوا بناءها ، بل يضطرون أحيانا الى ذلك عند ماتكون من نفسها على خطر السقوط ، وعند ما تكون قواعدها

---

(١) أي العلوم التي تعتمد على الجدل ، وهو ما كان يغلب على استدلالات المشتغلين بالفلسفة في العصور الوسطى . وهذه العلوم لاتصل بتلك الاقيسة الى مراتب اليقين مثل علوم الرياضة .

غير ثابتة . وقياساً على ذلك أيقنت أنه غير معقول في الحقيقة أن يضع بعض الناس خطة لاصلاح دولة بتغيير كل شيء فيها بادئاً بالأسس ، وأن يقلبها رأساً على عقب ليقومها ، أو أن يصلح أيضاً مجموعة العلوم ، أو النظام المقرر في المدارس لتعليمها ، ولكن فيما يختص بكل الآراء التي قبلتها واعتقدت بها حتى يومئذ فاني لم أكن لاقدر على خير من انتزاعها جملة واحدة من اعتقادي ، وذلك لكي أحل محلها فيما بعد ، إما غيرها خيرا منها ، أو أعيدها نفسها بعد أن أكون قد سويتها بميزان العقل . ولقد رسخ في اعتقادي أنني [١٤] أكون بهذه الوسيلة أكثر توفيقاً في سياسة حياتي مما لو لم أبن الاعلى أسس عتيقة ، ولم أعتمد الا على مباديء استسلمت للاذعان لها في شبابي دون أن أختبر قط ان كانت صادقة . فاني وان عرفت في ذلك شتى المصاعب ، فهي مع ذلك لم تكن لا تداوى ، ولم تكن أيضاً تقارن بالمصاعب التى تقوم عند اصلاح مايمس الجمهور من أحقر الامور . ان هذه الاجسام الماثلة لعسير رفعها اذا هوت ، أو المحافظة عليها اذا تزعزعت ، وسقوطها لا يكون الا مروعا

أما مافي نظم الدول من عيوب ، ان كان فى نظمها عيوب ، (وإن الخلاف بينها ليكفى لاثبات وجود عيوب في الكثير منها) فان التطبيق قد لطفها كثيرا بلا ريب ، بل هو جنب من عيوبها وتلافى منها رويدا رويدا مالم يكن مستطاعا بالحكمة . وأخيرا ، فان تلك العيوب تكاد تحتمل دائما أكثر مما يحتمل تغييرها : كما ان الطرق الكبيرة ، التى

تتلوى بين الجبال ، تصبح قليلا قليلا سهلة وممهدة ، وذلك لكثرة التردد عليها ، وخير أن يتبعها السائر من أن يذهب في طريق اكثر استقامة متسلقاً فوق الصخور منحدرا الى بطون الوهاد

من أجل هذا لم أكن لأقر في شيء تلك الامزجة المرتبكة القلقة التي لم يدعها نسب ولا مكانة لادارة الشئون العامة ، وهي لا تبرح تعمل الفكر في وضع خطط جديدة للاصلاح . ولو انه تبادر الى ذهني أن في هذه الكتابة أقل ما يمكن أن أتهم معه بذلك الجنون ، لندمت كثيرا على السماح بنشرها . فان مطلبي لم يتجاوز قط الاجتهاد في اصلاح أفكاري الخاصة ، وأن أبني على أساس كله ملك لي . واذا كان عملي قد بلغ بي من الرضاء ماجعلني أشهدكم هنا انموذجا منه [1] ، فما كنت لهذا أريد أن أنصح أحدا بتقليده . وربما كان للذين ميزهم الله في تقسيم فضله مقاصد اسمى ؛ ولكنني أخاف كثيرا ألا يكون هذا العمل بالنسبة لكثيرين الاشططا في الاقدام . ليس مجرد العزم وحده على التخلص من كل الآراء التي اعتقد بها المرء من قبل ، مثالا يجب على كل فرد ان يحتذيه ؛ ويكاد الناس بالنسبة لعقولهم ألا يكونوا الا صنفين وذلك لا يصلح في شيء لكليهما ١٥

هذان الصنفان هم أولا الذين لاعتقادهم في إنفسهم من الحذق فوق مالهم

(١) لان المقال هو في الحقيقة انموذج لعمل ديكارت بأكمله

لا يستطيعون أن يمنعوا انفسهم من التهور في احكامهم [1] ، ولا يملكون من الصبر ما يستطيعون به سياسة افكارهم كلها بنظام ؛ ومن ثم فانهم اذا اتخذوا حرية الشك في المباديء التي تلقوها ، والابتعاد عن الطريق العام ، فانهم لن يقدروا على ملازمة الصراط الذي يجب سلوكه للسير الاقوم ، وسيظلون في ضلال كل حياتهم

ثم آخرون اوتوا حظا من العقل ، او من التواضع ، كي يحكموا بأنهم أقل قدرة على تمييز الحق من الباطل من اناس يصلحون أن يكونوا لهم معلمين ، فهم اولى بأن يقنعوا باتباع آراء هؤلاء من ان يبحثوا بأنفسهم عما هو أحسن

أما أنا فلقد كنت أكون بلا شك في عداد هؤلاء الاخيرين [١٦] لو لم يكن لي إلا أستاذ واحد ، أو لم أكن عرفت الخلاف الذي كان في كل زمان بين آراء اكبر العلماء . ولكنني لما كنت قد تعلمت ، منذ أيام المدرسة ، أنه لا يمكن أن نتخيل امرا مهما بلغ من الشذوذ والبعد عن التصديق ، إلا وقد قال به أحد الفلاسفة [2] ؛ ثم انني عرفت في رحلاتي أن كل

(١) التهور هو أحد مصادر الخطأ عند ديكارت ، وهو ينحصر في الجزم بالحكم قبل تبين اليقين فيه أي في التهافت إلى المطالب قبل تحقيق المقدمات

(٢) كلمة مشهورة لشيشرون هذه ترجمة نصها اللاتيني « لا يوجد قول مخالف للعقل لم يقل به من قبل بعض الفلاسفة » (راجع جلسون التعليق على المقال ص ١٧٨)

الذين لهم عواطف مخالفة لعواطفنا كل المخالفة ، ليسوا من أجل هذا برابرة ولا متوحشين ، ولكن الكثيرين منهم يستخدمون العقل مثلنا أو اكثر منا . ولما تأملت في أن الرجل نفسه ، بنفس عقله ، إذا نشأ منذ طفولته بين فرنسويين أو ألمانيين ، فانه يصبح مختلفا عما كان يكون ، لو أنه عاش دائماً بين صينيين او كانيباليين (١) ، وكيف ان الشيء الواحد حتى في أزياء الملابس ، الذى اعجبنا منذ عشر سنين ، والذي ربما يعجبنا أيضاً قبل أن تمضي عشر سنين ، يبدو لنا الآن شاذا ومضحكا : بحيث تكون العادة والتقليد هما اللذان يؤثران في آرائنا اكثر من أى علم يقيني ، وعلى كل حال فان موافقة الكثرة ليست دليلا ذا شأن على الحقائق التي يتعسر كشفها ، فانه أقرب الى الاحتمال ان يجدها رجل واحد من أن تجدها امة بأسرها : وإذن فلم أكن لأستطيع أن اختار رجلا (٢) كانت تبدو لى افكاره واجبة التفضيل على آراء الآخرين ، ووجدتني كأنني مضطر الى أن أتولى بنفسي توجيه نفسي .

ولكن ، كان مثلى كمثل رجل يسير وحده في الظلمات ، فصممت على أن [١٧] أسير الهوينى ، وأن استعين بكثير من الاحتياط في كل الامور ، فلو لم

(١) "Des Cannibales" هم أكلة اللحوم البشرية ، وفي النص اللاتيني استبدلت بها كلمة أمريكيين Americanos والمقصود بالطبع سكان أمريكا الاصليون قبل الفتح الأوربي

(٢) أي من مؤسسي المذاهب الفلسفية من اليونان القدماء

أتقدم الا قليلا جدا ، كنت على الاقل قد سلمت من الزلل . حتى ولم أشأ ألبتة أن أبدأ بأن أنبذ جملة أي رأي من الآراء التي قد تكون استطاعت في بعض الاوقات أن تتسرب الى اعتقادى ، دون أن يقودها اليه العقل ، من قبل أن أكون قد صرفت مايكفي من الزمن لوضع مشروع للعمل الذي أتولاه ، ولان أتحرى المنهج الحق للوصول الى معرفة كل الامور التي يكون عقلي أهلا لها

ولما كنت أحدثَ سنا [1] ، اشتغلت قليلا بالمنطق من بين أقسام الفلسفة ، وبالتحليل الهندسي [2] والجبر من بين أقسام الرياضيات ، وهي ثلاثة

---

(١) المرجح أنه يقصد زمان وجوده في مدرسة لافليش ، لان النص الذي يسبق هذا مباشرة يوضح لنا أن ديكارت كان يتكلم عن أوائل عهده باستكشاف المنهج أي عام ١٦١٩ ، وإذن فعند مايقول « لما كنت أحدث سنا » فهو يعني ماقبل ذلك التاريخ . ثم انه سيأخذ في نقد الفلسفة و الرياضيات التي كانت تعلّم في المدارس ، ومنها مدارس اليسوعيين التي كان هو في إحداها .

(٢) ينحصر التحليل باعتباره جزءاً من علم الهندسة ، لا كمنهج للاستدلال والبرهان ، في حل المسائل بتحويلها جزئياً الى مسائل أخرى أبسط و أعم ، فمثلا لايجاد النقطة المتساوية البعد عن ثلاث نقط ، فانه يجب أن تكون تلك النقطة أولا متساوية في البعد عن نقطتين ، أي أن تكون على العمود المقام من منتصف المستقيم الذي يصل النقطتين ، ولايجاد النقطة المطلوبة يجب أولا ايجاد المحل الهندسي الذي هي جزء منه (راجع هملان مذهب ديكارت ص ٥٥ و ٥٦) . أما اذا كان التحليل باعتباره منهجاً للاستدلال ، فهو ما يقول عنه اقليدس انه

فنون أو علوم كان يبدو لى أنها لا بد أن تمد مشروعي بشيء ولكنني ، عند

يفرض أن المطلوب ثابت ، ثم ينتقل منه بطريق الاستنتاج حتى يوصل الى قضية أخرى ثابتة قبل ، و بذلك يتم البرهان على المطلوب (راجع لالاند مقالة التحليل *Analyse* في المعجم الفلسفي [١١]) وهذا المعنى هو ما يرجح هملان ص٥٦ و استاذنا المسيو لالاند أنه مقصود ديكارت . أما المسيو جلسون فيرى أن معاصري ديكارت لا يرون أن التحليل كمنهج للاستدلال ، يقابل التحليل باعتباره جزءا من علم الهندسة (انظر التعليق [٤] ص ١٨٣) ويشرح ديكارت نفسه التحليل باعتباره منهجا بقوله : « في التحليل يُستنبط المعلوم من المجهول وذلك بفرض المجهول معلوماً و المعلوم مجهولا » . (هذا النص ذكره أولا رافيسون Ravaisson بدون اشارة الى موضعه ، ويتبعه في ذلك كثير من المؤرخين (انظر هملان ص ٧٩ و ٨٠) ويقول فيه أيضاً « يُظهر التحليل حقيقة ما وُصل به الى الشيء تبعا لمنهج ، ويُبين كيف تتوقف المعلولات على العلل ؛ بحيث اذا شاء القاريء أن يتتبع ذلك وأن ينظر بعناية في كل ما يحويه ، فان فهمه للشيء الذي بُرهن عليه كذلك ، لن يكون أقل كمالا ، ولن يجعل ذلك الشيء أقل اختصاصا به ، مما لو أنه هو الذي توصل اليه واستكشفه بنفسه » (الردود على الاعتراضات الثانية [١٢]) وميزة التحليل البارزة التي توافق روح الفلسفة الديكارتية هي ما أبداه ليبنتز في علم الجوهر الفرد (مونادولوجيا) بقوله « عندما تكون حقيقة لازمة ، فان الانسان يستطيع إيجاد حجتها بالتحليل ، وذلك بتحليلها إلى أفكار وحقائق أبسط حتى يصل المرء الى الأفكار والحقائق الاولية » (الفقرة ٣٣ . انظر الكتابات الفلسفية *philosophische Schriften* طبعة جرهاردت ج ٦ ص٦١٢)

امتحانها تبينت ، فيما يختص بالمنطق أن أقيسته وأكثر تعليماته الاخرى هي أدنى ان تنفع في أن نشرح للغير ما نعرف من الامور، لا في تعلم تلك الامور »[1]

(١) درس ديكارت في كليـة لافليش منطق المدرسة وقرأ فيها **المدخل لفورفريوس (ايساغوجي) ومقولات أرسطو (قاطيغورياس)** وكذلك **تحليل القياس (أنالوطيقا الاولى) والبرهان (أنالوطيقا الثانية)والعبارة (بار ِمينياس)**(راجع بيان الكتب التي كان مقررا درسها في **هملان مذهب ديكارت**[3] ص١٣و١٤وجلسون **التعليق**[4] ص ١١٨) . وهو يأخذ على منطق المدرسة أي على القياس (سولوجسموس) انه عقيم لا يساعد على الاختراع ؛ لانه اذا وضعت المقدمات و كان الحد الاوسط في مكانه ، فان استخراج النتيجة لايحتاج الى أكثر من تعبير لغوي و بعبارة أخرى فان النتيجة لا تقوم بأكثر من أن تنقل ، تبعاً لأخس المقدمتين ، وعلى حسب موضع الحد الاوسط، قولا هو من قبل صادق على الحد الاوسط و بيّن الثبوت له ؛ و بذلك لايضيف القياس شيئاً الى معرفتنا . أما قول ديكارت بأن أقيسة المنطق تنفع في أن نتكلم فيما نجهل دون حكم ، ومعنى الحكم عنـده تمييز الحق من الباطل ، فالمرجح أنه يوجه باعتراضه الى منطق الماصدق ، لأن الحكم باعتبار الماصدق لا يستلزم انتباها كثيراً من النفس ، أما باعتبار المفهوم فلا يتسنى الحكم دون انتباه العقل الى معاني الحدود

تذنيب * لكل حد ماصدق وهو الافراد التي يطلق عليها ذلك الحد ؛ فمثلا ما صدق انسان هو زيد و عمرو و كل الاشخاص الانسانية ؛ وللحد أيضاً مفهوم وهو المعنى الذى يفيده ذلك الحد ، فمثلا مفهوم انسان هو كونه حياً وحيواناً ومن أهل السلسلة الفقرية ومن ذوي الثدي الخ .

بل هي كفن لل [١]، ينفع في أن نتكلم فيما نجهل من غير تمييز، ومع أن ذلك العلم يشتمل في الحقيقة على تعليمات كثيرة جداً صحيحة

(١) هو رايموند لل Lulle العالم الفيلسوف الكيماوي الرحالة المبشر . وهو من أعجب شخصيات العصور الوسطى ؛ ولد في بالما بجزيرة ماجوركا سنة ١٢٣٥ ومات مرجوما في ٣٠ يونيه سنة ١٣١٥ . وقد تعلم علوم العرب ولغتهم في الاندلس كي يدعو المسلمين الى المسيحية ، ويظهر أن جرأته وحماسته الفائقتين كانتا تشفعان له في غض أمراء المسلمين عنه والتسامح معه . وله مؤلفات كثيرة جدا يقول البعض انها تبلغ أربعة آلاف كتاب وقد ضاع أكثرها (أنظر تاريخ حياته وموجزاً عن مؤلفاته في رسالة **زويمر** ZWEMER **ريموند لل أول مبشر بين المسلمين** القاهرة سنة ١٩١٥) . ولرايموند لل مؤلفات بالعربية ، أمكن أخيرا إحصاء ثمانية منها ، على أنها غير موجودة (انظر **مجلة الدروس الاسلامية** *Rev. des études Islamiques* السنة الأولى ١٩٢٧ الكراسة الأولى ص ٣٥) .

ويعني ديكارت بفن لل ما هو معروف **بالفن الكبير** *Ars magne* وقد صنعه لل للتغلب على صعوبتين في منطق أرسطو : الاولى استكشاف المقدمات أو المبادىء اللازمة للوصول الى نتيجة مبرهنة علمية ؛ والثانية ايجاد الحد الاوسط اذا وُجد الطرفان ؛ وهو يلجأ في هذين المشكلين الى فنه الكبير الذي يجعل من الفكر آلة مسخرة بحيث حق لديكارت أن يحكم عليه حكمه (انظر لشرح الفن الكبير مقالة لل في **معجم العلوم الفلسفية** : *Dictionnaire des sciences philosophiques* تحت ادارة **فرانك** FRANCK وكذلك **برهييه** BRÉHIER **تاريخ الفلسفة** ج ١ ص ٧٠٠ وما يليها من الطبعة الأولى باريس سنة ١٩٢٦ وما بعدها)

ومفيدة ، فان فيه أيضاً غيرها ، اما ضارة واما عديمة النفع ، وهي مختلطة بها بحيث يكاد يكون فصلها عنها من المتعسر ، مثل استخراج ديانا أو منيرفا من قطعة من الرخام لم تنحت بعد[1] ثم أنه فيما يختص بتحليل الاقدمين وبجبر المحدثين ، ففوق انها لا تتسع الا لأمور مجردة جداً ، وتبدو كأنها لا تطبيق لها ؛ فان الاول مقصور دائما على النظر في الاشكال ؛ بحيث لا يقدر على اعمال الفهم دون اجهاده للخيال[2] ؛ وفي الاخير يتقيد بقواعد ورموز جعلت منه فنا مبهما [١٨] وغامضا يحير العقل ، بدلا من ان يكون علما يثقفه . وهذا ما كان سبباً في اني فكرت في وجوب البحث عن منهج آخر يكون مع احتوائه على مزايا تلك العلوم الثلاثة ؛ خالياً من عيوبها . وكما أن كثرة القوانين كثيراً ماتهيء المعاذير للنقائص[3] ؛ بحيث تكون الدولة خيراً حكما ونظاماً ، عندما لا يكون

---

(١) ديانا هي ابنة جوبيتر كبير الآلهة عند الاغريق والرومان ، و كانت ملكة الغابات ؛ و ميترفا وتسمى أيضاً بلاس أثينا كانت الهة الحكمة والفنون

(٢) انظر التعليقات على كلمة الخيال في الكلام على قوى النفس في القسم الخامس

(٣) يرى هملان في ذلك النص اعترافا من ديكارت بالنقص في كتابه «القواعد» الذي لم يكمله ديكارت على حسب مشروعه لانه كان ينوي جعله في ست وثلاثين قاعدة ، ولكنه بين أيدينا في واحدة وعشرين فقط ، واذن فيظن هملان في قوله « ان كثرة القوانين كثيراً ماتهيء المعاذير للنقائص » اشارة الى ذلك النقص (انظر مذهب ديكارت ص ٤٨) . ولقد اهتم ديكارت منذ حداثته بالبحث عن قواعد عامة قليلة العدد لقيادة العقل في تحري الحقيقة وفي ذلك من

لديها من القوانين الا قليل جداً ، فتصبح هذه القوانين مراعاة بدقة كثيرة ، كذلك أعتقدت انه بدلا من هذا العدد الكبير من المبادىء التي يتألف منها المنطق ، فالاربعة التالية حسبي بشرط ان يكون عزمي على ألا أخل مرة واحدة بمراعاتها صادقا ودائما

الاول ألا اقبل شيئا ما على انه حق ، ما لم اعرف يقينا انه كذلك : بمعنى أن أتجنب بعناية التهور [(١)] ، والسبق الى الحكم قبل النظر [(٢)] ، وألا

أقواله والتي يرجع تاريخها الى عهد شبابه قوله : « إن أحكام العلم هي ارجاعه كل شيء الى قليل من القواعد العامة » (انظر ص ١٣ من **اعمال ديكارت غير المطبوعة**[١٤] نشرها الكونت فوشيه دى كارى FOUCHET DE CAREIL في باريس ١٨٥٩ ـ ١٨٦٠)

ثم اننا نرى أن ديكارت يقتصر في **المقال** على أربع قواعد فقط ، بينما يبسط في كتابه **القواعد**[١] واحدة وعشرين قاعدة ومع ذلك فهي ناقصة ، ولا تزيد في شيء عن قواعد **المقال** ، وهذا راجع الى أن **المقال** كتب **بعد القواعد** ولو انه نشر قبله (انظر **جلسون التعليق**[٤] ص ١٩٦) وهناك رأي آخر قديم يقول به الاستاذ **ناتورب** NATORP في كتابه المشهور **نظرية المعرفة عند ديكارت**[٧] ص ١٦٥ ومحصله أن القواعد الاثنتي عشرة الاولى في كتاب **القواعد** هي شرح لقواعد **المقال** الاربع (انظر **يونجمان** JUNGMANN **ريفيه ديكارت ، مبحث في عصره**[١٦] ص ٤ و ٥)

(١) التهور وبالفرنسية Précipitation ويعني به ديكارت الحكم قبل أن يصل العقل الى يقين كامل وقد شرحناه سابقا ص ٢٣ تعليقة رقم ١

(٢) السبق الى الحكم قبل النظر وبالفرنسية Prévention وهو في نظر ديكارت

أدخل في احكامي الا مايتمثل امام عقلي في جلاء وتميز[1] ، بحيث لايكون لدي أي مجال لوضعه موضع الشك

الثاني : أن أقسم كل واحدة من المعضلات التي سأختبرها ، الى اجزاء على قدر المستطاع ، على قدر ماتدعو الحاجة الى حلها على خير الوجوه[2] .

الثالث : أن اسير افكاري بنظام ، بادئاً بأبسط[3] الامور وأسهلها

أول مصادر الخطأ ، ويقصد به أن يكون للمرء في بعض المسائل أحكام يأخذ بها قبل فحصها بعقله المستقل ، وهذه الاحكام اما أن تكون مأخوذة من زمن الطفولة عند ما يكون الاتصال بين النفس والبدن وثيقا جداً بحيث يكاد العقل لا يفكر في أبعد مما يحس البدن (انظر مبادىء الفلسفة ج ١ الفقرة ٧١) واما أن تكون تلك الاحكام السابقة للتفكير الشخصي مأخوذة عن السلف بالنقل دون نقد

(١) « أسمي المعرفة جلية اذا كانت حاضرة وظاهرة أمام نفس منتبهة » مبادىء الفلسفة ج ١ الفقرة ٤٥ . أما المعرفة المتميزة فهي ما كانت ذات حدود معينة بحيث لا تختلط مع غيرها ، ويرى ديكارت أن المعرفة تصح أن تكون جلية وغير متميزة مثل شعور المرء بألم موجع فان المعرفة هنا حاضرة وظاهرة ولكنها غير متميزة لاضطراب حكم المرء في طبيعة الالم ولكن العكس لا يصح (راجع المبادىء ج ١ فقرة ٤٦)

وتسمى تلك القاعدة الاولى بقاعدة اليقين

(٢) تسمى هذه القاعدة بقاعدة التحليل

(٣) البسيط هو ما ليس له أجزاء وهو اما يعرف كله أو يجهل كله (انظر القواعد[6] : الثانية عشر)

معرفة[1] كي أتدرج قليلا قليلا حتى أصل الى معرفة اكثرها تركيبا ؛ بل وان أفرض ترتيبا بين الامور التي لايسبق بعضها الآخر بالطبع

والاخير ، أن اعمل في كل الاحوال من الاحصاءات الكاملة والمراجعات الشاملة مايجعلني على ثقة من انني لم اغفل شيئا[2].

هذه السلاسل الطويلة من الحجج ، و كلها بسيطة وسهلة ، التي اعتاد

---

(١) هذا الاصطلاح « أسهل الامور معرفة » غامض عند أرسطو وفي العصور الوسطى وهو يفيد من جهة ، ما نعرفه أحسن معرفة ؛ ومن جهة أخرى أ كثر الامور قبولا للمعرفة مطلقا وبالطبع ، أو أكثرها قبولا للفهم (انظر روبان ROBIN الفكر اليوناني *La pensée grecque* ص٣٠٥ وكذلك برنشفيك BRUNSCHVICG الرياضة وما بعد الطبيعة عند ديكارت[17] . وهذه القاعدة الثالثة تسمى قاعدة التأليف أو التركيب .

(٢) تسمى تلك القاعدة بقاعدة الاستقراء التام Énumération وهو عند ديكارت ينحصر في « تحري كل ما يتصل بمسئلة ما ، وينبغي أن يُجتهد في ذلك التحري ويُعنى به بحيث يمكن أن يُستنبط منه بيقين أننا لم نهمل شيئاً بخطأ منا » القواعد القاعدة السابعة ومع أن ديكارت يطلق على تلك العملية اسم «الاستقراء» فانها في الواقع كما يقول هملان (ص٧٣) « قياس في طريق التكوين » . وهو يختلف عن الاستقراء القديم في أنه مع تأسيسه علاقات بين الحدود ا و ب وبين ب وج وبين ج ود وبين د وس يساعد على إقامة علاقة واحدة بين ا وس وبذلك يكون الاستقراء الديكارتي وسيلة لزيادة المعرفة والاستكشاف Ars inveniendi (راجع هانكان منهج ديكارت[2] ص ٧٧٢)

اصحاب علم الهندسة الاستعانة بها للوصول الى اصعب براهينهم ، يسرت لي ان اتخيل أن كل الاشياء ، التي يمكن ان تقع في متناول المعرفة الانسانية تتتابع على طريقة واحدة ، وانه اذا تحامى المرء قبول شيء منها على أنه حق مع انه ليس حقا ، واذا حافظ دائما على الترتيب اللازم لاستنباط بعضها من بعض ، فانه لا يمكن أن يوجد بين تلك الاشياء ما هو من البعد بحيث لا يمكن ادراكه ، او من الخفاء بحيث لا يستطاع كشفه . ولم يعنني كثيراً البحث عن الشيء الذي تدعو الحاجة الى البدء به ؛ لانني عرفت من قبل أنه يكون بأبسط الاشياء وأسهلها معرفة ؛ ولما لاحظت انه بين كل من بحثوا من قبل عن الحقيقة في العلوم ، ليس الا الرياضيين هم الذين استطاعوا أن يجدوا بعض البراهين ، اعني بعض الحجج الوثيقة اليقينية ، فانني لم اشك في انه بنفس تلك الاشياء كانوا يدرسون ؛ على اني لم آمل منها اي فائدة اخرى ، غير تعويدعقلي على أن يألف الحقائق ، وألا يقنع البته بالحجج الباطلة . ولكنني لم اعزم قط ، لاجل هذا ، على تعلم كل هذه العلوم الخاصة التي يسميها الجمهور بالرياضيات ؛ ولملاحظتي انه مع ان موضوعاتها متباينة [٢٠]
فانها تتفق جميعاً ، في انها لا تبحث الا عما فيها من النسب المختلفة او المقادير ، فكرت في انه خير ان اقتصر على درس هذه المقادير على العموم ، وألا افرضها إلا قائمة بالموضوعات التي تعين على تسهيل معرفتي لها بل من غير أن اقصرها عليها البتة كي تزيد قدرتي على تطبيقها فيما بعد على كل ما عداها من

الموضوعات التي توافقها[١] . ولما لاحظت بعد ذلك أنني ، لمعرفة تلك المقادير ، محتاج في بعض الاحايين الى أن اعتبرها كل واحد على حدة ، وفي احايين اخرى الى ان أكتفى بتذكرها ، او الى ان اجمع عددا كثيراً منها [في وقت واحد] ، فكرت انه لكي يحسن النظر في كل واحد منها على حدة وجب على أن افرضها خطوطاً [مستقيمة] ، لانني لم أجد شيئا ابسط منها ولم أقدر ان اعرض لخيالي وحواسي ما هو اكثر تميزا منها ، ولكن لاجل تذكرها ، او لجمع الكثير منها [في وقت واحد] ، وجب علي ان افسرها برموز أكثر ماتكون إيجازاً[٢] ، وبهذه الوسيلة ، استعير خير ما في التحليل

(١) « هذا هو العزم على درس النسب في ذاتها باستقلالها عن كل مادة تتعلق بها ، و ذلك ما سيؤدي بديكارت الى اختيار الخطوط كرموز للتعبير عن كل المقادير » جلسون التعليق ص ٢١٨ ومعنى هذا تفكير ديكارت في العلم الذي استحدثه و هو الهندسة التحليلية التي سيتحدث عنها في الصفحة الآتية

(٢) استعمل ديكارت حروف الهجاء كرموز موجزة للدلالة على الكميات المعلومة كما أنه أول من استعمل الحرفين س X و ى Y للدلالة على الكميات المجهولة . ونحن مع الذين يرون أن الاس كرمز رياضي يدل على المجهول الذي يطلب العلم به هو من أصل عربي ؛ لأن العرب كانوا يستعملون للاشارة الى ذلك المجهول كلمة « شيء » وأخذها عنهم الاسبان ، ولما لم يكن في لغة هؤلاء ما يقابل حرف الشين ، استعاضوا عنها بالسين x) انظر كازانوفا CASANOVA تعليم العربية في الكوليج ده فرانس ص ٢١ باريس سنة ١٩١٠ ومحمود الخضيري العرب والرياضة في مجلة الزهراء ج ٦ م ٤ شعبان ١٣٤٦

الهندسى والجبر، واصحح كل عيوب احدهما بالآخر [١]

وفى الحقيقة فاني استطيع ان اقول لان المراعاة الدقيقة لهذا العدد القليل من المبادىء الذي اخترته قدهونت علي كثيرا حل كل المسائل التي يتناولها هذان العلمان، حتى انه فى شهرين او ثلاثة مضيتها فى اختبارها، وكنت قد بدأت بأبسط الامور وأعمها، وكل حقيقة وجدتها كانت قاعدة اعانتني [٢١] فيما بعد على وجود اخرى، فانني لم انته فقط الى حل كثير منها كنت اجده فيما قبل معضلا جدا، بل بدا لى ايضاً قبيل النهاية، انني قادر ان احدد، حتى فى المسائل التي أجهلها، بأى الطرق، والى أي حد، يستطاع حلها، وفي هذا ربما لا أظهر لكم رجلا فارغا، اذا لاحظتم أنه ليس للشيء الواحد إلا حقيقة واحدة، فمن وجدها فقد عرف من هذا الشيء كل مايستطاع عرفانه، فمثلا اذا قام طفل تعلم الحساب بعملية جمع حسب قواعده، فانه يستطيع أن يثق أنه وجد فيما يختص بحاصل جمع المسئلة التي هو بصددها، كل مايستطيع العقل الانساني أن يجده. لأن المنهج الذي يعلم المرء اتباع الترتيب الصحيح، واحصاء كل الظروف بدقة في الشيء الذى يتحراه، يشتمل على كل ماجعل قواعد علم الحساب موثوقا بها

ولكن أكثر ماأرضانى من ذلك المنهج، هو ثقتى أنني بواسطته استعمل العقل في كل أمر، ان لم يكن على الوجه الأكمل، فعلى خير مافي

(١) لأن ديكارت باستحداثه الهندسة التحليلية بفضل تطبيق منهجه قد جمع بين مزية الهندسة بدرس الخطوط – وهذا تيسير للدرس لما فيه من استعانة بالخيال – و بين مزية الجبر بالايجاز في الرموز

استطاعتي على الأقل ؛ ذلك فوق أنني كنت أشعر في تطبيق ذلك المنهج أن عقلي كان يتعود شيئا فشيئا على تصور مايتصوره على وجه أشد وضوحا وأقوى تميزا ، وأنني إذ لم أقصر هذا المنهج على مادة معينة ، فقد كان لي الأمل أن أطبقه تطبيقا مفيدا أيضا على معضلات العلوم الأخرى كما فعلت بمعضلات علم الجبر [1] وليس معنى هذا أنني اقتحمت بادىء الرأي امتحان كل مايعرض من معضلات العلوم ؛ لأن هذا نفسه مخالف للنظام الذي يوجبه المنهج [2] . ولكن لما لاحظت أن مبادىء تلك العلوم يجب أن تكون مقتبسة كلها من الفلسفة ، التي لم أكن وجدت فيها بعد شيئا [٢٢] يقينيا ، فكرت في أنه يجب على أن أحاول أولا أن أقرر في الفلسفة أصولا يقينية ؛ ولما كان هذا أهم شيء ، والتهور والسبق الى الحكم قبل النظر أخوف مايخاف فيه ، وجب على ألا أصمم على المضي فيه مالم أبلغ من العمر سنا أنضج من سني يومئذ [3] وكانت ثلاثة وعشرين عاما ، ومالم أكن أنفقت قبلا زمنا كثيرا في اعداد نفسي له ، سواء كان ذلك بأن أنزع من عقلي كل الآراء الفاسدة ، التي كنت تلقيتها قبل ذلك ، أو بأن أجمع التجارب الكثيرة ، كي تكون فيما بعد مادة استدلالاتي وأن أروض نفسي دائما على المنهج الذي ألزمت نفسي به ليتزايد رسوخي فيه

(١) في النص اللاتيني « كما فعلت بمعضلات الهندسة أو الجبر » أعمال ديكارت الكاملة مطبوعة أدم وتانرى ج ٦ ص ٥٥٢

(٢) أي المبدأ الثالث المسمى بقاعدة التأليف (انظر جلسون التعليق ص ٢٢٦) (٣) يقصد شتاء ١٦١٩ حيث كان في منعزله وحيث اهتدى الى منهجه لاول مرة ، ومن المعروف أن ديكارت مولود سنة ١٥٩٦

القسم الثالث

ثم انه لما كان لا يكفي قبل البدء في تجديد المسكن الذي نقيم فيه أن نهدمه ، وأن نحصل موادّ العمارة والمعماريين ، أو أن نعمل بأنفسنا في العمارة ، وأن نكون عدا ذلك قد وضعنا له الرسم بعناية . بل يجب أيضاً أن يكون لنا مسكن آخر نستطيع أن نأوى اليه في راحة أثناء العمل في ذلك المسكن ، وكذلك ، لكي لا أظل متردداً في أعمالي ، حينما يجبرني العقل على ذلك في أحكامي ، ولكي لا أحرم نفسي منذ الآن من أسعد حياة أقدر عليها ، فانني وضعت لنفسي قواعد للأخلاق مؤقتة(١)

(١) أي غير نهائية . والحقيقة أن هذا التعبير أدى الى خلاف كبير بين مؤرخي الفلسفة الديكارتية ، لان ديكارت يقول في تنبيهه الذي صدر به المقال انه استنبط قواعد الاخلاق الواردة في القسم الثالث من منهجه ، وكذلك يقول في القسم السادس ص ٦١ انه يقيس أخلاقه على منهجه . على أنه يقرر هنا وفي أمكنة أخرى أن هذه الاخلاق مؤقتة . ويُعرّفنا مخطوط جو تنجن (وقد نشره لأول مرة الاستاذ أدَم سنة ١٨٩٦ ثم ظهر في الاعمال الكاملة في المجلد الخامس) بأن ديكارت كتب قواعده الاخلاقية وهو نادم وذلك خشية أن يتهمه المشتغلون بالعلم وغيرهم بأنه لادين له ولا ايمان ، وكذلك خشية أن يسيئوا فهم منهجه ، وقد كتب الى صديق له في أول نوفمبر سنة ١٦٤٦ يقول لو أنه وضع أخلاقاً نهائية لما أبقى له الناقدون راحة ما ، لان طبيعياته لم تنل القبول عند أولي الامر ، كما أن البعض اتهمه باللا أدرية لانه نقض أقوال اللاأدريين ، وقال عنه البعض الآخر

لا تشتمل إلا على ثلاث حكم أو أربع أدلي اليكم بها :

الاولى أن أطيع قوانين بلادي وعوائدها ، مع ثبات في محافظتي [٢٣] على الديانة التي أنعم الله عليّ بأن نشأت فيها منذ طفولتي ، وأن أحكم نفسي ، في كل أمر آخر ، تبعاً لأكثر الآراء اعتدالا ، وأبعدها عن الافراط ، والتي أجمع على الرضاء بها في العمل ، أعقل الذين سأعيش معهم . لانني ، لما بدأت منذ ذلك الحين ألا أقيم لآرائي الخاصة أي اعتبار - وذلك لأني أردت أن أختبرها جميعاً - أيقنت أنه ليس في استطاعتي أن أعمل خيراً من اتباعي لآراء أعقل الناس ، ومع أنه ربما كان بين الفرس

انه ملحد مع انه أثبت وجود الله ، وغير ذلك (انظر **الاعمال الكاملة** ج ٤ ص ٥٣٦)ومن المعروف أن ديكارت في تصنيفه للعلوم في مقدمته **لمبادىء الفلسفة**[٦] جعل الاخلاق في قمة العلوم وقال انها تستلزم معرفة كاملة للعلوم الأخرى ، ولما كان ديكارت لم يستطع اتمام طبيعياته ولا أن يطبقها على الميكانيكا والطب فانه لم يستطع وضع أخلاقه النهائية مع عنايته الكثيرة بعلم الاخلاق (راجع **هملان والكتاب المذكور قبلا**[٣] الفصل الرابع والعشرون وبوترو BOUTROUX **العلاقة بين الاخلاق والعلم في فلسفة ديكارت** في كتابه **دروس في تاريخ الفلسفة**[١٢] ص ٢٩٩ وما يليها) على أننا نعتقد أنه لو أتم ديكارت مذهبه في الاخلاق لما نقض ما كتبه في **المقال** ، و الذين قالوا ان ديكارت مال الى المذهب العقلي في الاخلاق فيما قاله عن الاخلاق بعد **المقال** لم يفطنوا الى أن ديكارت يفرق بين عمل العقل في العملي أي في الاخلاق وعمله في النظري مع تقريره دائماً أن طبيعة العقل تقتضي ذلك وهذا ماسيوضحه فيما يتلو من القسم الثالث

والصينيين من هم ذوو عقول كعقولنا ، فقد بدا لي أن الأنفع هو تدبير أمري تبعاً للذين أعيش معهم ، ولأجل أن أعرف ما هي حقيقة آرائهم ، كان واجباً علي أن أعنى بما يعملون لا بما يقولون ، ليس السبب في ذلك هو أن فساد أخلاقنا جعل قليلين يرضون أن يقولوا كل ما يعتقدون ، بل ولأن كثيرين يجهلون هم أنفسهم ما يعتقدون ، وذلك لأنه لما كان عمل العقل الذي به يعتقد المرء بشيء ما ، مخالفا لما به يعرف أنه يعتقد ، فكثيراً ما يوجد أحدهما بدون الآخر[1] ، ولم أتخير من بين الآراء الكثيرة المقبولة على سواء الا الأكثر اعتدالا . وذلك لأنها دائمًا أيسر في العمل ، ويرجح أن تكون هي الأحسن ، إذ أن كل افراط من دأبه أن يكون سيئاً ، وأيضاً لكي أكون أقل ميلا عن الطريق القويم عند الوقوع في الخطأ ، لا كما لو اخترت أحد المذاهب المتقابلة وكان الذي يجب أن أسلكه هو المذهب الآخر . واعتبرت على الأخص من بين [٢٤] مذاهب الافراط كل الأماني التي ينقص بها المرء شيئاً من حريته . ولم يكن ذلك لاستنكاري للقوانين التي - لكي تعالج زعزعة النفوس الضعيفة - تبيح عند حسن الغرض أو مراعاة لأمن التجارة ، اذ كان الغرض لا سيئاً ولا حسناً

---

(١) لان عمل النفس الذي نحكم به أن الشيء خير أو شر يتعلق بالارادة ، وأن العمل الذي نعرف به أننا حكمنا كذلك خاص بالعقل . وليس غريباً جداً أن تكون وظيفتان احداهما تتعلق بالعقل والأخرى بالارادة مختلفتين ، وأن احداهما تستطيع أن تكون بغير الأخرى » تفسير پيير سِلْفان رِجيس اقتبسه جلسون في تعليقه ص ٢٣٧ و ٢٣٨

أن يتقيد المرء بنذور أو عقود تضطره الى الثبات على ذلك ، ولكن ذلك لأنني لما لم أشاهد في العالم شيئاً يبقى على حالة واحدة ، وأنه لما كنت ـ فيما يختص بنفسي ـ آمل أن أزيد أحكامي كمالا ، لا أن أنقصها ، فقد رأيت أنني آتي خطأ فادحا مخالفاً للعقل ، إذا كان تحبيذي لامر في زمن ما يجعلني مضطراً لأن أعتبره أيضاً طيباً فما بعد ، عند ما قد تزول عنه هذه الصفة ، أو عند ما أكف عن اعتباره متصفاً بها

وكانت حكمتي الثانية أن أكون أكثر ما أستطيع جزما وتصميماً في أعمالي ، وألا يكون استمساكي بأشد الآراء عرضة للشك ، اذا ما صحت عزيمتي عليها أقل ثباتاً مما لو كانت من أشد الآراء وضوحا . أحتذي في هذا مثل المسافرين الذين يجدون أنفسهم قد ضلوا في بعض الغابات ، عليهم ألا يضربوا فيها التواء ، ههنا مرة ، وههنا مرة أخرى ، وشر من ذلك أن يقفوا في مكان واحد ، ولكن عليهم أن يسيروا دائما أكثر ما يستطيعون استقامة نحو جهة واحدة ، وألا يغيروا اتجاههم لأسباب ضعيفة ، ولو لم يكن الا مجرد اتفاق ، هو الذي جعلهم في باديء الامر يصممون على

[٢٥] اختياره ، لانه بتلك الطريقة ، فهم ان لم ينتهوا الى حيث يرغبون ، فهم يبلغون على الاقل بعض الأماكن التي يرجح أن يكونوا فيها خيراً مما لو ظلوا في وسط غابة . وكذلك فان أعمال الحياة ، لما كانت لا تحتمل غالباً تأجيلا ما ، فانها لحقيقة أكيدة جداً ، أنه إذا لم يكن في استطاعتنا تمييز أصح الآراء ، فان الواجب علينا اتباع أكثرها رجحاناً ، بل إذا لم نلاحظ تمايزا في الرجحان بينها ، فانه يجب علينا مع ذلك ، أن نتمسك

بعضها ، وألا نعتبرها بعد ذلك موضعاً للشك باعتبارها متصلة بالعمل ، بل علينا أن نعتبرها جد حقيقة ووثيقة ، لان العقل الذي ألزمنا بها هو نفسه كذلك . وهذا كان كافياً لتخليصي منذ ذلك الحين من كل ندم وتأنيب ، وهما ما يثيران في العادة وجدان النفوس الضعيفة المتقلبة التي تستسلم في غير ثبات الى العمل ما تعتبره صالحاً ، ثم تحكم فيما بعد بأنه سيء

وكانت حكمتي الثالثة أن أجتهد دائماً في أن أغالب نفسي لا أن أغالب الحظ ، وأن أغير رغباتي لا أن أغير نظام العالم ، وبالجملة أن أتعود الاعتقاد بأننا لا نقدر الا على أفكارنا ، قدرة تامة (١) ، بحيث أننا اذا فعلنا خير ما نقدر عليه ، فيما يختص بالامور الخارجة عنا ، فان كل ما ينقصنا بعد ذلك من أسباب النجاح ، هو بالنسبة الينا مستحيل على الاطلاق . وهذا وحده فيما بدا لي ، كان كافياً لأن يصدني عن الطمع في المستقبل في شيء لا أناله ، ولأن يجعلني راضياً (٢) ، لأنه لما كانت إرادتنا بطبيعتها لا تميل إلا إلى [٢٦] الاشياء التي يصور لها فهمنا أنها ممكنة بحال ما ، فمن المحقق اذن أنه اذا

---

(١) أفكارنا ملك لنا لانها تتبع تماماً ارادتنا الحرة

(٢) نرى في هذه الحكمة الثالثة مظهر التأثير الرواقي ، ولقد كان شائعاً في القرن السادس عشر ، فديكارت رواقي مثل أبطال روايات كورني Corneille. (انظر بوترو الكتاب المذكور قبلا ١٣ ص ٣٠٠) . والرأي المشهور هو أن ديكارت رواقي في اخلاقه ولكننا نرى رأي هملان الذي يقول انه ليس رواقياً كما تذهب الى ذلك كثرة أهل الرأي وانه يختلف عن الرواقيين فيما يأتي (١) يقول

اعتبرنا كل الخيرات الخارجة عنا تتساوى في تباعد من مثال قدرتنا ، فاننا لا نكون أشد أسفا على الحرمان من مزايا يبدو لنا أن ميلادنا استوجبها عند ما يكون حرماننا منها بغير خطأ منا ، أكثر من أسفنا على ألا تكون لنا ممالك الصين والمكسيك ، وكذلك اذا عملنا بما يدعونه فضيلة الضرورة ، فلن نرغب في أن نكون أصحاء ، اذا كنا مرضى ، أو في أن نكون أحراراً ، اذا كنا في سجن ، أكثر من رغبتنا الآن في أن تكون لنا أجسام من مادة فيها من قلة الاستعداد للفساد مثلما في الماس ، أوأن تكون لنا أجنحة نطير بها مثل الطيور . ولكني أعترف بأن المرء محتاج الى رياضة طويلة ، والى تأملات كثير تكرارها ، حتى يتعود على أن ينظر من هذه

الرواقيون بالجبر المطلق ونفي حرية الارادة (*)، بينما يثبت هو الحرية للارادة بل ان الارادة عنده تكاد ترادف الحرية (٢) ان الرواقيين يرون أن المرء يرزح تحت قوى الوجود وهم يعتبرون كل لذة حسيـة تراخياً وضعفا ، بينما يتفاءل ديكارت بالشهوات ويكثر التصريح بما فيها من خير (٣) ان فلسفة الرواقيين هي فلسفة استسلام بينما يدعو ديكارت في القسم السادس من **المقال** الى فلسفـة تجعلنا سادة الطبيعة وأربابها . (انظر **مذهب ديكارت**[٣] ص ٣٨٢ و ٣٨٣)

(*) يقول الاستاذ أحمد أمين في كتابه **الاخلاق** « . . . ففلاسفة اليونان كان بعضهم يرى أن الارادة حرة في الاختيـار كالرواقيين الخ » ص ٦٠ و ٦١ من الطبعة الثالثة : القاهرة ١٣٤٤ ـ ١٩٢٥ . والذى ينسبه الاستاذ للرواقيين ليس من مذهبهم لانهم كانوا يقولون بالجبر المطلق ونفي حرية الارادة (راجع جانيه وسياى JANET et SEAILLES **تاريخ الفلسفة** مسئلة الحرية ص ٣٣٠)

الوجهة الى كل الامور ، وانى لأعتقد أن في ذلك ينحصر سر هؤلاء الفلاسفة [١] ، الذين استطاعوا في زمن سالف أن يخلصوا من سلطان الحظ وأن ينازعوا آلهتهم السعادة [٢] ، رغم الآلام والفقر . لانهم باشتغالهم الدائم في تأمل الحدود التي فرضتها عليهم الطبيعة [٣] ، اقتنعوا تمام الاقتناع أنهم لا يقدرون إلا على أفكارهم ، وان اقتناعهم هذا كان وحده كافياً لمنعهم من أن تكون عندهم شهوة لأشياء أخرى . ولقد كانوا يتصرفون في أفكارهم تصرفا مطلقاً ، بحيث كان لهم بذلك حق في أن يعتبروا أنفسهم أغنى ، وأقوى ، وأكثر حرية ، وأسعد من أي انسان آخر لم تكن له تلك الفلسفة ، ومهما حبته الطبيعة والحظ بما في الامكان فهو لا يتصرف قط ذلك التصرف فى كل ما يريد [٢٧]

ثم رأيت نتيجة لهذا النظام الاخلاقى ، أن أختبر مشاغل الناس المختلفة فى هذه الحياة ، كى أجتهد في اختيار أفضلها، وبدون أي رغبة منى في أن أقول شيئا عن مشاغل الآخرين ، فكرت في أنني لا أقدر على خير من أن

---

(١) أي الفلاسفة الرواقيون

(٢) يعرّف السيد الشريف الجرجانى الفلسفة بأنها «التشبه بالإله بحسب الطاقة البشرية لتحصيل السعادة الأبدية » التعريفات ص ١١٣ طبعة استانبول ١٣٢٧ وهذا مطابق لقول الرواقيين الذين كانوا يرون أن الحكيم سعيد مثل الإله نفسه

(٣) أي النظام الذي أقامه الله في كل شيء في الوجود (راجع كتاب الى الاميرة اليزابت ١٨ اغسطس ١٦٤٥ في م ٤ ص ٢٧٣ من الاعمال الكاملة طبعة آدم و تانري)

أستمر في نفس ذلك الشغل الذى كنت فيه ، أي على أن أنفق كل حياتي في تثقيف عقلي ، وفي التقدم على قدر ما أستطيع ، في معرفة الحقيقة ، تبعا للمنهج الذي فرضته على نفسي . ولقد شعرت بلذات بالغة جداً ، منذ بدأت في أن آخذ نفسي بهذا المنهج ، لذات لا أعتقد أن من المستطاع أن يجد المرء ما هو أعذب منها ولا أطهر في هذه الحياة ، وبكشفي كل يوم بواسطته عن حقائق يبدو لي أنها ذات شأن وأن غيرى من الناس مشتركون في الجهل بها ، كان ما نلته من الرضاء ملء نفسي الى حد جعل ما بقي من الاشياء لا ينال مني منالا . وعدا ذلك فان الحكم الثلاث السابقة لم تكن مؤسسة إلا على مقصدي في أن أواصل تعليم نفسي : لأن الله منحه كلامنا بعض النور لتمييز الحق من الباطل ، لم أكن لأعتقد البتة في أنه يجب عليَّ أن أقتنع بآراء الغير لحظة واحدة ، لو لم أكن قد عزمت على استعمال حكمي الخاص في اختيارها ، في الوقت المناسب ، ولم أكن لأعرف أن أتخلص من الهواجس لدى اتباعها ، لو لم آمل ألا أضيع من أجل هذا ،
[٢٨] أي فرصة للوصول الى ما هو أفضل . ان كان هناك ما هو أفضل . ثم انني ما كنت لأعرف أن أُحدّ رغباتي ، أو أن أكون راضياً ، لو لم أتبع طريقا به ، وأنا أرى أنني واثق من تحصيلي لكل المعارف التي أنا أهل لها ، أرى نفسي كذلك بنفس الوسيلة واثقاً من تحصيلي ما هو في الحقيقة خير مما يدخل في طاقتي ، بحيث لا تميل ارادتنا الى طلب شيء ، أو الفرار منه ، إلا تبعاً لأن فهمنا يمثله لها طيباً أو خبيثاً ، ويكفي أن يجيد المرء الحكم لكي يجيد العمل ، وأن يحكم أحسن ما يستطيع ، ليسارع الى عمل أحسن ما

يستطيع عملا ، أي لكي يحصل على كل الفضائل وامعها كل الخيرات الاخرى التي يمكن تحصيلها ، وعند ما يتأكد المرء أن ذلك كائن ، فانه لا يعجزه أن يكون راضياً

وبعد أن استوثقت كذلك من هذه الحكم ، ووضعتها ناحية مع حقائق الايمان ، التي لها دائماً المنزلة الاولى في اعتقادي [1] ، حكمت بأن مابقي من آرائي ، هو أن أعمل على التخلص منها، ولما كنت عظيم الأمل في أن أستطيع الانتهاء من ذلك بمحاضرة الناس على وجه أحسن ، مما لو ظللت محبوساً في حجرتي التي وافتني فيها كل تلك الافكار ، فقد اخذت في السفر ولم ينته الشتاء بعد ، وفي السنوات التسع التالية كلها [2] لم أصنع شيئاً إلا الطواف هنا وهناك في العالم ، مجتهداً أن أكون فيه متفرجا لا ممثلا ، في كل المهازل التي تمثل فيه ، ولما كنت أخص تفكيري ، في كل شيء بما يمكن أن يجعله موضعاً للشك ، ويكون سبباً في خطئنا ، فانني انتزعت مع ذلك من عقلي كل الأخطاء التي استطاعت ان تتسرب اليه من قبل . وما كنت في ذلك [٢٩] مقلداً اللاأدرية [3] الذين لا يشكون الا لكي يشكوا ، ويتكلفون أن

---

(١) أي جنبها عن الشك المنهجي الذي يقول به التفكير النظري ولكنه يستبعده عند ما يكون الامر في صدد الدين أو الاخلاق

(٢) من سنة ١٦١٩ الى سنة ١٦٢٨ ولقد أفلح ، مع انهماكه في الاسفار كما يقول ، في تطبيق منهجه على بعض مسائل الطبيعيات والرياضيات (انظر هملان مذهب ديكارت ص ٤٧)

(٣) يختلف شك ديكارت المنهجي عن شك اللاأدريين في أنه لا يدوم بل

يظلوا دائماً حيارى ، فاني على عكس ذلك ، كان كل مقصدي لا يرمي الا الى اليقين ، والى أن أدع الأرض الرخوة والرمل ، لكي أجد الصخر أو الصلصال ، والذي نجحت فيه ، على ما يبدو لي ، بعض النجاح ، هو أنني لما اجتهدت في كشف البطلان أو الشك في القضايا التي كنت أمتحنها ، لا بفروض ضعيفة ، ولكن بحجج جلية ويقينية ، لم أجد في شيء منها ما كثر فيه الشك الى ألا استخلص منه نتيجة على حد من اليقين ، ولو لم تكن هذه النتيجة سوى أن القضية لا تحتوي على شيء يقيني ، وكما أن المرء وهو يهدم بيتا قديما ، يحافظ في العادة على أنقاضه كي تنفع في بناء بيت جديد ؛ كذلك فانني بنقضي كل ما حكمت عليه من آرائي بأنها آراء ضعيفة الاساس ؛ فانني كنت أقوم ببعض الملاحظات وأحصل تجارب كثيرة(١) ، أفادتني بعد ذلك في تأسيس آراء أكثر يقينا . وزيادة على ذلك ؛ واصلت رياضة نفسي على المنهج الذي فرضته على نفسي ، لأنه عدا أني عنيت بأن أوجه كل أفكاري على العموم تبعا لقواعده ؛ كنت أخصص بين حين وآخر ؛ بعض الساعات أنفقها على الخصوص في تطبيقه على بعض معضلات الرياضيات ؛ بل وأيضا

ينتهي عند الوصول الى اليقين بينما شك اللاأدريين دائم لاينتهي قط . (هملان الكتاب المذكور قبلا ٣ ص ١٠٨) ثم ان اللاأدريين يرون استحالة العلم لانهم يشكون في كل شيء حتى في انهم يشكون ، بينما ديكارت قبل مبادىء قوية لامكان العلم ، وهي ترجع جميعاً الى التسليم بوجود الله وأنه مصدر الصدق والخير وسيوضح ذلك في القسم الرابع

(١) في الطبيعيات والرياضيات ومن أهمها التحقيق التجريبي لقانون الانكسار

على بعض المعضلات الاخرى التي كنت أستطيع تحويلها الى ما يكاد يشبه معضلات الرياضيات ؛ وذلك بتخليصها من كل مبادىء العلوم الاخرى ، التي لم أجد فيها متانة كافية ؛ كما سترونني أفعل في كثير من العلوم المبسوطة في هذا السفر [1] وكذلك فاني من غير أن تكون حياتي في الظاهر مخالفة لحياة [٣٠] من ليس لهم شغل ؛ الا أن يقضوا حياة حلوة بريئة فانهم يجتهدون في أن يميزوا بين الملذات والرذائل ، والذين يلجأون الى كل الملاهي النزيهة لكي ينعموا بفراغهم دون ملل ، لم أغفل أن استمر في مطلبي ، وأن أستفيد في معرفة الحقيقة ، فائدة ربما كانت أكثر مما لو لم أفعل شيئاً غير قراءة الكتب أو التردد على أهل الأدب

وعلى كل حال فقد انقضت تلك السنوات التسع قبل أن أستقر على رأي في المعضلات التي هي في العادة موضوع نزاع بين العلماء [2] ، وقبل أن أبحث عن قواعد أي فلسفة أكثر يقيناً من الفلسفة الذائعة [3] . وان تجربة الكثيرين من أهل العقول الفائقة ، الذين التمسوا من قبل مطلبي ، ولم يفلحوا فيه على ما بدا لي ، جعلتني أتخيل فيه الصعوبة ، بحيث ربما لم أكن لأجرؤ على الشروع فيه بتلك السرعة ، لو لم أر أن البعض قد أذاعوا

---

(١) أي في مبحث انكسار الاشعة وعلم الانواء وهما موضوعان عالجهما ديكارت مع الهندسة وأصدر الثلاثة في كتاب واحد سنة ١٦٣٧ مع المقال

(٢) أي علماء العصور الوسطى

(٢) أي فلسفة العصور الوسطى المعتمدة على آراء أرسطو

أنني وصلت بالمطلب الى غايتي ، ولست أدرى على أى شيء أسسوا هذا القول ؛ وإذا كان لي اثر في هذا القول بأقوالى فلا بد أن ذلك كان في اعترافي - بما كنت أجهل - في سذاجة أصرح مما اعتاده الذين درسوا قليلا ، وربما كان ذلك أيضاً وأنا أبين أسباب شكي في كثير من الأشياء التي يعتبرها الآخرون يقينية ولم يكن في تمدحي بأى علم [فلسفى] ولكني اذ كنت من الشمم بحيث آبى أن يحسبني الناس على ما لست عليه رأيت وجوب الاجتهاد [٣١] بكل طريقة في أن أكون أهلا لما وهبني الناس من صيت ؛ وقد مرت ثمان سنوات كاملة منذ أن حملتني تلك الرغبة علي أن أبتعد عن كل الاماكن التي أجد فيها بعض من أعرفهم ؛ وأن أنزل هنا في بلد [1] وطد فيه طول استمرار الحرب [2] نظما [جيدة] ، حتى أن الجيوش التي يحتفظ بها في ذلك البلد تبدو كأنها لا تستخدم إلا في أن ينعم الناس بثمرات السلام في كثير من الطمأنينة ، وحيث استطعت في غمرة شعب كبير جم النشاط ، يعنى بأعماله أكثر من تطلعه الى أعمال الآخرين ؛ بدون أن أحرم أي رخاء مما يوجد في المدن الغاصة بالنازلين أن أعيش منفرداً ومنعزلا كما لو كنت في أقصى الصحاري



(١) المقصود هولندا

(٢) بدأت تلك الحروب بالثورة على اسبانيا طلباً للانفصال عنها سنة ١٥٧٢ وانتهت بمؤتمر مُنْستر Munster سنة ١٦٤٨ .

القسم الرابع

لست أدري ان كان يجب عليَّ أن احدثكم عن تأملاتي الاولى هناك [(١)]؛ لأنها أدخل في عالم المجردات [(٢)] وأبعد عن متناول الجمهور بحيث قد لا يسيغها ذوق الناس جميعا . ومع ذلك ، لكي يستطاع الحكم فيما اذا كانت الاصول [(٣)] التي اعتبرتها هي على قدر من الوثاقة كاف ؛ وجدتني شبه مضطر الى أن أتحدث عنها : لاحظت منذ زمان طويل أنه فيما يختص بالاخلاق [(٤)] ، فان المرء محتاج بعض الاحايين الى أن يتبع آراء يعرف أنها موضع للشك ، كما لو كانت لا تحتمل شكا ، وقد سبق القول في ذلك [(٥)] ولكن نظراً لرغبتي إذ ذاك في أن أفرغ للبحث عن الحقيقة ، رأيت أنه يجب علي

(١) في هولندا

(٢) في النص الفرنساوي Si métaphysiques وقد نقل جلسون عن معجم الاكاديمي الفرنسية (١٦٩٤) أن هذه الكلمة كصفة تفيد أحياناً معنى التجريد. انظر التعليق ص ٢٨٣

(٣) في النص اللاتيني « أصول فلسفتي »

(٤) في الفقرة الثالثة من الجزء الاول من المبادىء التي عنوانها « في أنه لا يجب علينا أن نستعمل هذا الشك في تصريف أعمالنا » يبسط ديكارت قولا شبيها بالذي يورده هنا

(٥) في الحكمة الثانية من الاخلاق المؤقتة في القسم الثالث من المقال

أن أفعل نقيض ذلك ، وأن أنبذ كل ما أستطيع أن أتوهم فيه أقل شك ، على أنه باطل على الاطلاق ، وذلك لأرى ان كان لا يبقى في اعتقادي بعد ذلك شيء لا يحتمل الشك . وكذلك لما كانت حواسنا تخدعنا [٣٢] أحيانا ، (١) أردت أن أفرض أنه ليس من شيء هو في الواقع كما تجعلنا الحواس نتخيله . ولأن من الناس من يخطئون في التفكير ، حتى في أبسط أمور الهندسة ، ويأتون فيها بالمغالطات (٢) ، فانني لما حكمت بانني كنت عرضة للزلل مثل غيري ، نبذت في ضمن الباطلات كل الحجج التي كنت أعتبرها من قبل في البرهان ، ثم لما رأيت أن نفس الافكار ، التي تكون لنا في اليقظة ، قد ترد علينا أيضاً ونحن نيام ، دون أن تكون واحدة منها إذ ذاك حقيقية (٣) اعتزمت ان أرى أن كل الامور التي دخلت الى عقلي ، لم تكن أقرب الى الحقيقة من خيالات احلامي . ولكن سرعان ما لاحظت أنه ، بينما كنت أريد أن أعتقد أن كل شيء باطل ، فقد كان حتما بالضرورة أن أكون أنا صاحب هذا التفكير ،

(١) يقول في التأملات الاولى «شاهدت بعض الاحايين أن هذه الحواس تخدعنا ، ومن الحزم ألا نثق البتة تمام الثقة في الذي يخدعنا مرة واحدة »

(٢) المغالطة قياس فاسد : إما من حيث مادته ، وإما من حيث صورته

(٣) الفرق لدى ديكارت بين الحلم واليقظة في حظهما من الحقيقة « أن الذاكرة لا تستطيع أن تصل الاحلام بعضها مع بعض ومع مجرى حياتنا كما هو شأنها في وصل الاشياء التي تحصل لنا ونحن في اليقظة » التأملات السادسة ١٢

شيئا من الاشياء . ولما انتبهت الى أن هذه الحقيقة : انا أفكر ، اذن فانا موجود [1] ، كانت من الثبات والوثاقة [واليقين] بحيث لا يستطيع

---

(١) ا . معنى التفكير . يقول ديكارت في التأملات الثانية[12] « إنني شيء مفكر Res cogitans . وما هو هذا الشيء المفكر ؟ إنه شيء يشك ويفهم ويثبت وينفي ويريد ولا يريد ويتخيل أيضاً ويحس » وكذلك يقول في التأملات الثالثة[22] « انني شيء يفكر ، أي يشك ، ويثبت ، وينفي ويعرف من الاشياء قليلا ويجهل منها الكثير ، ويحب ، ويكره ، ويريد ولا يريد ، ويتخيل أيضاً ويحس » ويقول أيضاً في ردوده على الاعتراضات الثانية[12] التعريف الاول « أعني بكلمة الفكر Pensée أو Cogitatio كل ما هو فينا بحيث نكون على وعي به مباشرة .. وهكذا فعمليات الارادة والفهم والخيال والحس هي أفكار ولكنني أوردت كلمة مباشرة عن قصد كي أبعد كل ما يتبع أفكارنا أو يعتمد عليها . فمثلا ، الحركة الارادية هي في الحقيقة فكر باعتبار مبدئها ، ولكنها ليست فكراً بذاتها » ويقول كذلك في الفقرة التاسعة من الجزء الاول من المبادىء[6] « أعنى بكلمة التفكير Penser ، كل ما يحصل فينا بحيث ندركه مباشرة بأنفسنا ، ولهذا فليس الفهم والارادة والخيال وحدها ولكن الحس أيضاً كلها تفكير » وبالجملة فالتفكير عند ديكارت معناه أن يكون المرء واعياً على العموم .

ب . القضية من الوجهة المنطقية . زعم جاسندي Gassendi أن أنا أفكر ، اذن فأنا موجود قياس ؛ وأن ديكارت أضمر مقدمته الكبرى وهي « وكل

اللاأدريون زعزعتها ، بكل ما في فروضهم من شطط بالغ ، حكمت أني أستطيع مطمئنا ان آخذها مبدأ أول للفلسفة التي أتحراها

ثم لما اختبرت بانتباه ما كنت عليه ، ورأيت أنني قادر على ان أفرض أنه لم يكن لي أي جسم ، وأنه لم يكن هنالك أي عالم ، ولا أي حيز أشغله ؛

مفكر موجود »* ؛ واذا كان الامر كذلك فلا يصح أن تكون تلك الحقيقة أنا أفكر اذن فأنا موجود مبدأ أول مادامت تعتمد على صحة المقدمة الكبرى المضمرة . على أن ديكارت أجاب عن ذلك الاعتراض بأن مبدأه ليس قياساً وانما هو بداهة أو « تبصر بسيط للنفس » ويرجع السبب في اعتبار ذلك المبدأ قياساً الى وجود كلمة اذن Ergo أو Donc فيه التي تستعمل عادة في القياس وقد حل اسپينوزا ذلك الاشكال باقتراحه التعبير عن هذا المبدأ بهذه العبارة *Ego sum cogitans* أي أنا مفكر (راجع هملان الكتاب المذكور قبل الفصل التاسع وكينو فيشر حياة ديكارت وعصره ومذهبه[١٠] ص ٤٠١ وما يليها وجلسون في تعليقه[٤] ص ٢٩٢ وما بعدها وبرنشفيك المقال المذكور سابقا[١٧] ص ٣١٥)

(*) يسمى ذلك النوع من القياس بقياس الضمير وهو بالفرنسية *Enthymème* « وهو قياس طويت مقدمته الكبرى إما لظهورها والاستغناء عنها كما جرت العادة في التعاليم كقولك خطا اب ، اج خرجا من المركز إلى المحيط فيلتنج أنهما متساويان وقد حذفت الكبرى وإما لاخفاء كذب الكبرى اذا صرح بها كلية كقول الخطابي هذا الانسان يخاطب العدو فهو اذاً خائن مسلّم للثغر ولو قال وكل مخاطب للعدو فهو خائن لشعر بما يناقض به قوله ولم يسلم » ابن سينا النجاة ص ٩١ طبع القاهرة ١٣٣١

ولكنني لست بقادر ، من أجل هـذا ، على أن أفرض ، أنني لم أ كن موجودا ؛ بل على نقيض ذلك ، فان نفس كوني أفكر في الشك في حقيقة الأشياء الأخرى ، يستتبع استتباعا جد واضح وجد يقيني أنني كنت موجودا ؛ في حين أنه لو كففت عن التفكير وحده ، وكان كل ما بقى[٣٣] مما فرضته حقاً، لم يكن لى مسوغ للاعتقاد بأنني كنت موجوداً[١] : ولقد

(١) التفرقة بين النفس والبدن . هذه الحجة التي أوردها هنا ديكارت لبيان استقلال النفس عن البدن ، أي لاثبات أن وجودها غير متوقف على وجوده يراها البعض مستمدة من القديس أوغسطينوس Augustinus وأول من قال بذلك هو الدكتور أرنولد ARNAULD في الاعتراضات الرابعة[١٢] ولكن ديكارت[١] لم يجب عليه في هذا الشأن بأ كثر من شكره على « المعونة التي أمده بها وذلك بتأييـده بحجة القديس أوغسطينوس » الردود على الاعتراضات الرابعة[١٢] وكذلك انظر كينوفيشر حياة ديكارت وعلمه ومذهبه[١٠] ص ٢٩٦ وما بعدها وجلسون فى تعليقه[٤] ص ٢٩٥ وما بعدها على أن القائلين بذلك لم يقولوا بأن ديكارت نقل عن القديس أوغسطينوس نقلا بل لم يزيدوا على ملاحظة بعض وجوه التشابه بين أفكار الفيلسوفين . وقد ظهر هذا التشابه ضئيلا جداً أمام البعض حتى أهمله ومن هؤلاء هملان الذي يقول « وجّه ديكارت جهده الى معضلة التفرقة بين النفس والبدن وذلك بتناوله المسألة في ذاتها واستعان لحلها بحجة لا تختص الا به Qui n'appartient qu'a lui » مذهب ديكارت[٣] ص ٢٥٤ وهو يقصد تلك الحجة التي نعلق عليها الآن لان لديكارت حجتين غيرها لا يجادل أحد في أنه استمدها من سابقيه (انظر المقدمة)

تابع الهامش .

على أننا نعتقد أن نفس حجة ديكارت التي يقول عنها هملان انها لا تختص الا به ، قد أوردها من قبله ابن سينا في الشفاء قال « فنقول يجب أن يتوهم الواحد منا كأنه خُلق دفعة وخلق كاملا لكنه حجب بصره عن مشاهدة الخارجات وخلق يهوي في هواء أو خلاء هويا لا يصدمه فيه قوام الهواء صدما ما يحوج إلى أن يحس وفُرّق بين أعضائه فلم تتلاق ولم تماس ثم يتأمل انه هل يثبت وجود ذاته فلا يشك في اثباته لذاته موجوداً ولا يثبت مع ذلك طرفا من أعضائه ولا باطنا من احشائه ولا قلباً ولا دماغاً ولا شيئاً من الاشياء من خارج بل كان يثبت ذاته ولا يثبت لها طولا ولا عرضاً ولا عمقاً ولو انه أمكنه في تلك الحال أن يتخيل يداً أو عضواً آخر لم يتخيله جزءاً من ذاته ولا شرطاً في ذاته . وأنت تعلم أن المثبت غير الذي لم يثبت والمقرب غير الذي لم يقرب فان للذات التي أثبت وجودها خاصية لها على أنها هو بعينه غير جسمه وأعضائه التي لم يُثبت فاذن المثبِت له سبيل الى ثبته على وجود النفس شيئا غير الجسم بل غير جسم وانه عارف به مستشعر له وان كان ذاهلا عنه يحتاج أن يقرح عصاه » ص ٢٨١ و ٢٨٢ من طبعة طهران . ويعود أيضا فيقول في نفس الكتاب « ولنُعد ماسلف ذكره منا فنقول : لو خلق انسان دفعة واحدة وخلق متباين الاطراف ولم يبصر أطرافه واتفق أن لم يمسها ولا تماست ولم يسمع صوتا جهل وجود جميع أعضائه ويعلم وجود إنيته شيئا مع جهل جميع ذلك وليس المجهول بعينه هو المعلوم وليست هذه الاعضاء لنا في الحقيقة الا كالثياب ... » ص ٣٦٣ . ويقول كذلك في كتابه **الاشارات والتنبيهات** عند الكلام على النفس الارضية والسماوية « ولو توهمت ذاتك قد خُلقت أول خلقها صحيحة العقل والهيئة وفُرض أنها على جملة من الوضع والهيئة بحيث لا تُبصرُ أجزاءها ولا تتلامس

تابع الهامش

أعضاؤها بل هي منفرجة ومعلقة لحظة ما في هواء طلق وجدتها قد غفلت عن كل شيء الا عن ثبوت إنيتها » ص ١١٩ من مطبوعة فورجيه Forget في ليدن سنة ١٨٩٢ وكذلك جاء في لباب الاشارات النمط الثالث في النفس الارضية والسماوية القسم الأول في البحث عن ماهية جوهر النفس :

« * (تنبيه) * المشار اليه بقولي أنا ليس بجسم ، لوجهين : الاول أن جميع الأجزاء البدنيـة في النمو والذبول والمشار اليه بقولى أنا باق في الاحوال كلها والباق مغاير لغير الباقي . الثاني : أني قد أكون مدركا للمشار اليه بقولى أنا حال ما أكون غافلا عن جميع أعضائي الظاهرة والباطنة فاني حال ما أكون مهتم القلب بمهم أقول أنا أفعل كذا وأنا أبصر وأنا أسمع وأنا جزء من هذه القضية فالمفهوم من أنا حاضر لى في ذلك الوقت مع اني في ذلك الوقت أكون غافلا عن جميع أعضائي والمشعور به غير ما هو غير مشعور به فأنا مغاير لهذه الأعضاء . وان شئت أمكنك أن تجعل هذا برهانا على أن النفس غير متحيزة لأني قد أكون شاعراً بجسمي أنا حال ما أكون غافلا عن الجسم فأنا وجب ألا يكون جسما »

وقد بين الاستاذ فورلانى FURLANI أن النصين اللذين اقتبسناهما من الشفاء كانا مترجمين الى اللاتينية وأن الفيلسوف غليوم أوفرني Auvergne قد نقلها عنه مع ذكر اسم ابن سينا . قال الاستاذ فالوا VALOIS في كتابه عن أوفرنى الصادر في باريس ١٨٨٠ عند الكلام عن الفكرة التي ينقلها هذا الاخير عن ابن سينا « توجد هذه التعبيرات تقريبا في المقال عينه الخارج » (انظر ابن سينا ومبدأ ديكارت أنا أفكر ، اذن فأنا موجود AVICENNA *Il Cogito, Ergo Sum di* CARTESIO في مجلة الاسلاميـات Islamica المجلد الثالث الكراسة الأولى ص ٥٣ — ٧٢ في ليبزج ابريل سنة ١٩٢٧)

عرفت من ذلك أنني كنت جوهرا [(١)] كل ما هيته [(٢)] أو طبيعته ليست إلا أن يفكر ، ولاجل أن يكون موجودا ، فانه ليس في حاجة الى أي مكان ولا يعتمد على أي شيء مادي . بحيث أن الانية ، أي [النفس] [(٣)]

---

(١) يقول ديكارت « عندما نتصور الجوهر ، فانما نتصور شيئا موجوداً بحيث لا يحتاج لأجل وجوده إلا إلى نفسه » **المبادىء** [٦] ج ١ الفقرة ٥١ وكذلك يقول : « يُسمى جوهراً كل شيء يقوم فيه مباشرة كأنه في موضوع ، ويوجد بواسطته شيء ما ندركه ، ومعنى ذلك أي خاصية ، سواء صفة أو نعت تحصل لها عندنا فكرة حقيقية » **الردود على الاعتراضات الثانية** [١٢] التعريف الخامس . ويميز ديكارت دائما بين الجوهر المفكر وهو النفس والجوهر المتحيز وهو الجسم على العموم

(٢) يستعمل ديكارت الماهيــة أو الطبيعة كمترادفين (أنظر جلسون **التعليق** [٤] ص ٣٠٥) . ويعني ديكارت بالماهيــة Essence « الشيء كما هو في العقل » نص اقتبسه من **الرسائل** لبارد في **تعليقه على المبادىء** [٦] الجزء الأول ص ٤٠ وهذا ما يطابق استعمال لفظة الماهية عند فلاسفة العرب

(٣) في النص الفرنسي وردت كلمة âme أي الروح ولكننا نقلنا هنا عن النص اللاتيني حيث جاءت كلمة Mens أي النفس ولم تأت كلمة Anima وهي ما تقابل في اللاتينية كلمة âme في الفرنسية . ولقد حدد ما يقصده بكلمة النفس في التعريف السادس من **الردود على الاعتراضات الثانية** [١٢] فقال :

« الجوهر الذي يحل فيه الفكر مباشرة يسمى هنا بالنفس . وأنا أقول هنا النفس Mens ولا أقول الروح Anima ، لأن الكلمة الاخيرة تدعو للبس ،

التي أنا بها ، هي متمازة تمام التمايز عن الجسم ، بل وهي أيسر أن تعرف [١]
وأيضاً لو لم يكن الجسم موجودا البتة لكانت النفس موجودة كما هي

اذ تطلق غالباً للدلالة على شيء جسمي . » (انظر جسلون التعليق[٤] ص ٣٠٧ و ٣٠٨) ويظهر أن هملان أخذ الكلمة âme كما وردت في المقال وقال ان ديكارت وقع باستعمالها في خلط كبير وكان عليه أن يستعمل كلة فكر أو معرفة بدلا من كلة روح (راجع مذهب ديكارت[٣] ص ١٠٦) . على اننا نعتقد أن خطأ ديكارت لغوي محض وعذره في ذلك حداثة عهد اللغة الفرنسوية في أيامه بالعلم ؛ والدليل على ذلك أنه لم يقع في نفس الخطأ في الترجمة اللاتينية التي راجعها وأقرها كما أن المترجم الفرنسي لكتابه المبادىء[٦] كثيراً ما يستعمل كلة Ame للدلالة على نفس المعنى المقصود في المقال . كما فعل في الفقرة الحادية عشرة من الجزء الأول

(١) هذا القول نتيجة منطقية لمبدئه أنا أفكر ، اذن فأنا موجود ولتعريفه النفس بأنها جوهر مفكر فالنفس إذن أسهل معرفة من البدن لأن البدن لا يمكن معرفته إلا بالنفس واذن فمعرفتها سابقة لمعرفته . وهو يقول للتدليل على ذلك في الفقرة الحادية عشرة من ج ١ من المبادىء[٦] « اذا كنتُ أقتنع أن هناك أرضاً لأني ألمسها أو لأني أبصرها ، فمن ذلك عينه ، وبدليل أقوى بكثير ، يجب عليَّ أن أقتنع بأن فكري كائن أو موجود ، حتى ولو جاز عدم وجود أرض ما في العالم وانه لا يمكن أن إنيّتي أي نفسي لا تكون شيئا ما حينما يحصل عندها ذلك الفكر » . ارجع أيضا الى التأملات الثانية[١٢]

بتمامها (١)

وبعد ذلك ، بحثت فيما يلزم للقضية كي تكون حقيقية ويقينية ؛ لأنني لما كنت وجدت قضية علمت أنها كذلك ؛ فكرت في أنه واجب عليّ أن أعرف مم يتكون هذا اليقين . لاحظت أنه لا شيء في هـذه القضية : **أنا أفكر ، اذن فانا موجود** ، يجعلني أثق من أني أقول الحق ، إلا كوني أرى بكثير من الجلاء أنه لأجل التفكير ، فالوجود واجب : قد حكمت بأنني أستطيع أن أتخذ قاعدة عامة ، أن الاشياء التي نتصورها تصوراً قوي الوضوح والتميز ، هي جميعا حقيقية ؛ غير أن هناك بعض الصعوبة في ان نبين ما هي الاشياء التي نتصورها متمايزة

وبعد ذلك ، فانني لما فكرت في شكوكي ، وأن مؤدى هذا أن ذاتي لم تكن تامة الكمال ، لانني تبينت أن المعرفة كمال أكبر من الشك ، رأيت أن أبحث أنى تعلمت ان أفكر في شيء أكمل مني ؛ وعرفت يقيناً أن ذلك

---

(١) يعتمد ديكارت في ذلك على المبدأ الذي أثبته في مذهبه وهو أن الاشياء التي نتصورها متمايزة جلية هي حقيقية وعلى ذلك فيفسر قوله بوجود النفس اذا فرض عدم وجود الجسم بما يأتي : (١) اثباته السابق على اننا عند اغفال الجسم نظل مدركين لوجودنا (انظر ص٥٢و٥٣) (٢) مادمنا ندرك الشيء جليا متميزاً فهو حقيقي لانه يستحيل على الله أن يخدعنا . (٣) التوحيد بين الحقيقة في الذهن وفي الاعيان كما كان يقول بذلك علماء العصور الوسطى (راجع مبادىء الفلسفة ج ١ الفقرة ٦٠ وما بعدها)

يجب أن يكون ذا طبيعة هي في الواقع أكمل [١] . أما ما كان عندي من [٣٤]
تفكيرات في اشياء كثيرة أخرى خارجة عني مثل السماء ، والارض ، والضوء ، والحرارة ، وألف شيء آخر ، فلم أتعب كثيراً في معرفة من أين جاءت ، ذلك لأني إذ لم ألاحظ فيها شيئا يجعلها في نظرى أسمى مرتبة مني ، استطعت ان أعتقد أنها ، اذا كانت حقيقية [٢] ، فانها من توابع طبيعتي ، من جهة أن طبيعتي لها شيء من الكمال ، وأن هذه الاشياء إن لم تكن كذلك ، فانني أكون استمددتها من العدم ، أي أنها كانت حاصلة عندي من جهة ما فيّ من نقص . ولكن الأمر لا يمكن ان يكون على هذا النحو فيما يختص بفكرة وجود أكمل من وجودي : لان استمداد تلك الفكرة من العدم ، أمر جلي الاستحالة ؛ لان التناقض الواقع في أن الاكمل يكون لاحقا وتابعا لما هو أقل كمالا ، ليس أقل من التناقض الواقع في انه يحدث شيء ما من العدم ، إذن فأنا لا أقدر أيضاً على ان أستمد هذه الفكرة من نفسي [٣] . وعلى ذلك بقي أن تكون هذه الفكرة قد ألقيت

---

(١) هذا نتيجة لمبدأ العلّية الذي يقبله ديكارت وهو « لا يكون في المعلول ما ليس في العلة » **الردود على الاعتراضات الثانية** ١٢

(٢) يعني بقوله حقيقية أن لها وجودا في الأعيان أى موجودة في الخارج

(٣) تصبح الفكرة التي يبسطها ديكارت في هذه الصفحة مفهومة وواضحة اذا فطنّا إلى مبدئين ديكارتيين أساسيين . الأول : أن ديكارت يبدأ دائما لا من الشيء في الخارج وإنما يبدأ من نفسه أى بمعرفته للشيء وتفكيره فيه اي أفكر *Cogito* . والثاني : أن للشيء وجودا عينيا (أي في الخارج بصرف

الي من طبيعة [١] هي في الحقيقة أكثر مني كمالا ، بل ولها من نفسها كل الكمالات ، التي أستطيع أن أتصورها ، واذا أردت التعبير بكلمة واحدة ، عن تلك الطبيعة فان المراد بها الله ، وأضفت الى ذلك انه بما أنني قد عرفت بعض الكمالات التى ليس لى شيء منها ، فانني لست الكائن الوحيد الذي في الوجود (وهنا سأستعمل بحرية، ان كان يرضيكم هذا ، كلمات المدرسة [٢]) بل يجب بالضرورة أن يكون هناك كائن آخر أكثر كمالا ، أنا تابع له ، ومن لدنه حصلت على كل ما هو لى [٣] ، لأنني لو كنت وحيداً ومستقلا عن كل ما هو غيرى بحيث كان لى من نفسي كل هذا القليل الذي أشارك [٤] [٣٥]
الذات الكاملة فيه ، لكنت اذن أستطيع أن أحصل من نفسي للسبب عينه

النظر عن الوجود في الذهن) بقدر ما له من الكمال . ويجب وصل هذين المبدئين بقانون العلية الذي يعبّر عنه بقوله « إن علة الوجود لأي شيء موجود بالفعل أو لأي كمال لشيء موجود بالفعل لا يمكن أن تكون لا شيء أو تكون شيئا غير موجود » البديهية الثالثة من ردوده على الاعتراضات الثانية [١٢]

(١) في النص اللاتيني « بواسطة كائن طبيعته كانت إلخ »

(٢) يقصد بقوله كلمات المدرسة اصطلاحات علماء العصور الوسطى التي لم تكن قد هضمتها اللغة الفرنسوية بعد (انظر جلسون التعليق [٤] ص ٣٣٢)

(٣) في النصّ اللاتيني « كلّ ما كان فيّ »

(٤) أى القليل من الكمال الذي ليس ذاتيا للانسان (أى ليس جزءا من ماهيته) ولكنه حاصل على جزء منه فهو يشارك الله في ذلك لأن الله حاصل على كل الكمال

على كل ما هو فوق ذلك مما أعرفه ينقصني (١)، وبذلك أكون أنا نفسي غير متناه (٢)، وأزليا أبديا (٣)، وغير متغير (٤)، وعالما بكل شيء، وقادرا على كل شيء، وقصارى القول أن تكون لي كل الكمالات التي أستطيع أن ألحظ

(١) يريد أن يقول إنه ليس علة لما له من القليل من الكمال

(٢) يعتبر ديكارت هذا الاصطلاح موجبا أي إنه ليس سلبَ متناهٍ بل يقول إن « متناه » هي سلب « غير متناه » وفي ذلك يقول « لا أستعمل البتة كلمة غير متناه للدلالة فقط على ما ليس له نهاية، وهذا ما يكون سالبا وقد أطلقت عليه كلمة غير محدَّد Indéfini، ولكن للدلالة على شيء حقيقي، أعظم، بدون موازنة، من كل الأشياء التي لها نهاية ما » من كتاب له الى بعض أصدقائه مقتبس في « معجم الفلسفة » للأستاذ لالاند في مقالة غير متناه Infini وفي التأملات الثالثة يقول إنه لا يستعمل كلمة غير متناه سلبا لكلمة متناه كما يستعمل كلمة السكون لنفي كلمة الحركة والظلام لنفي النور لأنه يوجد في الجوهر الغير المتناهي من الحقيقة أكثر مما يوجد في الجوهر المتناهي ولأن فكرة الغير المتناهي سابقة عنده لفكرة المتناهي إذ كيف يمكن أن يعرف أنه غير كامل ما لم يكن قد فكر من قبل في ذات أكمل من ذاته عرف بمقارنتها عيوب طبيعته

(٣) أزليّ أي لا يقدر العقل على تصور بداية له وأبديّ أي لا يقدر على تصور نهاية له والكلمة الفرنسية éternel تفيد معنى الكلمتين أي ليس له مبدأ في أوله كالقدم ولا انتهاء له في آخره كالبقاء وهذه صفة ينفرد بها الله لأنه لا يفتقر في وجوده إلى موجود آخر فوجوده ليس له ابتداء ولن يكون له انتهاء .

(٤) لأن الحركة والتغيّر لا يكونان للذات الحاصلة على كلّ الكمالات

أنها لله (١). لأنه تبعاً للاستدلالات التي أوردتها (٢)، فلكي أعرف طبيعة الله، على قدر ما تستطيع طبيعتي، فانه لم يكن عليّ الا أن أتأمل في كل الأشياء التي وجدت لها في نفسي صورة ذهنية هل في امتلاكها كمال أم غير كمال وقد أيقنت أن شيئاً مما يفيد النقص منها ليس لله، ولكن كل ما عدا ذلك ثابت له. وكذلك رأيت أن الشك، والتقلب، والحزن، وما شابهها من الامور، لم تكن لتكون فيه، اذ أنني أنا نفسي كنت أرتاح لأن أكون خالصاً منها. ثم انه عدا ذلك، فلقد كانت لي أفكار عن أشياء كثيرة حسية وجسمية، لأنه مهما فرضت أنني كنت في حلم، وأن كل ما شاهدت أو تخيلت كان باطلا، فانني لا أقدر على كل حال أن أنكر ان هذه الافكار كانت على الحقيقة في ذهني، ولكن لما كنت عرفت بوضوح كثير فيما مضى في نفسي أن الطبيعة العاقلة متمايزة عن الجسمية، وذلك باعتباري أن كل مركب يدل على تبعية (٣)، وان التبعية نقص بلا شك، فانني حكمت من هذا أنه لم يكن كمالا في الله أن يكون مركباً من هاتين الطبيعتين (٤)،

(١) عرّف ديكارت الله بقوله «أعني بالله جوهرا غير متناه، أزليا أبديا، غير متغير، مستقلا، عالما بكل شيء، قادراً على شيء، وهو الذي خلقني وخلق سائر الأشياء الأخرى (اذا كان يوجد منها حقيقة شيء ما)».

(٢) أي الخاصة باثبات وجود الله

(٣) «لأن أجزاء المركب يعتمد بعضها على البعض الآخر وأن الكلّ نفسه يعتمد على الأجزاء التي تكوّنه» جلسون التعليق ص ٣٣٩

(٤) أي العاقلة والجسمية

وعلى ذلك فهو لم يكن مركباً ، ولكن اذا كان في العالم بعض الأجسام ، أو بعض العقول (١) ، أو طبائع أخرى ، لم تكن تامة الكمال ، فان وجودها [٣٦] كان واجباً أن يعتمد على قدرته ، بحيث أنها جميعاً لم تكن لتقدر على أن تقوم بدونه لحظة واحدة (٢)

(١) « أي ملائكة أو إنسان » جلسون في المجلد المذكور

(٢) يقول ديكارت بنظرية الخلق المستمرّ فهو يرى أن حفظ الله للكائنات هو خلق وهذا راجع الى أنه يرى أن لحظات الزمن مستقل بعضها عن البعض الآخر فليس ينتج بالضرورة عن وجودي الآن وجودي في اللحظة التالية ما لم يشأ الله ذلك وإذن فالحفظ والخلق عنده شيء واحد . أنظر هملان مذهب ديكارت ٣ ص ١٩٣ و ٣٠٧ . وسنعود الكلام عن هذه النظرية في التعليق على القسم الخامس

ولقد بسط ديكارت حتى الآن دليلين لاثبات وجود الله فالأول يمكن إيجازه في القول بأنه استنبط من شكّه أنه غير كامل إذ أن المعرفة أولى بالكمال من الشك . ولكنه ما كان ليعرف أنه غير كامل لو لم تكن لديه فكرة الكمال وإذاً فلا بد من سبب لحضور تلك الفكرة في ذهنه إذ أنه لا ينتج شيء من لا شيء ويجب أن يحتوي هذا السبب على كمال وحقيقة أكثر مما في المسبب عنه . وهذا السبب ليس هو نفسه لأنه ليس كاملاً كما أنه ليس العالم الخارجي لأنه لم يثبت بعد حقيقة وجوده ولأنه حادث ولا يستطيع أن يقوم بنفسه . وإذن فهو ليس بكامل وإذن فليس السبب الا ذاتا لها كل الكمالات وهذه هي ذات الله. وأما الدليل الثاني وهو متصل بالأول فيتلخص في القول بأنه عرف أنه موجود وأنه غير كامل ولكنه يمتلك في ذهنه فكرة الكمال وقد عرف أيضا أنه ليس علة وجود

أردت بعد ذلك أن أبحث عن حقائق أخرى ، ولما كنت قد اخترت موضوع أصحاب الهندسة ، الذي كنت أتصوره جسما متصلا ، أو حيزاً لا يتناهي امتداده في الطول والعرض والارتفاع أو العمق ، قابلا للانقسام الى أجزاء مختلفة ، يمكن أن تتخذ أشكالا وأحجاما مختلفة ، وأن تحرك أو تنقل على جميع الوجوه ، لان أصحاب الهندسة يفرضون ذلك كله في موضوع علمهم ، فاني تصفحت بعض ما يستعينون به من أبسط براهينهم إذ لاحظت أن ما يعزوه اليها الناس من أنها جد يقينية ، انما يقوم على أنها يتصور بجلاء ، تبعاً للقاعدة التي ذكرتها غير بعيد [1] ، فانني لاحظت أيضاً أنه لا شيء فيها البتة يحملني على ثقة من وجود موضوعها [2] ، فانني

نفسه لأنه اذا كان هو العلة لوجود نفسه كان ممكناً أن يكون أكثر كمالا مما هو لأن الارادة تنزع دائما للخير الأعظم فيجب اذن أن تكون العلة لوجوده ذاتا لها كل الكمالات وهذه هي الله ، والأستاذ فيشر يسمي هذا الدليل بالدليل الانساني Anthropologische Beuveis ويراه أساسا للدليلين الآخرين أي الدليل الأول ويسميه بالدليل التجريبي Empirische والدليل الوجودي الذي سيتكلم عنه ديكارت عن قريب ويرى كذلك أنه « هو الدليل الديكارتي الحق لاثبات وجود الله » . انظر *حياة ديكارت وعمله ومذهبه*[1] ص ٣١٥ وما بعدها

(١) أي « ان الأشياء التي نتصورها بجلاء وتمايز كثيرين هي جميعا حقيقية »

(٢) أي « الجسم المتصل المتحرك الذي هو موضوع البراهين الهندسية » جلسون التعليق[4] ص ٣٤٧

مثلا أرى أنه اذا فرضت مثلثاً ، لزم أن تكون زواياه الثلاث مساوية لزاويتين قائمتين ، ولكن ليس في هذا ما يجعلني أستيقن أن في العالم مثلثاً ، ذلك على حين أنني عند ما عدت الى امتحان ما عندي من الصورة الذهنية لموجود كامل ، ألفيتُ أن الوجود كان داخلا فيها على الوجه الذي يدخل به في الصورة الذهنية لمثلث أن زواياه الثلاث مساوية لقائمتين ، أو كما يدخل في الصورة الذهنية لدائرة أن كل أجزاء محيطها متساوية البعد عن مركزها بل وهو أكثر من هذين وضوحا ، وينتج عن ذلك أن كون الله ، الذي هو هذا الموجود الكامل ، موجوداً هو على الاقل مساو في اليقين لخير ما يمكن أن يكون برهاناً هندسياً (١)

(١) أطلق كانت على هذا الدليل اسم الدليل الوجودي Ontologische Beweis فأصبح بعد ذلك معروفا بهذا الاسم (أنظر نقد العقل الخالص *Kritik der reinen Vernunft* الكلام في استحالة دليل وجودي على وجود الله ص ٥٩٢ وما بعدها من الطبعة الأولى سنة ١٧٨١ وص ٦٢٠ وما بعدها من الطبعة الثانية سنة ١٧٨٧) وجملة هذا الدليل أن الله كامل إذن فهو موجود لأن الكمال يتضمن الوجود كما يتضمن مفهوم المثلث أن زواياه الثلاث مساوية لزاويتين قائمتين . واعترض جاسندي على ديكارت بأن الوجود ليس كمالا . وأصل الاختلاف بينه وبين ديكارت أن ديكارت يبدأ كما نعرف من التفكير لاثبات الوجود أنا أفكر *Cogito* أي إن الوجود الخارجي عنده تابع للماهية أما عند جاسندي فالماهية منتزعة من الوجود العيني ، ويقول ديكارت انه يستحيل أن نتصور شيئاً له كل الكمالات وليس له وجود إذ أن التناقض ظاهر في ذلك . (راجع التأملات السادسة [١٢]) . على أن

[٣٧] ولكن السبب في أن الكثيرين يعتقدون بالصعوبة في معرفة ذلك ، بل في معرفة ماهي نفسهم أيضاً ، هو أنهم لا يرفعون عقولهم قط الى ما فوق الأشياء المحسوسة ، وأنهم تسودوا ألا يعتبروا شيئاً من الأشياء إلا

نقد كانت أقوى من نقد جاسندي فهو يقول « من البين أن الوجود ليس محمولا حقيقياً ، أي ليس تصوراً لشيء ما يمكن اضافته الى تصور لشيء Ein Begriff von irgend etwas, was zu dem Begriffe eines Dinges hinzukommen Konne » الكتاب المذكور ص ٥٩٨ من الطبعة الاولى و٦٢٦ من الطبعة الثانية و يفسر ذلك بأن الوجود هو مجرد الرابطة في الحكم أي ما يربط المحمول بالموضوع فقولك الله هو قادر على كل شيء قضية تشتمل على تصورين الأول الله والثاني قادر على كل شيء أما كلمة هو (وفي اللغات الاوربية يستعمل فعل الكينونة فهو في هذا المثال ist أي يكون ولما لم يكن في العربية هذا الاستعمال قلنا هو للدلالة على الحكم بدلا من الفعل يكون ist) فليست محمولا وانما هي تقيم العلاقة بين المحمول والموضوع . وعلى ذلك فهو يقول . إن القائلين باثبات وجود الله ، اعتماداً على تصورنا له ، هم بين أن يقعوا في التناقض المنطقي أو الدور . ذلك بأن تصور الله ، الذي هو موضوع القضية ، ان كان متضمناً للوجود ، فالاستدلال به على الوجود استدلال على الشيء بنفسه وهو الدور ؛ وان كان تصور الله خلواً من الوجود ، فالوجود اذن في المحمول فيكون أحدُ طرفيْ القضية المتساوية الطرفين متضمناً للوجود والطرف الآخر خلواً منه والحكم على هذا النحو تناقض في المنطق

ولكن هذا النقد انما يُتوجّه به على غير ديكارت (لان الدليل الوجودي كان معروفا قبل ديكارت) لان موضع هذا البرهان من مذهب ديكارت يحميه

إذا تخيلوه (١) وهذه طريقة في التفكير خاصة بالأشياء المادية ، حتى ان كل مالا يمكن تخيله يبدو لهم غير قابل لأن يفهم . وهذا بين من أن الفلاسفة (٢) أنفسهم يتخذون شعاراً لهم في المدارس أنه لا شيء في العقل لم يكن أولا في الحس (٣) ، ومع ذلك فانه ليقيني أن الصورتين الذهنيتين لله والنفس

لان مبدأ تحقق الاشياء عند ديكارت هو في العقل ، ولا معرفة يقينية عنده إلا ما ذهب من العقل الى الحس . ثم ان الوجود يصح أن يكون محمولا لانه ليس مستمداً من التجربة والحواس بل هو مستمد من العقل ، وهو يرى أنه « حينما نقول ان لازما تحتوي عليه طبيعة أي شيء أو تصوره ، فهذا كما لو نقول انه حقيقي لذلك الشيء أو ممكن اثباته له » الردود على الاعتراضات الثانية [٤٣] التعريف التاسع

ودفع تهمة وقوعه في الدور بقوله « . . إنني لم أقع في الخطأ الذي يسميه المناطقة بالمصادرة على المطلوب ، فان اعتبار الوجود من لوازم ماهية الله لا يزيد على اعتبار مساواة زوايا المثلث الثلاث مساوية لقائمتين » . من كتاب له اقتبسه هملان في مذهب ديكارت ص ٢١٣ . راجع للدفاع عن ديكارت ضد كانت وجاسندي هملان الكتاب المذكور ص ٢١٢ وما بعدها وجلسون التعليق [٤] ص ٣٤٧ وما بعدها وبرنشفيك الرياضة وما بعد الطبيعة عند ديكارت [١٧] ٣٠٨ وما بعدها

(١) انظر التعليق على كلمة الخيال في القسم الخامس

(٢) يقصد فلاسفة العصور الوسطى

(٣) إشارة الى الكلمة المشهورة في العصور الوسطى « لا شيء في العقل لم

[الناطقة] لم تكونا قط في الحس . ويبدو لي أن الذين يريدون أن يستعينوا على فهمها بخيالهم ، يفعلون كما لو أنهم أرادوا الاستعانة بعيونهم على سماع الاصوات ، أو شم الروائح . الا أن هناك هذا الاختلاف ، وهو أن حاسة البصر لا تؤكد لنا تحقق الامور التي يختص بادراكها ، أقل مما تفعل حواس الشم والسمع ، في حين أنه لا يستطيع خيالنا ولا حواسنا أن تجعلنا نتأكد من شيء ، اذا لم يتوسط عقلنا في ذلك

وأخيراً ، اذا كان هناك بعدُ من الناس من لم يقتنعوا اقتناعا كافياً بوجود الله ووجود أنفسهم ، بالحجج التي أوردتها ، فاني أريد أن يعرفوا أن كل الأشياء الاخرى التي يرون أنهم أكثر وثوقا بها ، وذلك مثل أن يكون للمرء جسم ، وأن توجد الكواكب والأرض ، وما شابهها من الامور ، هي أقل ثبوتاً ، لأنه مع أن للمرء [– كما يقول الفلاسفة –] ثقة

Nihil est in intellectu quod prius non fuerit in sensu يكن أولا في الحس

وكان هذا المذهب معروفا عند العرب ومن أنصاره أبو حامد الغزالى الذي يعبّر عنه بقوله « لا يحلّ في العقل إلا ما يحلّ في الحس » تهافت الفلاسفة طبعة القاهرة ١٣٢١ ص ٧٨ ويقول الاستاذ فورلانى FURLANI إن هذه الكلمة انتقلت إلى أوربا عن طريق العرب . انظر مقالته المذكورة سابقا ابن سينا ومبدأ ديكارت أنا أفكر اذن فأنا موجود في مجلة islamica المجلد الثالث الكراسة الأولى ص ٦٨

[٣٨] أخلاقية (١) بهذه الأشياء ،التي يبدو معها أن المرء لا يقدر على الشك فيها إلا اذا كان مسرفاً ، ومع ذلك أيضاً ، فعند ما يكون المرء بصدد يقين ميتا فزيقي (٢) ، فانه لا يقدر ،الا اذا كان محروماً من العقل ،على انكار أنه يكفي علة لنفي كمال اليقين ، أن يلاحظ أنه من المستطاع على هذا الوجه أن يتخيل النائم ، أن له جسما آخر ، وأنه يبصر كواكب اخرى ، وأرضاً أخرى ، دون أن يكون من ذلك شيء . لأنه من أين للمرء أن يعرف أن الفكر التي ترد اليه في الحلم هي أقرب الى البطلان من الفكر الاخرى ، مع أنها في أكثر الأحايين ليست أقل قوة ووضوحا ، ومع أن خيرة العقلاء يبحثون فيها ما شاءوا ثم لا يستطيعون ـ فيما أعتقد ـ أن يقيموا حجة واحدة كافية لنزع هذا الشك ، ما لم يفرضوا قبلاً وجود الله . أولا : لأن هـذا الذي

(١) يفسّر ديكارت ذلك بقوله « . . سوف أميّز هنا بين نوعين من اليقين الأول يُسمّى أخلاقيا ، أي كافيا لتدبير شئوننا الخلقية ، أو هو مثل يقيننا بالأشياء التي تمسّ السلوك في الحياة التي لم نعتدْ قط أن نشكّ فيها ، مع أننا نعرف أنه قد يجوز أن تكون باطلة على الاطلاق . وهكذا فان الذين لم يذهبوا البتة إلى رومة لا يشكون في أنها مدينة في إيطاليا ، مع أنه يجوز أن كلّ الذين عرفوهم بها ربّما خدعوهم . . وأما اليقين الثاني فهو عندما نرى أنه يستحيل أن يكون الشيء غير ما نحكم به » من **مبادىء الفلسفة** اقتبسه جلسون في تعليقه ٤ ص ٣٥٨

(٢) هذا هو النوع الثاني من اليقين الذي تكلم عنه في النص الذي اقتبسناه من **مبادىء الفلسفة**

قررته ، هو الذى اتخذته غير بعيد قاعدة ، أي ان الأشياء التى نتصورها جدّ واضحة وجد متمايزة هي جميعاً حقيقية ؛ هذا الذى جعلته أولا قاعدة ليس ثابتاً إلا لان الله كائن أو موجود ، وأنه ذات كاملة ، وأن كل ما فينا يصدر عنه(١)

ويتبع ذلك أن صورنا الذهنية ومعارفنا لما كانت موجودات خارجية(٢)

---

(١) هذا ما يسمّى بالسّند الإلهي لصحة الحقائق التي نتصورها بتمايز وجلاء فان الله لما كان له كل الكمالات يستحيل عليه أن يخدعنا (انظر المقدمة)

(٢) ترجمنا في هذا القسم كلمة idée بكلمة صورة ذهنية لتميّز معناها عند ديكارت عن معنى كلمة صورة لأن الصورة من إدراكات الخيال وهي ما لا بد لوجوده من مادة أو جسم بينما يقصد ديكارت بالصورة الذهنية ما يتضح من قوله « أعني بكلمة الصورة الذهنية مثال الشيء الذي بحضوره في نفس المُدرِك يعرف الشيء ، بحيث لا أستطيع أن أعبر عن أمر من الأمور بألفاظ ، عند ما أفهم ما أقول ، إلا كنت بنفس التعبير مثبتا أن الأمر الذي تعبّر عنه الألفاظ متمثل في نفسي . وهكذا فأنا لا أدعو الصور الحسية المنقوشة في الخيال باسم الصور الذهنية ، بل بالعكس فأنا لا أدعوها قط بهذا الاسم ما دامت في الخيال اي ما دامت منطبعة في بعض أجزاء المخ ، ولكنني أدعوها بذلك حينما تُحصِّل علما للجانب العقلي الذي يعنى بهذا الجزء من المخ » الردود والاعتراضات الثانية ١٢ التعريف الثاني

ومما يجب الانتباه اليه أن للصورة الذهنية عند ديكارت وجودا حقيقيا ويسميها أحيانا موجودات ذهنية *res cogitata* . والصورة الذهنية حقيقية الوجود

صادرة عن الله فهي بما هي به واضحة متمايزة ، لا يمكن أن تكون إلا حقيقية بحيث أنه ، اذا كان كثيراً ما يكون في تلك الصور الذهنية أو المعارف ما يحتوي على بطلان ، فذلك لا يمكن أن يكون إلا في ما كان منها محتويا على شيء ذي غموض وابهام ، فانها في هذا تشارك العدم ، أعنى أنها ليست فينا بهذه المثابة من الغموض الا لأن كمالنا ليس تاما من كل وجه . وظاهر أن التناقض في أن البطلان أو النقص يصدر عن الله ، بهذا الاعتبار ، ليس أقل من [٣٩] التناقض في أن الحقيقة أو الكمال يصدر عن العدم . ولكن اذا لم نعرف أن كل ما فينا من واقعي وحقيقي ، يأتى من ذات كاملة وغير متناهية ، فمهما كانت صورنا الذهنية من الوضوح والتمايز ، فلن يكون لنا أي دليل يجعلنا نستيقن أنه كان لها كمال كونها حقيقية (١)

ولكن بعد أن جعلتنا معرفة الله والنفس على ثقة من تلك القاعدة (٢) ، فمن السهل أن نعرف أن الاحلام التي نتخيلها أثناء النوم ، لا ينبغي في شيء

من وجهين الأول باعتبارها كيفية للجوهر المفكر ، والثاني لأنها مثال لحقيقة خارجية (انظر التعريف الثالث الردود على الاعتراضات الثانية [١٢] وانظر جلسون في التعليق [٤] ص ٣١٨ ـ ٣٢١)

(١) يعتمد في ذلك على القول بأن الحقيقة تنحصر في الوجود والبطلان ينحصر في عدم الوجود ، وإذن فاذا كانت هناك فكرة باطلة فذلك لأنها غير موجودة

(٢) أى « إن كل ما نتصوره بوضوح وتميز هو حقيقي »

أن نجد الشك في صحة الفكر التي تحصل لنا ونحن في اليقظة . لانه إذا حدث ، حتى أثناء النوم .أن وردت على المرء صورة ذهنية متمايزة جداً، كأن يهتدى أحد أصحاب علم الهندسة الى برهان جديد ، فلا يمنع نومه أن يكون برهانه صحيحاً . أما فيما يختص بالخطأ الا كثر وقوعاً في أحلامنا ، وهو ينحصر في أن الاحلام تصور لنا أمورا مختلفة كما تفعل حواسنا الظاهرة ، فليس مهماً أن يكون ذلك الخطأ سبباً في الارتياب في صحة مثل هذه الصور (١) [التي تتلقاها أو نستطيع تلقيها من الحواس] ، وذلك لأنها تقدر أيضاً على خداعنا في أحايين كثيرة ، دون أن نكون في النوم : ومثال ذلك أن الذين يصابون بمرض اليرقان ، يبصرون كل شيء أصفر اللون ، وكذلك فان الكواكب والاجرام الاخرى النائية جداً تظهر لنا أصغر بكثير مما هي . ثم انه سواء كنا في يقظة أو كنا في نوم ، لا يلزمنا أن نقتنع بأمر ما إلا بيقين عقلنا . ويجدر بالملاحظة أنني أقول عقلنا ، ولا [٤٠] أقول قط خيالنا أو حواسنا (٢) . وكذلك فمع اننا نرى الشمس واضحة جدا ، فانه لا يلزمنا من أجل هذا أن نحكم بأنها ليست من الحجم الا كما نراها ، ونحن نستطيع أن نتخيل في تمايز رأس أسد مركباً على جسم عنز

---

(١) في النص الفرنسي كلمة idées ونرى أنها تترجم هنا بالصور لأنه يتحدث عن الحواس كما أنه حددها بالجملة التي وردت في النص اللاتيني زائدة على النص الفرنسي

(٢) انظر التعليق على كلمة الخيال في القسم الخامس

دون أن يلزمنا أن نستنتج من هذا ، ان في العالم هذا الحيوان الخرافي : لان العقل لا يملي علينا أن ما نراه أو نتخيله كذلك هو حقيقي . ولكنه يملي علينا أن كل ما يحصل عندنا من صور ذهنية ومعارف يجب أن يكون لها أساس من الحقيقة ، لان الله الذي هو تام في كماله وفي ثبوته لم يكن ليضعها فينا لولا ذلك . ولان استدلالاتنا أثناء النوم لا تكون قط من اليقين والكمال بمثل حالتها في اليقظة ، وان كانت خيالاتنا تكون أحياناً اذ ذاك في نفس القوة والوضوح ، أو اشد فان العقل يملي علينا أيضاً أن فكرنا لما لم يكن ممكنا أن تكون جميعاً حقيقية ، لاننا لسنا على كمال مطلق ، فان ما فيها من حقيقة أولى أن يكون حتما في الفكر التي تحصل عندنا ، ونحن في اليقظة لا في أحلامنا

القسم الخامس

قد أرتاح لان أستمر هنا في تبيين سلسلة الحقائق الأخرى التي استنبطتها من هذه الأولى . ولكن لما كان تحقيق هذا الغرض ، يحتاج الى ان أتكلم الآن في مسائل كثيرة هي موضع اختلاف بين العلماء (١) الذين لا أريد ان أحشر نفسي في جمهم ، فاني أعتقد أن الأفضل ان أكف عن ذلك الكلام ، وان أقتصر على القول على العموم ما هي تلك الحقائق ، كي أفسح المجال لمن هم أكثر حكمة حتى يقرروا ان كان من المفيد ان يعرف عنها [٤١] الجمهور (٢) شيئاً أكثر تفصيلا ظللت دائما مصمما على العزم الذي اعتزمته ، ألا أفرض مبدءاً آخر غير الذي أخذت به غير بعيد في الاستدلال على وجود الله والنفس ، وألا أقبل شيئاً على أنه حق ، ما لم يظهر لي أنه أكثر وضوحاً وتوكداً من براهين أصحاب الهندسة من قبل . وعلى كل حال فانني أجرؤ على القول ، بأنه ليس الذي وجدته هو مجرد سبيل يسد حاجتي في قليل من الزمن ، في كل أصول المعضلات التي تعالج عادة في الفلسفة (٣) ، ولكنني لاحظت أيضاً بعض القوانين ، التي أقامها الله في الطبيعة ، والتي طبع

(١) يقصد بالعلماء علماء العصور الوسطى . أما المسائل التي لا يريد أن يحشر نفسه في زمرة العلماء الذين يتجادلون فيها فهي تختص بالطبيعة وخصوصا مسئلة حركة الارض (راجع هملان مذهب ديكارت٣ ص ٢٦)

(٢) في النص اللاتيني « جمهور المتأدبين »

(٣) أى في الطبيعيات المعروفة في العصور الوسطى جلسون التعليق٤ ص ٣٧٢

في نفوسنا من معارفها (١) ، بحيث أنه بعد التفكير فيها تفكيرا كافيا ، لا نقدر على الشك في أنها روعيت بدقة في كل ما هو موجود ؛ أو كل ما يحدث في العالم . وبعد ذلك فبالتفكير في تسلسل تلك القوانين بدا لي أنني استكشفت حقائق كثيرة أنفع وأهم من كل ما تعلمته من قبل ، بل ومن كل ما أملت أن أتعلمه.

ولما كنت قد اجتهدت في شرح أصول تلك الحقائق في رسالة منعتني بعض الاعتبارات عن إذاعتها (٢)، فانني لا أقدر على التعريف بها أكثر من ان أذكر هنا بإيجاز ما تحويه هذه الرسالة . وكان غرضي أن أضمنها كل ما كنت أرى أنني أعرفه قبل كتابتها ، مما يتصل بطبيعة الاشياء المادية . ولكن كما أن المصورين لما كانوا لا يقدرون على ان يمثلوا بالتساوي على لوح ذي سطح واحد كل الوجوه المختلفة لجسم صلب ، فانهم يختارون أحد الوجوه الرئيسية يضعونه وحده نحو الضوء ، ويظللون الوجوه الأخرى ، بحيث لا تظهر [٤٢] إلا على مقدار ما يمكن رؤيتها عند النظر الى هذا الوجه ؛ كذلك لما كنت أخشى ألا أقدر على أن أضع في مقالتي (٣) كل ما في ذهني ، فانني عملت على

(١) أي إنها موجودة في نفوسنا بدون كسب أو تحصيل

(٢) يقصد كتابه العالم الذي سيتحدث عنه كثيراً في هذا الفصل وكان قد بدأ الكتابة فيه في أواخر عام ١٦٢٩ (انظر كتابه الى مرسن Mersenne في ١٨ ديسمبر سنة ١٦٢٩ في الأعمال الكاملة ج١ ص٨٤)

(٣) يقصد أيضا كتابه العالم

ان أعرض في هـذه الرسالة عرضا جداً مفصل ما كنت أتصوره من معنى الضوء؛ ثم أزيد بهذه المناسبة شيئاً عن الشمس، وعن الكواكب الثابتة، لان الضوء كله يكاد يصدرعنها؛ وعن السموات لانها هي التي تنقله، وعن السيارات وذوات الأذناب وعن الارض، لانها هي التي تعمل في انعكاسه؛ وخصوصا عن كل الاجرام التي فوق الارض، لانها إما ملونة، أو مشفة، أو مضيئة؛ وأنتهي بالانسان لانه الناظر الى كل تلك الاشياء. بل، ولكي أظلل كل هذه الاشياء قليلا، ولكي أستطيع في حرية ان أقول حكمي فيها دون ان أكون مرغما على اتباع الآراء المتداولة بين العلماء [1] أو نقضها، فانني اعتزمت ان أترك كل هذا العالم، لمجادلات هؤلاء العلماء، وألا أتحدث إلا عما يحصل في عالم جديد، لو أن الله خلق الآن في جهة ما، في الامكنة الخيالية، مادة كافية لتكوينه، ولو أنه حرك حركة مختلفة، وعلى غير نظام الاجزاء المختلفة لهذه المادة، بحيث أنه يكون منها خليطا [2] هو من الاضطراب كما يستطيع أن يتوهم الشعراء، ولا يفعل بعد ذلك شيئا إلا ان يعير الطبيعة مدده العادي [3]، وان يدعها تعمل تبعاً للقوانين التي أقامها. وكذلك، فاني أولا، وصفت هـذه المادة واجتهدت ان أمثلها على وجه ألا يكون

(١) أي فلاسفة العصور الوسطى وعلماء اللاهوت فيها

(٢) الكلمة الفرنسية هي Chaos والمقصود بها المادة التي لاصورة لها

(٣) « معنى هذا في لغة علم أصول الدين في العصور الوسطى، العمل الذي لا يفعل به الله غير حفظه للعالم بقوانينه، حفظا مستقلا عن التدخلات الخارقة للعادة التي يغير بها المجرى العادي للطبيعة » جلسون التعليق ص ٣٨٤

شيء في العالم فيما أرى أكثر منها وضوحا ولا قبولا للفهم منه، حاشا الذي ذكر آنفا عن الله وعن النفس : ذلك بأني فرضت أيضاً عن قصد أنه ليس [٤٣] في هذه المادة شيء من هذه الصور أو الصفات التي يتجادلون فيها في مدارس العصور الوسطى، وليس فيها على العموم شيء ليست معرفته طبيعية بالنسبة لعقولنا، الى حد أنه لا يستطاع حتى ادّعاء الجهل بها. وفضلا عن ذلك، بينت قوانين الطبيعة، وبدون ان أؤسس استدلالاتي إلا على مبدأ كمالات الله غير المتناهية، فاني حاولت ان أثبت بالبرهان كل القوانين التي أمكن ان يشك فيها بعض الشك، وان أبين أنها بحيث لو أن الله خلق عوالم كثيرة، فلا يكون فيها واحد لا تراعى فيه تلك القوانين. وبعد ذلك، بينت كيف ان أكبر جزء من مادة هذا الخليط، كان ينبغي تبعا لتلك القوانين ان ينتظم ويترتب على هيئة معينة تجعله مشابها لسماواتنا، وبينت أيضاً كيف أن بعض أجزائه كان ينبغي مع ذلك ان يؤلف أرضا، وأن البعض الآخر كان ينبغي ان يؤلف سيارات وكواكب من ذوات الاذناب، والبعض الآخر شمسا وكواكب ثابتة. وهنا توسعت في موضوع الضوء، ففسرت باطناب كثير ما هو ذلك الضوء الذي ينبغي ان يوجد في الشمس وفي الكواكب، وكيف اذا بدأ من هناك يخترق في لحظة واحدة [1] مالسموات من أمكنة شاسعة، وكيف ينعكس من السيارات وذوات الاذناب على

(١) هنا يغفل ديكارت أن انتقال الضوء هو حركة تستغرق من الزمان بحسب المسافة التي يقطعها من المصدر الى نقطة الوصول

الارض . وزدت على ذلك أشياء كثيرة، تختص بالجوهر ، وبالأين [1] وبالحركات ، وبكل الصفات المختلفة لهذه السموات وهـذه الـكواكب ، بحيث رأيت ان فيما ذكرته كفاية للتعريف بأنه لا يشاهد في سماوات هذا العالم وكواكبه شيء لا يلزمه ، أو لا يمكنه على الأقل أن يظهر مشابها كل المشابهة لسماوات العالم الذي وصفته وكواكبه ، ثم انتقلت من ذلك الى قول [٤٤] مفصل عن الارض : كيف أن كل أجزاء الارض مع أنني فرضت فرضا صريحا أن الله لم يضع أي ثقل [2] في المادة التي تتركب منها ، تميل نحو المركز ميلا متعادلا ، وكيف أنه لما كانت المياه والهواء فوق سطحها ، فان وضع السماوات والكواكب ، لا سيما وضع القمر ، كان ينبغي أن يسبب على سطح الارض مدا وجزرا ، شبيهين في كل أحوالهما بالمد والجزر اللذين يلاحظان في بحارنا ، وعدا ذلك فانه يسبب مجرى معينا من الماء ومن الهواء من الشرق الى الغرب على حد ما يلاحظ بين المدارين ، وكيف استطاعت الجبال والبحار ، وعيون الماء والانهار ان تتكون فيها بالطبيعة ، وأن تحصل فيها المعادن داخل المناجم ، وان تنمو النباتات في المزارع ، وان تتولد فيها على العموم كل الاجسام التى نسميها مخلوطة أو مركبة . ومن بين أشياء أخرى ، لما كنت لا أعرف بعد الكواكب شيئاً في العالم ينتج الضوء إلا النار ، اجتهدت ان أوضح تمام الوضوح كل ما يتصل بطبيعتها ، وكيف تحدث وكيف تتغذى ، وكيف لا يكون لها بعض الاحايين إلا حرارة بدون ضوء ، وفي أحايين

(١) أي حلول الجسم في المكان

(٢) يقصد أي جاذبية (انظر جلسون التعليق ص ٣٨٨)

أخرى لا يكون لها إلا ضوء بدون حرارة ، وكيف تقدر على ان تحدث ألوانا مختلفة في أجسام متباينة ، وتحدث صفات أخرى مختلفة ، وكيف تصهر بعض الاجسام ، وتجعل الاخرى صلبة ، وكيف تكاد تستهلك جميعها أو تحيلها الى رماد ودخان ، وأخيراً كيف تكون من هذا الرماد زجاجا بمجرد تأثيرها القوى . لأنه لما ظهرت لي أن إحالة الرماد الى زجاج تستحق من الاعجاب فوق ما تستحقه أى استحالة أخرى تحدث في الطبيعة ، فقد كان لي ارتياح خاص الى وصفها

ومع ذلك فاني لم أرد أن أستنبط من كل هذه الاشياء ، أن هذا العالم قد خلق على الوجه الذى فرضته ، فان الأرجح أن يكون الله قد صنعه منذ المبدأ على ما ينبغى أن يكون ولكنه من اليقيني ، وهذا رأي متداول بين علماء الدين على العموم ، أن العمل الذي يحفظه به الآن هو نفس العمل الذي صنعه به (١) ، بحيث أنه لو لم يصوره في المبدأ بغير صورة

(١) هذا ما يسمي بنظرية الخلق المستمر ونحن نورد هنا ما يقوله في الفقرة الواحدة والعشرين من الجزء الأول من المبادىء ليتبيّن كيف يبرهن ديكارت على هذه النظرية . قال في الكلام على أن مدّة حياتنا تكفي وحدها لاثبات أن الله موجود « أنا لا أعتقد أنه يمكن للمرء أن يشكّ في صحة هذا البرهان ، إذا انتبه الى طبيعة الزمان أو الى طبيعة مدّة حياتنا ، لأنها بحيث أن أجزائها لا يعتمد بعضها على البعض الآخر ولا توجدها قطّ ، ولا يلزم من أننا موجودون الآن أن نكون موجودين في لحظة تالية ، اذا لم تستمر بعض العلل ، أي نفس العلة التي أحدثتنا ، في إحداثنا ، أى اذا لم تستمر في حفظنا . ونحن نعرف بسهولة أنه ليس فينا قط قوة نستطيع أن نقوم بها أو نحافظ بها على البقاء لحظة واحدة . . » انظر أيضاً قوله في ص ٦٣ والتعليقة رقم ٢ في نفس الصفحة

الخليط ، ما دام أنه حين أقام قوانين الطبيعة ، أولاها مدده لتعمل على مقتضى عادتها ، فان المرء يستطيع أن يعتقد ، دون جحود بمعجزة الخلق (١) أنه بذلك فقط تستطيع كل الاشياء التي هي مادية محضة ، مع الزمن، أن تصير الى ما نراها عليه الآن . وتصور طبيعتها ، حينما يشاهد تولدها شيئا فشيئاً على هذا الوجه، أيسر كثيراً من ألا تعتبر الا وهي كاملة الصنع

وانتقلت ، من وصف الأجسام غير الحية والنباتات ، الى وصف الحيوانات وخصوصاً الى وصف الانسان ولكن لما لم أكن حصلت علماً عن الانسان كافياً للكلام عنه بنفس الأسلوب الذي تكلمت به عن غيره ، أي أن أثبت المعلولات بالعلل ، وأن أبين من أي العناصر ، وعلى أي هيئة ، وجب أن تحدثها الطبيعة فانني قنعت بأن أفرض أن الله قد خلق جسم
[٤٦] انسان مشابهاً كل المشابهة لجسم من أجسامنا ، سواء كان في السحنة الخارجية لجوارحه أو في التناسق الداخلي لأعضائه ، وبدون أن يركبه من مادة غير التي وصفتها ، وبدون أن يضع فيه ، في المبدأ ، أي نفس ناطقة ، ولا أي شيء آخر يكون فيه نفساً نباتية (٢) أو حاسة ، الا اذا هاج في قلبه بعض

---

(١) « يعتبر الخلق معجزة باعتباره يحدث من العدم وجودا ، فهو إذن يفوق قوى كل مخلوق . وإذن فهو عمل يختص به الله » جلسون التعليق ص ٣٩٢

(٢) « هي مبدأ استبقاء الشخص بالغذاء وتنميته به واستبقاء النوع بتوليد مثل الشخص ولتلك النفس قوة غاذية من شأنها أن تحيل جسما شبيها بجسم ما هي فيه بالقوة الى أن تكون شبيهة بالفعل لرد بدل ما يتحلل ، وقوة نامية وهي التي من شأنها أن تستعمل الغذاء في أقطار المتغذي تزيدها عرضا وعمقا وطولا الى أن

هذه النيران التي ليس لها نور والتي وصفتها من قبل والتي لم أتصورها من طبيعة مغايرة للتي تسبب الحرارة في الكلأ الذى يخزن قبل أن يصبح يابسا أو تلك التي تخمر الأنبذة الجديدة حينما تتركها للاختمار عصيراً كدراً بدون بذور ، لانني لما درست الوظائف التي يمكن تبعا لتلك الفروض أن توجد في هذا الجسم ، وجدت فيها تماما كل الوظائف التي يمكن أن تكون فينا دون أن نفكر فيها ، وتبعاً لذلك دون أن تشترك في ذلك نفسنا ، أعني الجزء المتميز عن الجسم وهي التي قيل عنها من قبل ان طبيعتها ليست الا أن تفكر ، وهذه الوظائف هي كل مايمكن أن يقال ان الحيوان عديم النطق يشابهنا فيه . ولم أستطع من أجل هذا أن أجد بينها وظيفة من تلك التي باستقلالها عن الفكر تكون وحدها هي التي تخصنا باعتبارنا أناسي ، بينما وجدتها جميعاً فيها بعد ذلك ، لما فرضت أن الله قد خلق نفساً ناطقة ، وأنه أضافها الى ذلك الجسم في هيئة معينة وصفتها

تبلغ به تمام النشوء على نسبة طبيعية ، وقوة مولدة تولد جزءا من الجسم الذي هي فيه يصلح أن يتكون عنه جسم آخر بالعدد مثله بالنوع » ابن سينا في **ذوات الأشياء الثابتة وذوات الأشياء غير الثابتة** وهي في الرسالة الأولى التي عنوانها **عيون الحكمة من تسع رسائل في الحكمة** وكذلك يقول في الرسالة الثالثة التي عنوانها **في القوى الانسانية وادراكاتها** « إن قوى روح الانسان تنقسم الى قسمين : قسم موكل بالعمل ، وقسم موكل بالادراك ؛ والعمل ثلاثة أقسام : نبتي وإنساني وحيواني . . . **العمل النبتي** حفظ الشخص وتنميته بالغذاء وحفظ النوع بالتوليد وقد سلط عليهما إحدى قوى روح الانسان وقوم يسمونها القوة **النباتية** الخ » وراجع له أيضا **النجاة** القسم الثاني مطلع المقالة السادسة

ولكن لكي يستطيع المرء أن يتبين كيف بحثت في هذا الموضوع ، فاني أريد أن أورد هنا تفسير حركة القلب والشرايين ، التي لما كانت الاولى والاكثر عموما بين ما يشاهد المرء في الحيوان ، فانه بذلك يحكم بسهولة بما ينبغي أن يراه في الحركات الاخرى [٤٧]

ولكي تقل الصعوبة في فهم ما سأقوله في هذا الموضوع ، فاني اريد من الذين لم يتعمقوا في علم التشريح ، أن يجتهدوا قبل قراءة ذلك ، في أن يشرح أمامهم قلب حيوان كبير له رئتان ، لانه يشبه من كل الوجوه قلب الانسان مشابهة كافية ، وأن يبين لهم التجويفان الموجودان فيه : أولا التجويف الموجود في جهته اليمنى ، والذي تتصل به أنبوبتان واسعتان جدا وهما الوريد الاجوف وهو المجتمع الرئيسي للدم ، وهو مثل ساق الشجرة وكل الاوردة الاخرى كأنها فروعها . ثم الوريد الشرياني(١) الذي سمي كذلك تسمية غير جيدة ، لانه في الحقيقة شريان ، يبدأ من القلب ، ثم ينقسم بعد خروجه منه الى فروع كثيرة تنتشر في كل مكان من الرئتين ، ثم التجويف الموجود في جهة القلب اليسرى ، وتتصل به على ذلك الوجه أنبوبتان في حجم السابقتين أو أكبر ، وهما الشريان الوريدي (٢) وقد سمي

(١) أي الشريان الرئوي الذي ينقل دم الأوردة من التجويف الأيمن الى الرئة (جلسون : التعليق على المقال ص ٣٩٨)

(٢) قال حنين بن اسحاق العبادي « . . وهذا العرق هو المعروف بالشريان الوريدي سمي بهذا الاسم لأن هيئته هيئة وريد وفعله فعل شريان » رسالة الفرق بين الروح والنفس نشرها الآباء اليسوعيون في مجموعة مقالات فلسفية قديمة لبعض مشاهير فلاسفة العرب . ص ١٢٢

كذلك تسمية غير جيدة أيضاً ، لأنه ليس إلا وريداً ، يأتي من الرئتين ، حيث ينقسم الى فروع كثيرة ، تشتبك مع فروع الوريد الشرياني ، ومع فروع تلك الأنبوبة التي تسمى قصبة الرئة ، والتي يدخل خلالها هواء التنفس ، ثم الشريان الكبير (١) ، الذي يخرج من القلب فيبعث بفروعه في الجسم كله . وأريد أيضاً أن يبين لهؤلاء بعناية الصمامات الصغيرة الاحدى عشرة ، التي كأنها أبواب صغيرة كثيرة ، تفتح وتغلق الثغرات الأربع ، الموجودة في هذين التجويفين : ثلاثة منها في مدخل الوريد الأجوف ، [٤٨] موضوعة وضعاً خاصاً بحيث لا تقدر ألبتة على أن تمنع الدم الذي يحويه من أن ينسكب في التجويف الايمن للقلب ، ومع ذلك فهي تمنعه تماما من أن ينفذ الى الخارج ، وثلاثة في مدخل الوريد الشرياني ، وهي موضوعة بعكس الاولى بحيث تسمح للدم الذي هو في داخل هذا التجويف ، أن يمرَّ الى الرئتين ، ولكنها لا تسمح للذي هو في داخل الرئتين أن يعود الى التجويف ، وكذلك اثنان آخران في مدخل الشريان الوريدي ، وهما يسمحان للدم أن يسيل من الرئتين الى تجويف القلب الايسر ، ولكنهما يمنعان رجوعه ، وثلاثة في مدخل الشريان الكبير ، وهي التي تبيح الدم أن يخرج من القلب ، ولكنها تمنعه من أن يعود اليه . ولا حاجة الى البحث عن علة اخرى لعدد هذه الصمامات ، غير أن فتحة الشريان الوريدي ، لما كانت على شكل إهليلجي (٢) بسبب المكان الذي هي فيه ، فيمكن أن

---

(١) وتسميه العرب الأبهر

(٢) أي بيضَوِي

بحكم أغلاقها بصمامتين ، على حين أن الفتحات الاخرى لما كانت مستديرة أمكن اغلاقها بثلاثة على وجه أفضل . ثم انني أريد أن ينبه هؤلاء الى ملاحظة أن نسيج الشريان الكبير والوريد الشرياني أصلب وأمتن بكثير من نسيج الشريان الوريدي ، والوريد الاجوف ؛ وأن هذين الاخيرين يتسعان قبل أن يدخلا القلب ؛ وفيه يكونان شبه كيسين ، يسميان باذينتي القلب ، وهما مكونتان من لحم يشبه لحم القلب ، وأن يلاحظوا أن الحرارة في القلب أكثر منها في أي مكان آخر من الجسم ؛ وأخيراً فانه اذا دخلت قطرة من الدم في تجاويفه فان هذه الحرارة قادرة على أن تجعلها تتمدد بسرعة وتنبسط كما هو شأن السوائل كلها غالباً ؛ عند ما ندعها تسقط قطرة قطرة في وعاء شديد الحرارة [٤٩]

لأنني بعد هذا ؛ غير محتاج الى أن أقول شيئاً آخر لتفسير حركة القلب ، غير أنه عند ما لا تكون تجاويفه ملأى بالدم ، فانه يسيل اليها بالضرورة من الوريد الاجوف في التجويف الايمن ؛ ومن الشريان الوريدي في التجويف الايسر ، ما دام هذان الوعاءان ملآنين بالدم دائماً وفتحاتهما التي تطل على القلب ؛ لا يمكنها اذ ذاك أن تكون مغلقة ؛ ولكن عند ما تدخل كذلك قطرتان من الدم ، كل واحدة في أحد تجويفي القلب فان هذه القطرات ، التي لا يمكن الا أن تكون كبيرة ؛ لان الثغرات التي تلج منها الى التجاويف واسعة جدا ، ولأن الاوعية التي ترد منها ملأى بالدم جدا ، تتخلخل(١) وتتمدد بسبب الحرارة التي تقابلها هناك ، والتي

(١) التخلخل هو حركة الجسم من مقدار إلى مقدار أكبر يلزمه أن يصير قوامه أرقّ مع وجود اتصاله راجع ابن سينا في الحدود وهي الرابعة من تسع

بواسطتها يتمدد القلب فتدفعان وتغلقان الابواب الخمسة الصغيرة التى هى فى مدخل الوعائين ، والتي جاءتا منها ، وبذلك يمنعان أن يصعد الى القلب أي مزيد من الدم ؛ وباستمرارهما فى التخلخل شيئاً فشيئاً ، تدفعان وتفتحان الابواب الستة الاخرى التى هي في مدخل الوعائين الآخرين والتى تخرجان منها ؛ وبهذه الطريقة تمددان كل فروع الوريد الشرياني والشريان الكبير مصاحبة للقلب فى نفس اللحظة تقريباً، الذي سرعان ما ينقبض بعد ذلك ؛ كما تفعل كذلك أيضاً هذه الشرايين ، وذلك لان الدم الذي دخل فيها يبرد فى داخلها وتغلق أبوابها الستة ؛ وتنفتح أبواب الوريد الاجوف والشريان الوريدى الخمسة وتفسح الطريق لقطرتين أخريين من الدم ؛ تمددان القلب والشرايين [٥٠] من جديد كما فعلت السابقتان . ولما كان الدم الذى يدخل هذا القلب كما وصفت ؛ يمر بهذين الكيسين الذين يسميان بأذينتيه ، نشأ عن ذلك أن حركتهما تكون مخالفة لحركة القلب وانهما ينقبضان عند ماينبسط . ثم لكي لا يغامر هؤلاء الذين لا يعرفون قوة البراهين الرياضية ، ولم يتعودوا التمييز بين الحجج الحقيقية والشبيهة بها(١) نكران ما قلت دون امتحانه ، أريد أن أنبههم الى أن الحركة التى وصفتها تتبع حتما نفس وضع الاعضاء التى يستطيع المرء رؤيتها في القلب بالعين و الحرارة التى يقدر على الاحساس

رسائل فى الحكمة وابن سينا يورد حدوداً أخرى للتخلخل ولكن ديكارت يقصد الحد الذى اقتبسناه وهو ما يتفق مع التعريف الحديث لتلك الظاهرة الطبيعية

(١) أي المحتملة أو الراجحة

بما فيه بالاصابع ؛ وعن طبيعة الدم الذي يمكنه أن يعرفه بالتجربة . ؛ كما تتبع حركة الساعة بالضرورة ، القوة ، والوضع ، والشكل التي هي لما فيها من لواب وعجل

ولكن اذا سأل سائل كيف لا ينضب دم الاوردة ، وهو يصب دائمًا على هذا الوجه في القلب ، وكيف لا تمتلىء به الشرايين امتلاء مفرطا ما دام كل الذي يمر بالقلب يصير اليها ، فانني غير محتاج الى أن أرد عليه بأكثر مما كتبه من قبل طبيب من انكلترا (١) ، يجب أن يثني عليه لحله تلك المعضلة ، ولكونه أول من قال بوجود مسارب صغيرة كثيرة في نهايات الشرايين ، منها يدخل الدم الذي يصلها من القلب في الفروع الصغيرة للاوردة ، ومنها يصير من جديد الى القلب ، بحيث لا يكون
[٥١] جريانه الا دورة مستمرة . والذي يثبت هذا أفضل اثبات هو التجربة العادية للجراحين الذين اذا ربطوا الذراع برفق فوق المكان الذي يفتحون منه الوريد يجعلون الدم يخرج منه بأكثر غزارة مما لو لم يربطوه ويحصل العكس اذا ربطوه من أسفل ؛ بين اليد والفتحة ؛ أو اذا ربطوه من أعلى ربطة قوية جدا . لانه من الواضح أن الرباط المشدود برفق ؛ يمكنه أن يمنع الدم الموجود من قبل في الذراع من أن يعود الى القلب بواسطة الاوردة

---

(١) كتب في هامش النص الفرنساوي هارفي مركز القلب باللغة اللاتينية وهارفي المذكور هو طبيب انجليزي مشهور باستكشافه لدورة الدم وقد عاش من سنة ١٥٧٨ إلى سنة ١٦٥٨

ولا يمنعه من أجل هذا من أن يأتي منه من جديد بواسطة الشرايين ؛ لان وضعها تحت الاوردة ولان جلودها لما كانت أصلب ، فضغطها أقل سهولة ، وكذلك فان الدم الذي يرد من القلب ينزع الى أن يمر بها نحو اليد ، بقوة أكثر منها عند عودته من اليد الى القلب بطريق الاوردة . ولما كان هذا الدم يخرج من الذراع بواسطة الفتحة التي هي في احد الاوردة ، فيجب حتما أن تكون له بعض مسارب تحت الرباط ، أي في اتجاه نهايات الذراع وبها يستطيع الدم أن يأتي من الشرايين . ويثبت هذا الطبيب أيضاً اثباتا قوياً مايقوله عن جريان الدم ، بوجود صمامات صغيرة ، وهي موضوعة في أماكن مختلفة على طول الاوردة ، بحيث لا تسمح للدم أن يمر بها من وسط الجسم الى النهايات ولكنها تسمح له بالعودة من النهايات الى القلب فقط . وأكثر من ذلك فهو يثبت دعواه بالتجربة التي تبين أن كل الدم الموجود في الجسم يستطيع أن يخرج منه في قليل من الزمن بواسطة شريان واحد عند ما يكون مقطوعا حتى ولو كان مربوطا باحكام قريباً جدا من القلب ، وأن يكون مقطوعا فيما بين القلب والرباط على وجه لا يجعل محلا لتخيل أن الدم الذي يخرج منه يأتي من جهة أخرى غير القلب [٥٢]

ولكن هناك أشياء أخرى كثيرة تشهد بأن السبب الحقيقي في حركة الدم هو ما قلته . مثلا ، أولا ، الفرق الذى نلاحظه بين الدم الذي يخرج من الاوردة والدم الذي يخرج من الشرايين ، لا يمكن ان ينتج إلا من أن الدم يتخلخل ، وكأنه يصفى ، وهو مار بالقلب ، فهو ألطف وأكثر حياة وأقوى حرارة ، بعد خروجه منه مباشرة ، أي عند وجوده في الشرايين ،

منه قبيل أن يدخل القلب ، أي عند وجوده في الأوردة . واذا انتبه المرء الى ذلك ، فانه يجد أن هـذا الفرق لا يظهر جيداً إلا بالقرب من القلب ، ولا يظهر كذلك في أبعد الاماكن عنه . ثم إن صلابة الجلد ، الذي يتركب منه الوريد الشرياني والشريان الكبير ، كافية في إثبات أن الدم يدفعها بقوة أكثر مما يفعل مع الاوردة . ولماذا يكون تجويف القلب الأيسر والشريان الكبير أوسع وأكبر من التجويف الأيمن والوريد الشرياني ؟ إلا ان يكون السبب هو أنه لما لم يكن دم الشريان الوريدى ، موجودا في غير الرئتين منذ مروره بالقلب ، فهو ألطف وأقوى تخلخلا وأسهل من ذلك الذي يأتي مباشرة من الوريد الأجوف . وماذا يستطيع الاطباء ان يستنبطوه ، عند ما يجسون النبض ، اذا لم يعرفوا أنه ، تبعاً لتغير طبيعة الدم ، فانه يستطيع ان يتخلخل بواسطة حرارة القلب بقوة أقل أو أكثر ، وبسرعة أشد أو أضعف من ذي قبل ؟ واذا بحث المرء عن كيفية سريان تلك الحرارة الى الاعضاء الاخرى ، فهلا يجب الاعتراف بأن ذلك يكون بواسطة الدم الذى [٥٣] يمر بالقلب فتزداد حرارته فيه ، ومنه ينتشر الى كل أنحاء الجسم . ومن ثم فان المرء اذا نزع الدم من بعض الاجزاء فانه بذلك ينزع منه الحرارة ، ولو كان القلب حارا كنار مستعرة لما كان كافيا في تدفئة الاقدام والايدى هذه التدفئة مادام لا يبعث اليها بالدم من جديد باستمرار . ثم ان المرء يعرف من هـذا أيضا أن الوظيفة الحقيقية للتنفس هي استحضار الكفاية من الهواء النقي في الرئة كي يمكن للدم الذى يأتي اليها من تجويف القلب الايمن حيث تخلخل واستحال الى شبه بخار ، ان يخثر ويستحيل ثانية الى دم قبل ان

يسقط في التجويف الايسر ، وبدون هذا فهو لا يقدر على ان يكون صالحا لان يكون غذاء للنار الموجودة فيه . ويؤيد هذا أن المرء يرى أن الحيوانات التي ليس لها رئات ليس لها أيضاً الا تجويف واحد في القلب ، وأن الاطفال الذين لا يستطيعون استعمالها وهم أجنة في بطون أمهاتهم لهم فتحة منها يسيل الدم من الوريد الأجوف الى تجويف القلب الايسر ، ومجرى فيه يأتي من الوريد الشرياني الى الشريان الكبير بدون ان يمر بالرئة . ثم انه كيف يحصل الهضم في المعدة ، اذا لم يرسل القلب اليها حرارة بواسطة الشرايين ومعها بعض من أشد أجزاء الدم سيلاناً تعين على اذابة اللحوم التي وضعت فيها ؟ وكذلك أليس العمل الذي يحيل عصير تلك اللحوم الى دم سهل المعرفة ، اذا راعينا أنه يصفى عند مروره وتكرار مروره بالقلب مرات ربما كانت أزيد من مائة مرة أو مائتين في كل يوم ؟ وهل للمرء حاجة الى شيء آخر لتفسير تغذية السوائل [1] الموجودة في الجسم وتوليدها ، غير القول بأن [٥٤] القوة التي بها يمر الدم عند تخلخله من القلب الى نهايات الشرايين تجعل بعض أجزائه تقف في الاجزاء التي توجد فيها من الاعضاء وفيها تحل محل أخرى تطردها منها ؛ وأنه تبعاً للوضع أو الشكل أو صغر المسام التي تصادفها فان بعض أجزاء الدم تسير الى بعض الاماكن مختارة لها على البعض الآخر كما أن كل انسان يستطيع رؤية غرابيل مختلفة متفاوتة الخروق يستخدمها في فصل حبوب مختلفة بعضها عن بعض ؟ وأخيراً فان أكثر ما في كل ذلك

(١) أي الريق والعرق والبول

استحقاقا للذكر هو تكوين الارواح الحيوانية التي تشبه ريحا لطيفاً جداً، أو هي أشبه ما تكون بلهب جد نقي وجد مضيء، يصعد باستمرار وبغزارة من القلب الى المخ فينتقل منه بواسطة الاعصاب الى العضلات، ويعطى الحركة لكل الاعضاء؛ دون ان يلزم المرء ان يتخيل علة أخرى تجعل أجزاء الدم التي لما كانت هي الا كثر حركة ونفوذا، فهي الاصلح لتكوين هذه الارواح، ان تتجه نحو المخ بدلا من أي اتجاه آخر، الا ان تكون تلك العلة هي أن الشرايين التي تحملها هناك هي التي تأتي من القلب في خطوط أكثر ما تكون استقامة وأنه تبعاً لقواعد الميكانيكا التي هي نفس قواعد الطبيعة، فانه عند ما تميل أشياء كثيرة مجتمعة الى التحرك نحو جهة واحدة مثل أجزاء الدم التي تخرج من تجويف القلب الأيسر مائلة الى جهة المخ، فبما أنه لا يكون لتلك الجهة سعة للجميع، فان ما كان منها أضعف [٥٥] وأقل حركة، ينبغي ان يدفع بواسطة الاقوى، وبذلك تذهب هذه وحدها اليها

شرحت كل هذه الاشياء بتفصيل واف في الرسالة التي أشرت آنفا الى عزمي على نشرها. وبينت فيها بعد ذلك ماينبغي ان يكون عليه تكوين أعصاب الجسم الانساني وعضلاته، حتى تجعل الارواح الحيوانية (١) التي

---

(١) « الروح الحيوانية هي للحيوان الناطق وغير الناطق وهي في القلب وتنبعث منه في الشرايين وهي العروق الضوارب، إلى أعضاء البدن » الخوارزمي مفاتيح العلوم ص٨٣ من طبعة القاهرة سنة ١٣٤٢

هي داخل الجسم ذات قوة تحرك أعضاءه : كما ترى الرءوس على أثر قطعها لا تزال تتحرك وتعض الارض مع أنها لم تعد حية ، وبينت أيضا أي التغييرات تحصل في المخ لتسبب اليقظة ،والنوم،والاحلام،وكيف يستطيع الضوء ،والاصوات،والروائح، والمطاعم ، والحرارة ، وسائر صفات الاشياء الخارجية،أن تطبع فيه صوراً مختلفة بتوسط الحواس وكيف يستطيع الجوع والظمأ وسائر الانفعالات الباطنة ان تبعث اليه أيضا بصورها ووضحت ماالذي ينبغي اعتباره الحس المشترك[1] الذي يقبل كل تلك الصور. وما المراد بالخيال [2]

---

(١) في العصور الوسطى كانت تُقسم الحواس تبعاً لتقسيم أرسطو الى ظاهرة وباطنة : أما الظاهرة فهي الحواس الخمس ، وأما الباطنة فقد قصرها أرسطو على ثلاث وهي الحس المشترك والخيال والحافظة على أن علماء العرب توسعوا في فهم الخيال والحافظة فنتج عن ذلك تقسيم آخر للحواس الباطنة وهذا ما سنعرض له عن قريب . أما الحس المشترك فلقد كانوا يقولون وكذلك يقول ديكارت إنها قوة مرتبة في تجويف معين في الدماغ وهي التي تجتمع فيها كل الصور المدركة بالحواس الخمس . وقد كتب عنها **ابن سينا في الشفاء ص٣٣٢ من طبعة طهران** « أما الحس الذي هو المشترك فهو بالحقيقة غير ماذهب إليه من ظن أن للمحسوسات المشتركة حساً مشتركا بل الحس المشترك هو القوة التي تتأدى اليها المحسوسات كلها فانه لو لم تكن قوة واحدة تدرك الملون والملموس لما كان لنا أن نميز بينها» وقال في صفحة ٣٣٣ « فهذه القوة هي التي تسمى الحس المشترك وهي ركن الحواس ومنها تتشعب الشعب واليها تؤدى الحواس » ويسمى الحس المشترك أيضاً الحس العام

(٢) استعمل ديكارت هنا كلمة Mémoire وهي في هذا الموضع ترادف كلمة

الذي يحفظ هذه الصور وبالمتصرفة (١) التي تستطيع تغييرها بطرق

Imagination أي الخيال وهو القوة التي تحفظ ما يقبله الحس المشترك من الصور وتستبقيه بعد غيبة المحسوسات فالخيال اذن خزانة الحس المشترك ، وهذا مايتفق فيه ديكارت مع فلاسفة الاسلام

(١) استعمل ديكارت كلمة Fantaisie وقد رأيناها معربة عند **ابن سينا** في كتاب **النجاة** ص ٢٦٥ طبعة القاهرة سنة ١٣٣١ في قوله « فمن القوى المدركة الباطنة الحيوانية قوة فنطاسيا أي الحس المشترك » وهذا غير صحيح وربما نشأ الخطأ من أن محلها في الدماغ واحد فهو عند ديكارت الغدة الصنوبرية ولكنهما مختلفان في الوظيفة (راجع جلسون **التعليق** ص ٤٢٠) والحس المشترك في اليونانية هو (كُويني آيسْثيسِسْ) وليس فنطاسيا كما أننا رأينا الكلمة معربة أيضاً عند **محمد بن أحمد الخوارزمي** ويعرفها بقوله « فنطاسيا هي القوة المخيلة من قوة النفس وهي التي يُتصور بها المحسوسات في الوهم وان كانت غائبة عن الحس وتسمى القوة المتصورة والمصورة » **مفاتيح العلوم** ص ٨٣ من طبعة القاهرة سنة ١٣٤٢ وهذا كلام ظاهر فيه الخلط . وعلى العموم فالمقصود بالمتصرفة القوة التي بها « نركّب المحسوسات بعضها الى بعض ونفصل بعضها من بعض لا على الثبوت الذي وجدناها عليه من خارج ولا مع تصديق بوجود شيء منها أو لاوجوده . . . وهذه هي التي اذا استعملها العقل تسمى متفكرة واذا استعملتها قوة حيوانية تسمى متخيلة » **ابن سينا الشفاء** ص ٣٣٣ طبعة طهران . وهذا ما يتفق مع مراد ديكارت وهو أقرب الى تعريف **أرسطو** لفنطاسيا في كتابه **علم النفس** بقوله : « هي حركة للعقل منشؤها الاحساس »

مختلفة ، وان تؤلف منها صورا جديدة ، وهى بتوزيعها الارواح الحيوانية على هذا الوجه في العضلات تحرك أعضاء هذا الجسم في هيئات متباينة كثيرة . وبحسب مناسبات الامور التي تعرض لحواسه والانفعالات الباطنة التي هى فيه على مقدار ما تستطيع أعضاؤنا ان تتحرك دون ان تقودها الارادة (١) ولن يبدو ذلك غريبا قط للذين هم بسبب معرفتهم أن كثيرا من المتحركات بذاتها والآلات المتحركة تستطيع صناعة الناس عملها [٥٦]

ثم إن ابن سينا قد أضاف الى تلك القوى قوة أخرى يسميها بالوهمية (راجع تهافت الفلاسفة لابن رشد حيث يقول « ... ابن سينا وهو يخالف الفلاسفة في أنه يضع في الحيوان قوة غير القوة المتخيلة يسميها وهمية الخ » ص ١٢٧ طبعة القاهرة سنة ١٣٢١ ويقصد بها ابن سينا القوة التي تدرك المعاني غير المحسوسة في المحسوسات الجزئية وبتعبير آخر إدراك المعنى الجزئي المتعلق بالمعنى المحسوس مثل إدراك الشاة العداوة في الذئب : واذن فقوى النفس الحيوانية التي يعبر عنها بالحواس الباطنة هي خمس : الحس المشترك وهو الذي يقبل صور المحسوسات كلها والخيال وهو خزانته أي القوة التي تحفظ تلك الصور والوهم وهو إدراك المعاني غير المحسوسة في المحسوسات مثل إدراك الشاة للعداوة في الذئب ثم الحافظة أو الذاكرة وهي خزانة الوهم ثم المتصرفة وهي التي تتصرف في المحسوسات فتؤلف بعضها مع بعض وتفصل بعضها من بعض غير متبعة في ذلك نظام وجودها في الخارج كما تفعل في المعاني وهذه القوة اذا استعملها العقل تسمى مفكرة واذا استعملها الوهم تسمى متخيلة

(١) لأن الوظائف التي سبق ذكرها كلها حيوانية وهي ليست في حاجة الى تدخل العقل بواسطة الارادة

دون ان يستعمل في انشائها الا قطع قليلة اذا قورنت بالكثرة العظيمة من العظام والعضلات والاعصاب والشرايين والاوردة ، ومن كل الاجزاء الاخرى الموجودة في جسم كل حيوان ، سيعتبرون هذا الجسم كآلة لما كانت مصنوعة بأيدي الله ، فهي الى حد يجل عن المشابهة خير نظاما ، ولها من ذاتها حركات أدعى للاعجاب من أي آلة يقدر الناس على اختراعها

وقفت هنا خاصة لكي أبين أنه اذا وُجدت آلات لها أعضاء وصورة قرد أو صورة أي حيوان آخر غير ناطق فانه لن تكون لنا أية وسيلة لنعرف أنها ليست من نفس طبيعة هذه الحيوانات في كل شيء في حين أنه لو أن منها ماله شبه بأجسامنا وكان يقلد من أعمالنا ما يمكن تقليده امكاناً خلقياً (١) ، لكان لنا دائما طريقتان جد وثيقتين لمعرفة أنها ليست من أجل هذا ناسا على الحقيقة . أولى هاتين الوسيلتين هي أن هذه الآلات لن تقدر مطلقا على ان تستعمل الكلمات أو أي اشارات أخرى تؤلفها كما نفعل نحن لنصرح للآخرين بأفكارنا فقد يستطاع ان يتصور خير تصور أن آلة تصنع على هيئة مخصوصة بحيث تنطق بكلمات بل وان تنطق ببعضها بمناسبة أعمال بدنية تسبب تغييراً في أعضائها : كأن تلمس في بعض المواضع فتسأل عما يراد ان يقال لها ، وتلمس في موضع آخر فتصيح بأن ذلك يوجعها وما شابه ذلك ، ولكن لا يستطاع ان يتصور أنها تنوع تأليف الالفاظ

(١) أي كافياً لسد حاجات الحياة العملية (انظر ص ٦٩) وهذا بالنسبة للانسان هو الامكان العادي

لتجيب أجوبة مطابقة لكل ما يقال في حضرتها كما يستطيع ان يعمل أغبى [٥٧]
الناس . وأما الثانية فهي أنه مع أنها تعمل أشياء كثيرة مثلما يعمل أي واحد منا بل قد تعمل خيرا مما يعمل فانها لا بد تفشل في أعمال أخرى منها يتبين أنها لا تعمل عن علم ، ولكن بواسطة وضع أعضائها فانه على حين أن العقل هو آلة عامة يمكن استخدامها في كل أنواع الطوارىء فان هذه الاعضاء في حاجة الى وضع خاص لكل عمل على حدة ، ومن ثم ينتج أنه من المستحيل أخلاقياً (١) ان يكون في آلة من تنوع الاعضاء ما يكفي لجعلها تعمل في كل ظروف الحياة على نحو ما يبعثنا عقلنا للعمل

وبنفس هاتين الوسيلتين يستطيع المرء ان يعرف الفرق بين الانسان والحيوان . لانه مما يستحق الذكر أنه ليس من الناس الاغبياء والبلداء ، حتى دون استثناء البلهاء منهم ، من لا يقدرون على تأليف كلمات مختلفة ، وان يركبوا منها كلاما به يجعلون أفكارهم مفهومة وبالعكس فليس من حيوان آخر مهما كان كاملا ومهما نشأ نشأة سعيدة يستطيع أن يفعل ذلك . وهذا لا ينشأ عن نقص في الاعضاء ، لان المرء يرى العقعق والببغاء تستطيع ان تنطق ببعض الكلمات مثلنا ، ولكنها مع ذلك لا تستطيع ان تنطق مثلنا أي نطقا يشهد بأنها تعي ما تقول ، في حين أن الناس الذين ولدوا صما وبكما ،
حرموا الاعضاء التي يستخدمها غيرهم للكلام مثل حرمان الحيوان أو أشد [٥٨]
اعتادوا ان يستنبطوا من تلقاء أنفسهم بعض اشارات يتفاهمون بها مع من

---

(١) أي عادة وغرضه لحاجة الحياة العملية (انظر ص ٦٩)

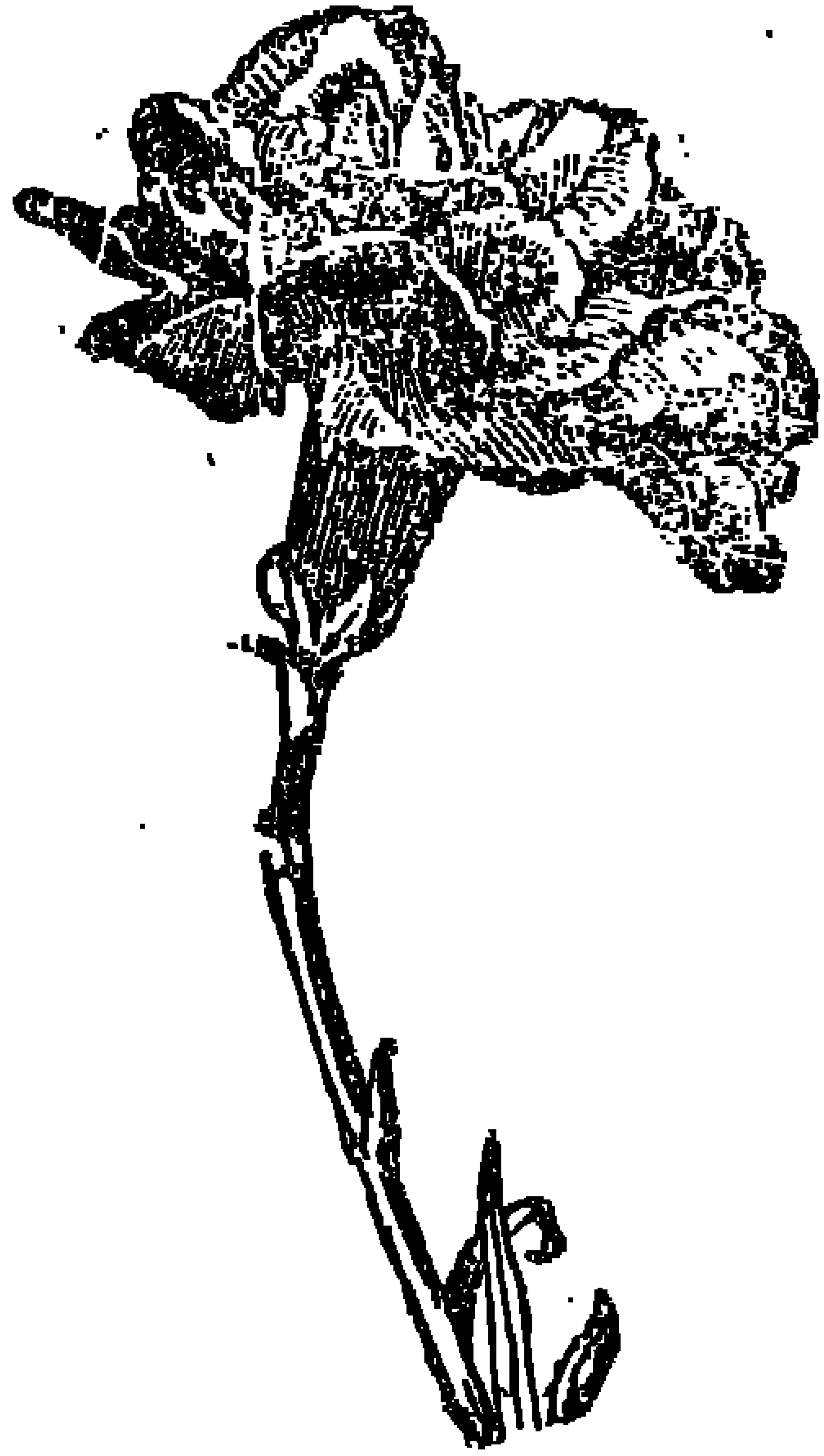
يجدون فرصة لتعلم لغتهم لانهم يعيشون معهم . وهذا لا يشهد بأن للحيوانات من العقل أقل مما للانسان ، بل يشهد بأنه ليس للحيوانات عقل مطلقا . فاننا نشهد أن معرفة الكلام لا تحتاج إلا الى شيء من العقل جد قليل ، ولما كان من الملاحظ التباين بين أفراد النوع الواحد من الحيوان ، كما في أفراد الانسان ، وأن البعض أيسر أن يراض من البعض الآخر فانه لا يصدق ان قردا أو ببغاء من أكمل نوعه ، يكافىء في ذلك طفلا من أغبى الاطفال ، أو على الاقل طفلا ذا مخ مضطرب ، ولا يكون هذا الا اذا كانت روح الحيوانات من طبيعة مخالفة لطبيعة روحنا كل المخالفة . ولا ينبغي أن نخلط بين الكلام والحركات الطبيعية التي تعبر عن الانفعالات ويمكن ان تجيد تقليدها الآلات كما تقلدها الحيوانات ، ولا ينبغي أيضاً الذهاب مع بعض المتقدمين الى أن الحيوانات تتكلم ، ولو أننا لا نفهم لغتها ، لانه لو كان ذلك حقا لكان في استطاعتها أيضاً مادامت لها أعضاء كثيرة تشابه أعضاءنا ، ان تتفاهم معنا كما تتفاهم مع أمثالها . وكذلك مما يستحق الملاحظة ، أنه مع وجود حيوانات كثيرة تظهر من الصنعة في بعض أعمالها أكثر مما نظهر ، فانه يرى مع ذلك أن نفس تلك الحيوانات لا تظهر شيئا من الصنعة في أعمال كثيرة أخرى ؛ بحيث لا يدل ما تعمله أحسن منا على أن لها نفسا ، فانه على هذا الاعتبار
[٥٩] كان ينبغي ان يكون لها منها أكثر مما يكون لاي واحد منا فتعمل في كل الامور أحسن مما نعمل ولكن هذا يدل على أنه ليس لها نفس وأن الطبيعة هي التي تعمل فيها تبعا لوضع أعضائها كما يرى في الساعة التي لا تتركب الا من عجل ولولب فانها تستطيع ان تحصى الساعات وتقيس الزمان بأكثر منا

دقة مع كل مالنا من تيقظ وفطنة

وصفت النفس الناطقة بعد ذلك وبينت أنها لايمكن البتة ان تكون منتزعة من قوة المادة كما تنتزع الاشياء الاخري التى تكلمت عنها ولكن يجب حتما ان تكون مخلوقة . وبينت كيف انه لا يكفي أن تكون ساكنة في الجسم الانساني كما يسكن البحار في سفينته (١) . لا يكفي هذا الا في ان يمثل تحريكها لاعضائه بل ان هناك حاجة الى ان تكون متصلة بالبدن ومتحدة معه على وجه أوثق حتى يكون لها عدا ذلك عواطف وشهوات مماثلة لما عندنا منها وبذلك يتألف انسان حقيقي . ثم انني أطنبت هنا قليلا في الكلام على مسئلة الروح لانها من أهم المسائل ، اذ ليس خطأ بعد خطأ الجاحدين لله ، وهو خطأ أعتقد أنني دحضته دحضاً كافياً فيما سبق ، ليس خطأ يبعد النفوس الضعيفة عن طريق الفضيلة المستقيم ، كتوهم أن روح الحيوانات هي من نفس طبيعة روحنا ، ويتبع هذا التوهم ، أنه ليس يوجد مانخشاه أو نأمله ، بعد هذه الحياة ، كشأن الذباب والنمل في حين

(١) هذا التشبيه من أرسطو هملان مذهب ديكارت ص ٢٧٧ ويقول ديكارت ما يوضح ذلك في التأملات السادسة ١٢ « إنني لست مقيما في جسمي كما يقيم البحار في سفينته ، ولكنني فوق ذلك متصل به اتصالا وثيقاً ومختلط معه بحيث أؤلف معه وحدة منفردة . لانه اذا لم يكن ذلك ، فما كنت لاشعر بألم اذا أصيب بدني بجرح ، وأنا الذي ليس الا شيئاً مفكراً ، ولكني أدرك ذلك الجرح بالعقل وحده ، كما يدرك البحار بنظره أي عطب في السفينة »

أنه من علم مبلغ اختلافهما ، كان أحسن فهما للحجج التي تثبت أن روحنا هي من طبيعة مستقلة كل الاستقلال عن الجسم ، وأنها تبعاً لهذا ليست عرضة للموت معه ، ثم انه على مقدار كوننا لا نرى غير الموت علة لفنائها ، فانه [٦٠]
يحملنا ذلك بالطبع على أن نحكم من هذا بأنها خالدة.



القسم السادس

مضت الآن ثلاثة أعوام منذ انتهيت من الرسالة التي تحتوي على كل هذه الاشياء ، وأخذت في مراجعتها ، كي أضعها بين يدي طابع، عند ما علمت أن أشخاصاً أجلهم ، ولهم من السلطة على أعمالى ما لا يقل عما لعقلي من السلطة على أفكاري ، لم يقروا رأيا في علم الطبيعة ، أذاعه البعض (١) قبل الآن بقليل ، ولا أريد ان أقول إنني كنت على هذا الرأي ، ولكني أريد ان أقول إنني لم ألاحظ فيه قبل استنكارهم ، ما أستطيع ان أتوهمه مضراً بالدين أو بالدولة ، وبالتالى ، ما كان يمنعني ان أكتبه لوأن العقل أقنعني به ، وأن هذا جعلني أخشى ان يكون بين آرائي ما أخطأت فيه ، رغم ما كان لى من عظيم العناية في ألا أدخل في اعتقادي شيئاً جديداً ، ما لم تقم له عندي البراهين الوثيقة جداً ، وألا أكتب عنه شيئاً يمكن ان ينال أي انسان بأذى : وهذا كان كافيا ليضطرني الى تغيير ما كنت صممت عليه من نشر هذه البحوث . فانه وإن كانت الحجج التي صممت من أجلها العزم أولا قوية جدا ، فان ميلي ، الذي جعلني دائما أكره صناعة عمل الكتب ، سرعان

---

(١) يقصد بالبعض غاليليه و بالاشخاص الذين يجلهم رجالَ الدين الدين كانوا يختصون بمراقبة الحركة الفكرية . ولقد أذاع غاليليه في سنة ١٦٣٢ كتابه الذي يقول فيه بدورة الارض فدانته محكمة التفتيش بروما . ولقد أتم ديكارت كتابه العالم *Le monde* سنة ١٦٣٣ ولـكن علمه بنصيب غاليليه ورغبته في عدم اثارة رجال الدين عليه جعلاه يعدل عن نشر كتابه (أنظر المقدمة)

ما جعلنى أجد الـكفاية من الحجج الأخرى لاعفائي من ذلك العمل . وكلا [٦١] النوعين من هذه الحجج ذو شأن يجعل لى غرضا بذكرها هنا ، بل وقد يكون للجمهور أيضاً فائدة في معرفتها

ما كنت قط عظيم العناية بالاشياء التي كانت تصدر عن نفسي ، وحين كنت لا أجني من ثمرات المنهج الذي أستخدمه ، غير اقتناعي في معضلات من معضلات العلوم النظرية ، أومحاولتي ان أدبر أخلاقى على مقتضى الحجج التي علمني إياها هذا المنهج [١] . لم أكن لأعتقد أنني مضطر الى ان أكتب عنه شيئاً ، ذلك بأنه فيما يتعلق بالأخلاق ، فان كل انسان يكتفي بعقله ، بحيث كان يمكن ان يكون مصلحون على عدد الرءوس ، لو ساغ لغير الذين نصبهم الله حكاما على أممه ، أو للذين أفاض عليهم من البركة والهمة ما يكفى لان يكونوا أنبياء ، أن يتناولوا بالتغيير شيئا من الاخلاق ؛ ومع أن أنظاري كانت ترضيني كثيرا ؛ فانني كنت أعتقد أن لغيري أنظارا أيضاً قد يكونون بها أشد اعجابا . ولكنى على أثر تحصيلي لبعض المعارف العامة في علم الطبيعة واختباري لها في معضلات مختلفة خاصة ، لاحظت مدى ما تستطيع ان تقود اليه ، ومبلغ اختلافها عن المبادىء التي يستعان بها حتى الآن ، على أثر ذلك اعتقدت أنني لا أقدر على ابقائها مختبئة ، دون ان أخل اخلالا كبيرا

(١) تعرضنا لهذه المسألة أي هل الاخلاق المؤقتة التي بسطها ديكارت في القسم الثالث من **المقال** هي مستمدة من منهجه أم لا وذلك في التعليق على القسم الثالث وقد أشرنا أيضاً إلى تلك العبارة (انظر ص ٣٧ و ٣٨)

بالقانون الذي يلزمنا أن نوفر الخير العام لكل الناس على قدر ما في استطاعتنا لان هـذه الانظار في علم الطبيعة بينت لي امكان الوصول الى معارف مفيدة للحياة فائدة كبيرة ، وبدلا من هذه الفلسفة النظرية ، التي تعلم في المدارس ، فانه يمكن ان نجد عوضاً عنها فلسفة عملية ، بها اذا عرفنا ما للنار ، [٦٢] والماء ، والهواء ، والكواكب ، والسماوات ، وكل الاجرام الاخرى التي تحيط بنا من قوة وأعمال ، معرفة متمايزة كما نعرف مهن صناعنا المختلفة ، فاننا نستطيع استعمالها بنفس الطريقة في كل المنافع التي تصلح لها ، وبذلك نستطيع ان نجعل أنفسنا سادة ومسخرين للطبيعة [1] . وهذا جدير بأن يرغب فيه لابتداع ما لا يحصى من المصنوعات ، التي تجعل المرء ينعم بدون جهد بثمرات الارض وبكل ما فيها من أسباب الرفه ، بل ولأجل حفظ الصحة أيضاً ، التي هي بلا ريب الخير الاول وهي الاصل لما عداها من خيرات هذه الحياة ؛ فان الروح نفسها تتصل اتصالا قوياً بالمزاج ، وبنية أعضاء البدن ، بحيث أنه اذا كان ممكناً وجود بعض الوسائل التي تجعل الناس عامة أكثر حكمة وحذقا مما هم عليه حتى الآن ، فاني أعتقد أنه يجب البحث عن هذه الوسيلة في الطب . حقاً إن الطب المستعمل الآن يشتمل على قليل من الاشياء التي لها منفعة تذكر ؛ ولكن دون ان أقصد الى

(١) يرى الاستاذ لالاند أن ديكارت يقتبس مثله الأعلى للعلم ، الذي يعبر عنه هنا ، من باكون Bacon ولقد أورد في مقالته المشهورة بعض نصوص من باكون ومن ديكارت الحجج التي يراها كافيـة للتدليل على هذا الرأي (أنظر جلسون التعليق ص ٤٤٦)

تحقيره ، فانني واثق أنه لا يوجد انسان ، حتى ممن يحترفونه ، لا يعترف بأن كل ما يعرف منه يكاد لا يكون شيئاً ، اذا قورن بما يبقى غير معروف وأن من المستطاع التخلص مما لا يحصى من الامراض ، بدنية كانت أو نفسية بل وقد يتخلص أيضاً من ضعف الهرم ، اذا عرفت أسبابها معرفة كافية ، ٦٣ [وعرفت كل الادوية التي زودتنا بها الطبيعة[1] . ولما كان من غرضي ان أنفق كل حياتي في البحث عن علم ضروري جدا ، ولما ألفيت طريقا يظهر لى أنه باتباعه يجب حتما ان يوجد هذا العلم ، ما لم يعق دونه إما قصر الحياة ، أو نقص في التجارب ، حكمت أنه ليس من دواء لهذين العائقين ، خير من ان أبلغ الجمهور بأمانة كل القدر القليل الذي أتيح لي الاهتداء اليه ، وأن أدعو أهل العقول الجيدة لمحاولة التقدم ، باشتراكهم في التجارب التي ينبغي القيام بها كل وفق ميله وعلى قدر استطاعته ، وان يبلغوا الجمهور أيضا كل الاشياء التي تعلموها حتى يبدأ اللاحقون من حيث انتهى السابقون ، وبذلك نصل أعمار الكثيرين وأعمالهم ، فنتقدم جميعا أكثر مما يستطيع

(١) كان ديكارت يعتقد أن العلم يستطيع أن يحمي الانسان من الأمراض ومن ضعف الشيخوخة ولما مات أعلنت صحيفة أنفرس خبر وفاته بهذا التعبير : « مات في السويد أحمق كان يقول إن في استطاعته أن يعمر في الحياة ما شاء » الاعمال الكاملة طبعة أدام وتانري ج ١٠ ص ٦٣٠ وروى مؤرخ حياته بابيه عن بعض أصدقاء ديكارت أنه دهش عند ما بلغه نعيه إذ أنه كان واثقاً أنه سيعيش على الاقل خمسة قرون ، ما لم يمت موتاً غير طبيعي . راجع الاعمال الكاملة ج ١١ ص ٦٧٠ - ٦٧٢

كل فرد مستقلا

بل قد لاحظت ، فيما يختص بالتجارب أنها كلما تقدمنا في المعرفة كانت ألزم إذ أنه يحسن في المبدأ ألا نستخدم إلا ما يقع منها من تلقاء نفسه تحت حواسنا ، وما لا نستطيع الجهل به ، مادمنا نفكر فيه تفكيراً مهما كان قليلا ، بدلا من ان نشغل أنفسنا بالأندر منها والأصعب . والسبب في ذلك أن هذه التجارب النادرة تضلل كثيرا ، عندما لا نكون بعد على علم بعلل أكثرها شيوعا وكذلك فان الظروف التي تتصل بها تكاد تكون دائماً من الخصوصية وهى من الدقة بحيث تشق ملاحظتها . ولكن الترتيب الذي اتبعته في هذا كان كما يلي . أولا ، حاولت ان أجد على العموم المبادىء ، أو العلل الاولى ، [٦٤] لكل ماهو موجود ، أو يمكن ان يوجد في العالم ، من غير ان أعتبر في سبيل هذا الغرض غير الله وحده الذي خلقه ، وبدون ان أستنتجها إلا من بعض بذور الحقيقة التي هي في نفوسنا بالطبع (١) . وبعد ذلك ، بحثت في ماهي المعلولات الاولى التي هى الاكثر جريانا في العادة والتي يمكن استنتاجها من هـذه العلل : ويبدو لى أنني بهذا ، وجدت سماوات ، وكواكب ، وأرضا ، بل ووجدت فوق الارض ، ماء ، وهواء ، ونارا ، ومعادن ، وبعض أشياء أخرى مشابهة لهذه ، وهى أكثر الأشياء شيوعا وأبسطها ، وعلى ذلك فهي أسهلها ان تعرف . ثم إنني لما أردت أن أنحدر الى الاشياء التي هي أخص ، عرض لى منها كثير متباين ، بحيث لم أعتقد أن في استطاعة العقل الانسانى أن يميز بين صور أو أنواع الاجرام التى هى فوق الأرض وما

(١) أي المبادىء الأولى الموجودة بالفطرة في النفس

لا يحصى غيرها مما يمكن ان يوجد ، اذا أراد الله ايجادها ووضعها فوق الارض ؛ ولا اعتقدت ، كما ينتج عن هذا أننا نستطيع تصريفها في منفعتنا إلا ان يكون بأن نتوصل الى العلل عن طريق المعلولات ، وان نستخدم كثيرا من التجارب الخاصة . وبعد ذلك فانني لما مررت بعقلي على كل الاشياء التي عرضت لحواسي ، فانني أجرؤ على القول بأنني لم ألاحظ شيئا منها لم يسهل على تفسيره بالمبادىء التي اهتديت اليها . ولكن يجب أن أعترف أيضاً بأن قوة الطبيعة رحبة وواسعة جدا ، وأن هذه المبادىء بسيطة وعامة جدا ، بحيث أكاد لا ألاحظ أي أثر خاص لا أعرف أولا أنه ممكن استنباطه [٦٥] من هذه المبادىء بكيفيات كثيرة مختلفة ، وأن أكبر معضلة لدي هي في العادة أن أجد من بين هذه الكيفيات الكيفية التي يتصل بها هذا الاثر بهذه المبادىء . لانني لا أعرف لهذا حلا إلا ان أبحث من جديد عن بعض تجارب ، لا تكون نتيجتها ، اذا كان يجب تفسيرها على كيفية من هذه الكيفيات ، كنتيجتها اذا كان يجب تفسيرها على كيفية أخرى

على أنني الآن بحيث أرى ، كما يبدو لى ، أي طريق يجب علينا سلوكه كي نقوم بأكثر التجارب التي تنفعنا في هذه الغاية ، ولكنني أرى أيضاً أنها من العظمة ومن كثرة العدد ، بحيث لا تبلغ كفايتها كلها يداى ولا رزقى ، ولو أن لي ضعفه ألف مرة ؛ فعلى قدر ما سيكون لى منذ الآن من اليسر لكي أحقق منها كثيرا أو قليلا ، سأتقدم كذلك كثيرا أو قليلا في معرفة الطبيعة . وهذا ما كنت آمل أن أوضحه بالرسالة التي كتبتها ، وأن أبين فيها بيانا جليا كثير الفائدة التي يستطيع الجمهور أن ينالها من ذلك ، وان

أطلب الى كل الذين يرغبون على العموم في خير الناس ، أي كل الذين هم أهل الفضيلة في الحقيقة ، لا بالمظهر الخادع ، ولا بمجرد القول ، أن يبلغونى التجارب التى عملوها ، وان يعينونى في التجارب التي بقى استيفاؤها

ولكن عرض لى منذ ذلك الحين ، حجج أخرى جعلتنى أغير رأيى ، وان أفكر في أنه يلزمنى في الحقيقة ان أستمر في كتابة كل الاشياء التي أحكم بأن لها بعض الأهمية ، على مقدار ما تكشف لى عن الحقيقة ، وان أعنى بها كعنايتي لو أننى أريد طبعها . وذلك لكى تكون لى فرصة أكبر لاجادة [٦٦] تمحيصها ، كما أننا ندقق بلا شك فيما نعتقد أنه معروض لانظار الكثيرين أكثر مما نفعل فيما لا نعمله إلا لأنفسنا ، وكثيرا ما كانت الاشياء التى بدت لي حقيقية عندما بدأت في تصورها ، تبدو لي باطلة عندما كنت أريد وضعها على الورق ، ولكيلا أضيع أي فرصة لافادة الجمهور ، اذا كنت قادراً على ذلك ، واذا كان لكتاباتي شيء من القيمة ، فان الذين سوف يحصلون عليها بعد مماتي يقدرون ان يستخدموها استخداما مناسبا ، ولكن لم يكن واجبا علي ان أقر نشرها في حياتي ، حتى لا تكون المعارضات والمجادلات التي ربما تكون كتاباتي عرضة لها ، أو الشهرة مهما تكن ، التي تكسبنى اياها ، لتهيء لى أي فرصة لتضييع الوقت الذى أنا عازم على انفاقه في تعليم نفسي لأنه وان كان حقاً أن كل انسان مضطر ان يزيد في خير الآخرين على قدر ما يستطيع ، وأن كون المرء غير مفيد لأحد هو نفس كونه لا يساوى شيئا ، ومع ذلك فانه حق أيضاً أن عناياتنا يجب ان تتجاوز حدود الوقت الحاضر ، وأنه من الخير ان نهمل الاشياء التى ربما

جاءت ببعض الفائدة للأحياء ، اذا كان هذا على نية ان نعمل أشياء أخرى تأتي بفائدة أكبر لأحفادنا . كما أني في الحقيقة أريد ان يكون معلوماً أن المقدار القليل الذى عرفته حتى الآن يكاد لا يكون شيئاً بموازنته مع الذى أجهله ، واني لا أيأس من القدرة على معرفته ؛ لأنه يكاد يكون سواء مثل الذين يكشفون قليلا فقليلا عن الحقيقة في العلوم ، كمثل الذين عند ما يبدأون [٦٧] في ان يصيروا أغنياء ، يكون عناؤهم في تحصيل المقادير الكبيرة أقل من عنائهم من قبل وهم فقراء في تحصيل ما هو أقل بكثير . وقد يستطاع مقارنتهم برؤساء الجيش الذين تزداد قواهم على قدر انتصاراتهم ، والذين يحتاجون الى السياسة لكي يحفظوا أنفسهم بعد خسارة معركة أكثر من حاجتهم اليها بعد كسبها ليستولوا على المدن والأقاليم . لأنه في الحقيقة ان يخوض المرء غمار معركة مثل ان يحاول التغلب على كل المعضلات والاخطاء التى تعوقنا عن الوصول الى معرفة الحقيقة ، وان خسران معركة مثل قبول رأي فاسد يختص بمسئلة عامة ومهمة الى حد ما ؛ ويجب بعد ذلك من الحذق للعودة الى نفس الحالة التى كان المرء فيها من قبل ، أكثر مما يجب لتحصيل تقدم عظيم ، اذا كان للمرء مبادىء وثيقة . أما أنا ، فاذا كنت قد وجدت فيما سبق بعض الحقائق في العلوم (وآمل أن الأشياء التى يحتوى عليها هذا المجلد تدعو الى الحكم بأني وجدت بعضاً منها) فاني أقدر على ان أقول انها ليست الا توابع ولواحق خمس أو ست معضلات رئيسية تخطيتها ، وهي ما أعتبرها كمعارك كان الحظ فيها الى جانبي . بل لن أخشى ان أقول ، اني أرى أنني لم أعد في حاجة الى تحصيل غير اثنتين أو ثلاث أخرى مثلها للوصول الى كل

غايتي ؛ ولست من التقدم في السن بحيث لا يكون لي وفقا لسير الطبيعة العادي ، متسع من الوقت لتحقيق هذه الغاية . ولكنني أعتقد أني مضطر [٦٨] الى ان أقتصد فيما بقي لي من الوقت على مقدار قوة أملي في القدرة على حسن استخدامه ، وستكون لي بغير شك فرص كثيرة لتضييعه ، اذا نشرت أصول مذهبي في الطبيعيات [1] . لانها وان كانت كلها تقريبا من الوضوح بحيث لا يلزم لتصديقها الا الاصغاء اليها ، وبحيث أنه ليس منها ما أعتقد أنه يعجزني أن أقيم عليه البراهين ، وعلى كل حال فلأنه من المستحيل أن تتفق مع كل الآراء المختلفة التي يقول بها غيري فانني أتوقع أني سأحيد عنها كثيرا لما ستولده من معارضات

ومن المستطاع أن يقال ان هذه المعارضات تكون نافعة لانها تعرفني اخطائي ، ولانها تزيد في فهم الآخرين لما قد يكون في مبادئي من صواب وكما أن الكثيرين يستطيعون ان يبصروا أكثر مما يبصر انسان واحد ، فان الذين بدأوا منذ الآن في الاستعانة باصول طبيعياتي ، سيعينونني أيضاً باستكشافاتهم . ولكن مع اقراري بانني جد معرض للخطأ ، وانني أكاد أتمسك دائما بالافكار الاولى التي ترد عليّ ، فان التجربة التي أحصل عليها من الاعتراضات التي يمكن أن توجه الي تمنعني ان آمل في منفعة منها . لانني كثيرا ما جربت من قبل الاحكام : سواء كانت صادرة عمن كنت أعتبرهم أصدقاء لي ، أو صادرة عن آخرين كنت أعتقد أنني لست لهم لا بالصديق

(١) أي بالاشتغال في الردود على اعتراضات العلماء والانتباه الى أعمال رجال الدين و كيدهم ، لأنهم كانوا يقاومون كل ما يعارض طبيعيات أرسطو

ولا بالعدو ، بل ومن بعض الذين عرفت أن خبثهم وحسدهم يجعلانهم يكشفون ما يستر الحب عن أصدقائي ؛ ولكنه ندر أن اعترض عليّ بشيء لم أتوقعه البتة مالم يكن هذا الشيء بعيداً جداً عن موضوعي، بحيث أني لم أكد [٦٩] قط أجد منتقداً لآرائي ، ولم يبد لي أنه إما أقل تدقيقاً أو أقل نصفة مني . وكذلك لم ألاحظ أبداً أنه بواسطة المجادلات التي تثار في المدارس ، قد استكشفت حقيقة كانت مجهولة من قبل ؛ لأنه بينما يحاول كل أن ينتصر، يجتهد في تعزيز المحتمل أكثر من اجتهاده في وزن الحجج من كل الجهات ؛ وان الذين ظلوا زمناً طويلاً محامين بارعين لا يكونون بعد هذا لذلك السبب ، خير القضاة

أما المنفعة التي سينالها الآخرون من نشر أفكاري فانها لن تكون كبيرة جداً ما دمت لم أتقدم بها تقدماً كبيراً يجعلها غير محتاجة الى اضافة كثير من الاشياء اليها قبل تطبيقها على العمل . وأعتقد أنني أقدر على ان أقول دون غرور إنه اذا كان يوجد شخص يقدر على ذلك ، فانني أكون حتماً أولى بذلك من كل أحد غيري ؛ وليس هذا لأنه لا يمكن ان يكون في العالم عقول كثيرة أفضل من عقلي الى الحد الذي لا يجاري ، ولكن لانه ليس من المستطاع ان يجيد المرء تصور شيء وان يجعله ملكاً له ، اذا تعلمه من غيره كما لو استكشفه بنفسه . وذلك حقيق جداً في هذا الموضوع ؛ بحيث أني كثيراً ماشرحت بعض آرائي لأشخاص أولي عقول جيدة ، وبينما كنت أتحدث اليهم كان يظهر لي أنهم يفهمونها فهماً متميزاً ، ومع هذا فانهم عند ما كانوا يعيدونها ، كنت ألاحظ أنهم كانوا يكادون دائماً يغيرونها بحيث

لم أكن لأستطيع أن أعترف بأنها آرائي . وبهذه المناسبة فانه يسرني كثيرا ان أرجو أحفادنا ألا يصدقوا ما سيقال لهم إنه صادر عني ، اذا لم أكن أنا قد أذعته بنفسي . وما كنت لأعجب البتة من هذا الشطط الذي يعزى الى كل هؤلاء الفلاسفة المتقدمين ، الذين ليست لدينا كتاباتهم [١] ، ولست أحكم من أجل هذا أن أفكارهم كانت مجانبة للعقل ، مع العلم بأنهم كانوا من خيرة العقلاء في أزمنتهم ، ولكنني أحكم فقط بأن أفكارهم ساءت روايتها . كما أننا نرى أيضاً أنه لم يكد يحصل أن أحد أتباعهم قد فاقهم ، واني لواثق ان أكثر متابعي أرسطو حماسا الآن ، يرون أنفسهم سعداء لو أن لهم من العلم بالطبيعة ما كان له حتى بشرط ألا يتجاوزوا قدر ما علمه . انهم مثل اللبلاب الذي ليس مستعدا لان يرتفع الى ما فوق الاشجار التي تسنده ، بل وكثيرا ما يهبط بعد ان يبلغ ذروتها ؛ لانه يبدو لى أيضاً أن هؤلاء يهبطون ، أي انهم يردون أنفسهم ، على وجه ما ، أقل علما مما لو كفوا عن التحصيل ، هم لعدم اقتناعهم بمعرفة كل ما هو مشروح بطريقة مفهومة عند المؤلف الذي يقرأونه ، يريدون فوق ذلك أن يجدوا لديه حلا لمعضلات كثيرة لا يقول فيها شيئا ، وربما لم يفكر قط فيها . ومع ذلك فان طريقتهم في التفلسف موافقة جدا لأولى العقول الضعيفة ؛ لان غموض التمييزات والمبادىء التي يستعينون بها سبب في أنهم يستطيعون الكلام في كل الاشياء

(١) يقصد بعض الفلاسفة السابقين لسقراط لا سيما ديموقريطس (أنظر جلسون التعليق ص ٤٦٢)

[٧١] بجرأة كأنهم يعرفونها ، وان يؤيدوا كل ما يقولون فيها ضد أشد الناس تدقيقا وأكثرهم حذقا دون ان تكون للمرء وسيلة لاقناعهم . وهم في هذا يظهرون لى كمثل أعمى ، يريد ان يشاجر بصيرا دون أن يكون مغبونا ، فيصل به الى قاع كهف شديد الظلمة ، وأستطيع أن أقول ان لهؤلاء مصلحة في ان أكف عن نشر مبادىء الفلسفة التي آخذ بها ، لانها لما كانت على ما هي عليه من قوة البساطة والوضوح فانني أكاد أكون لو أني نشرتها كما لو أنني فتحت بعض المنافذ وجعلت النور يدخل الى هذا الكهف حيث هبطوا للتشاجر . ولكن خير الناس عقولا أنفسهم ليست لهم فرصة ليتمنوا معرفة هذه المبادىء ، لأنهم اذا كانوا يريدون معرفة الكلام في كل شيء وأن يشتهروا بأنهم علماء ، فأيسر لهم ان يدركوا هذا بأن يرضوا بالمحتمل الذي يمكن ان يوجد بدون عناء في كل أنواع المسائل من ان يبحثوا عن الحقيقة التي لا تظهر الا قليلا قليلا في بعض المسائل ، واذا عرض القول في مسائل أخرى فهي تجبر المرء على ان يعترف صراحة أنه يجهلها . أما اذا كانوا يؤثرون معرفة قليل من الحقائق على غرور التظاهر بعدم جهل شيء ما ، لان هذه المعرفة أفضل كثيراً بلا ريب ، واذا كانوا يريدون السعي وراء مطالب شبيه بمطالبي ، فانهم ليسوا في حاجة لاجل هذا الى ان أقول لهم أكثر مما قلت في هذا المقال . لانه اذا كانوا أهلا لان يتقدموا أكثر مما تقدمت فانهم يكونون بالأولى أهلا لان يستكشفوا بانفسهم كل ما أعتقد أنني استكشفته . ولما كنت لم أدرس شيئا قط الا بترتيب ، فانه

[٧٢] من المؤكد أن ما بقى على استكشافه هو في نفسه أصعب وأخفى من الذي

استطعت قبل الآن ان أصل اليه ، ويكون سرورهم بتعلمه مني أقل بكثير من سرورهم بتعلمه بأنفسهم ؛ وعدا هذا فان ما سيعتادونه يحثهم أولا عن الامور السهلة ثم تجاوزهم اياها قليلا قليلا على قدر الى أمور غيرها أصعب منها ، سيكون لهم أنفع من كل ما تستطيعه تعلماتي . كذلك ما يختص بي ، فانني مقتنع بأنني لو كنت عُلمت منذ صباى كل الحقائق التي بحثت عن براهينها منذ ذلك الحين ، ولو كنت لم أكابد أي عناء في تعلمها لكنت ربما لم أعلم قط شيئاً غيرها . وعلى الاقل ما كان يكون لى ما أعتقد من الاعتياد والسهولة اللتين أعتقد أنهما لى في استكشاف الجديد من الحقائق دائما على قدر اجتهادى في البحث عنها . وفي كلمة واحدة اذا كان في العالم صنيع لا يمكن ان يُحسن انجازه الا الذى بدأه بنفسه ، فذلك هو الصنيع الذي أعالجه .

وحقيقة ، فانه فيما يختص بالتجارب التي تنفع في ذلك ، فان رجلا واحداً لا يمكن أن يكفى للقيام بها جميعا ، ولكنه لا يستطيع أيضا أن يستخدم في ذلك غير يديه استخداما مفيداً ، اللهم إلا أن تكون أيدي الصناع ، أو مثلهم من الناس ممن يستطيع أن يدفع لهم أجرا ، والذين يبعثهم الأمل في الكسب ، وهو وسيلة فعالة جدا ، الى أن يحكموا صنع كل ما يأمرهم بصنعه من الأشياء . فان المتطوعين ، الذين ربما ندبوا أنفسهم لمعاونته ، تطلعا ، أو رغبة في المعرفة ، فعدا أن لهم في العادة من المواعيد أكثر مما لهم من الاعمال ، وانهم لا يعملون الا خططا جميلة لا ينجح واحد منها قط ، فانهم يرغبون حتما في أن يكافأوا بان توضح لهم بعض المعضلات [٧٣]

أو على الأقل بثناء ومسامرات غير مجدية ، وكل وقت يصرفه في هذا ، وان قل ، فهو مضيع . وأما التجارب التي قام بها آخرون من قبل ، حتى لو أنهم أرادوا ابلاغها اليه ، وهم لا يبلغونه قط ما يدعونه أسراراً ، فأكثر هذه التجارب ، يتألف من ظروف كثيرة ، أو من أجزاء نافلة ، بحيث يتعسر عليه أن يستخلص منها الحقيقة ، وفوق ذلك فانه يكاد يجدها كلها سيئة الشرح جداً ، بل قد تكون فاسدة جدا ، لأن الذين قاموا بها تعملوا أن يجعلوا لها مظهر اتفاق مع مبادئهم ، فلو أن فيها بعض ما ينفعه ، ما كافأ الوقت الذي ينبغي انفاقه في اختياره . وعلى ذلك فانه اذا كان في العالم شخص ، نعلم يقينا أنه قادر على استكشاف أعظم الاشياء ، وأكثر ما يمكن أن يكون نافعا للناس ، وأنه ، من أجل هذا ، يحاول كل الناس ، بكل الوسائل ، أن يعينوه لكي يبلغ بمطالبه غاية النجاح ، فانني لا أرى أنهم يقدرون على شيء ينفعه ، اللهم الا أن يمدوه بنفقات التجارب التي يحتاج اليها ، ثم بعد ذلك ، أن يحولوا دون وقته أن يذهب به تدخل فضولي ، ولكني عدا أنني لا أزهى بنفسي الى حد أن أرغب في أن أعد بأمر يتجاوز المألوف ، ولا أن أتشبع بأفكار خادعة ، الى حد أن أتخيل أن الجمهور يجب أن يهتم بخططي كثيرا ، فان نفسي ليست أيضا من الضعة بحيث أرضى بأن أقبل من أي انسان مهما كان أي نعمة ، يمكن أن يظن أنني لم أكن أهلا لها [٧٤]

كل هذه الاعتبارات معا ، كانت سببا منذ ثلاث سنين في أنني لم أرد أن أذيع الرسالة التي كانت بين يدي ، بل وأن أصمم على ألا أظهر طول

حياتي ، غيرها مما يكون عاما أو يمكن أن تفهم منه أصول طبيعياتي . ولكن عرض منذ هذا الحين سببان آخران ، اضطراني الى أن أورد هنا بعض المحاولات الخاصة (١) ، وأن اذيع بين الناس بعض بيان لما عملته وما أنويه . أما السبب الاول فهو أنني اذا أغفلت هذا ، فان الكثيرين الذين علموا بعزمي من قبل على نشر بعض الكتابات ، ربما تخيلوا أن الأسباب التي بعثتني الى أن أعدل عن عزمي ترجع الى عيب فيّ أكثر مما في الواقع لأنه ولو أني لا أغلو في حب المجد ، بل واذا جاز لي القول ، فانني أكرهه ما دام حكمي أنه يجافي الراحة التي أقدرها فوق كل الاشياء ، فانني لم أحاول مع ذلك أن أخفي أعمالي كما تخفى الجرائم ، ولم أستعن بكثير من الحيطة كي أكون غير معروف ، وذلك لانني كنت أعتقد أنني بهذا اسيء الى نفسي كما أن ذلك يسبب لي نوعا من الاضطراب يجافي أيضا ما أنشده من الراحة الكاملة للنفس . ولانه ، لما كنت كذلك غير مهتم بأن أكون مشهورا أو غير مشهور ، ولم أقدر على أن أتحامى حصولي على بعض ضروب الشهرة ، رأيت أنه يجب علي أن اعمل ما في وسعي لاتحامى على الاقل أن تكون لي شهرة سيئة . والسبب الثاني الذي حملني على كتابة هذا ، هو أنني لما رأيت في كل يوم تزايد التعويق الذي يصيب خطتي في تعليم نفسي ،

---

(١) يقصد رسائله الثلاث انكسار الاشعة و علم الأنواء و الهندسة التي ظهرت جميعاً مع المقال عن المنهج سنة ١٦٣٧

وذلك بسبب حاجتي الى تجارب لاتحصى ، يستحيل أن أنجزها دون معاونة الغير ، ومع أنني لا أغتر بنفسي الى حد أن آمل أن تأخذ الدولة بقسط وافر في مشاغلي ، فانني على كل حال لا أرغب في أن أقصر في حق نفسي الى حد أن أبرر لمن يعيشون بعدي أن يعيبوني يوما ما بأنى كنت أستطيع أن أترك لهم أشياء كثيرة خيرا مما فعلت ، هذا اذا لم أكن قد أفرطت في اهمال تفهيمهم ما الذي يستطيعون به أن يشاركوا في تحقيق خططي

وقد رأيت أنه كان هينا علي أن اختار بعض المواد ، التي وان كانت ليست موضوع مجادلات كثيرة ، ولا تجبرني على أن أفشي من مبادئى فوق ما أريد ، فانها لا تضعف عن أن تبين بوضوح كاف ما أقدر عليه أو ما لا أقدر عليه في العلوم . ولا أستطيع أن أقول انى نجحت في ذلك ، وما أريد أن أتنبأ بأحكام أي انسان ، عند ما اتحدث بنفسي عن كتاباتى ، ولكن يسرني كثيرا أن تمتحن ، ولكي يتيسر لذلك أكثر ما يمكن من الفرص أبتهل الى من قد يكون لهم عليها اعتراض أن يكلفوا أنفسهم مشقة ارسال اعتراضاتهم الى ورّاق[1] ، وعند ما يعلمني بذلك ، فاني أجتهد في أن أقرن الاعتراض بردي عليه في الوقت عينه ، وبهذه الطريقة يرى القراء هذا وذاك معا ، فيكون أسهل لهم أن يحكموا بما هو أحق . فانى لا اعد بأن اكتب قط ردودا مطولة ، ولكنني أقتصر على ان أقر بأخطائى بصراحة كثيرة ، اذا عرفتها ، او ان اقول في بساطة اذا لم اقدر على [٧٩]

(١) الورّاق هو صاحب المكتبة وناشر الكتب

ادراكها ، ما اعتقد أن الدفاع عما كتبته يحتاج اليه ، دون أن أضيف الى ذلك تفسير أي مسئلة جديدة ، حتى لا أنتقل الى غير نهاية من واحدة الى أخرى

واذا كانت بعض المسائل ، التي تكلمت عنها في بدء علم انكسار الأشعة (١) و علم الانواء تصدم في بادىء الامر ، وذلك لانني اسميها فروضا ، ولانه يبدو أنني لا أعنى باثباتها ، فليكن للقاريء صبر على استيفاء ما كتبته بانتباه ، وآمل أنه يجد فيه رضاه ، لانه يبدو لى أن الحجج تتوالى فيها كأن الاواخر تبرهن عليها الاوائل ، التي هي عللها ، وكأن هذه الاوائل

---

(١) يعرفه مرسن في كتابه الحقيقة في العلوم بأنه العلم « الذي يعرفنا كيف نبصر بواسطة الشعاع المنكسر كما هو الحال عندما نرى جزءا منها في الماء والآخر في الهواء » أدام مياة ديكارت ١٨٥٨

ويدخل في ما يسميه العرب بعلم المناظر وهو ما يسميه الاربيون Optique ويترجمه المحدثون بكلمة علم الضوء ويعرفه ابن خلدون في مقدمته بقوله « هو علم تتبين به أسباب الغلط في الإدراك البصري بمعرفة كيفية وقوعها بناء على أن إدراك البصر يكون بمخروط شعاعي رأسه يقطعه الباصر وقاعدته المرئى ، ثم يقع الغلط كثيراً في رؤية القريب كبيراً والبعيد صغيراً ، وكذا رؤية الاشباح الصغيرة تحت الماء ووراء الأجسام الشفافة كبيرة ، ورؤية النقطة النازلة من المطر خطاً مستقيما والشعلة دائرة وأمثال ذلك الخ » وابن خلدون يعتبره من العلوم الهندسية ولكن ديكارت يراه من العلوم الطبيعية الممزوجة بالرياضة

أيضاً تبرهن عليها الاواخر ، التي هي معلولاتها [١] . ولا ينبغي أن يتوهم أنني أقع هنا في الخطأ الذي يسميه المناطقة بالدور [٢] ، لانه لما كانت التجربة تجعل أكثر هذه المعلولات مؤكدة جداً ، فان العلل التي استنبطت منها هذه المعلولات لا تصلح لان تثبت وجودها بمقدار ما تصلح لان تفسرها ، ولكن الامر على العكس فان العلل تثبتها المعلولات . وأنا لم أدّعها فروضا ، الا

(١) قال همَلان : إن كون الله مصدراً للخير هو وجه للتعبير عن عقلية الوجود ، واذا كنا نقدر أن نقيم فوق مبدأ وضوح المعاني وتميزها* نظرية للوجود ، أي اذا كان المذهب العقلي يؤدي إلى نظرية للوجود كافية ، فنحن إذا عدنا من الوجود كما هو محدد ، نستنبط إذن من طبيعته أن الحقيقة تتمثل للعقل بواسطة وضوح المعاني وتميزها . وبعبارة أخرى من المستطاع أن يقال إن الله يكشف لنا الحقائق بواسطة المعاني الواضحة المتميزة ، ثم يقول « العلاقة بين مبدأ المعاني الواضحة المتميزة والقول في الله ، أو في الوجود العقلي كما يبدو لنا ، تكاد تكون كما يظهر ، نفس العلاقة التي يسلّم بها ديكارت بين الوقائع والفروض في الطبيعيات ، الأوائل هي برهان الأواخر والأواخر هي برهان الأوائل ، دون أن يكون في هذا أقل دَوْر » مذهب ديكارت ٢ ص ١٤٢ وقارن هذا بما كتبناه في المقدمة عن نظرية المعرفة عند ديكارت ولاسيما ص (مط) و (ن)

(٢) الدور خطأ في المنطق ينحصر في البرهان على شيء بشيء آخر يتوقف على الأول

* أي قول ديكارت بأن كل ما نتصوره بوضوح وتميز حقيقي ومعنى حقيقي عنده هو معنى واقعي

لكي يُعلم أني أعتقد بالقدرة على استنباطها من هذه الحقائق الاولى التي شرحتها من قبل ولكني أردت عن قصد ألا أفعل هذا كي أمنع بعض العقول التي تتوهم أنها سرعان ما تعرف في يوم واحد كل ما فكر فيه الغير في عشرين عاما اذا قال لهم عنه كلمتين أو ثلاثا والذين يكونون أكثر تعرضا للخطأ ، وأقل قدرة على ادراك الحقيقة كلما كانوا أكثر تدقيقا وأكثر نشاطا من ان يتخذوا من ذلك فرصة ليقيموا فلسفة متطرفة فوق ما يعتقدونه مبادئي ، وان ينسب الى ما فيها من خطأ [1] . لانه فيما يختص بالآراء التي هي كلها آرائي فانني لا أدافع عنها باعتبارها جديدة ما دام اذا قدّر المرء حججها فانني واثق أنه يجدها بسيطة جدا ومطابقة للعقل العادي بحيث تظهر أقل شذوذا وغرابة من كل ما سواها مما يمكن ان يكون في نفس الموضوعات ، وأنا لا أزهى أيضاً لانني المبتدع الأول لأي رأي منها ولكن لانني لم أقبلها قط لان آخرين قالوا بها ، ولا لانهم لم يقولوا بها ، ولكنني لم أقبلها إلا لان العقل أقنعني بها.

---

(١) صح حدس ديكارت، ومع هذا، فان الاستاذ ليفي برول L. LÉVY-BRUHL يقول عند كلامه عن تطرف بعض الفلاسفة في القرن الثامن عشر وعدائهم للدين والنظم الاجتماعية القائمة « إن مبادىء ديكارت مسئولة ، إلى حد كبير ، عن تكوين فلسفة شديدة الاختلاف مع فلسفة ديكارت » النزعات العامة لبيل وفنتنل *Les tendances générales de Bayle et de Fontenelle* في مجلة تاريخ الفلسفة Rev. d' histoire de la philosophie السنة الأولى (١٩٢٧) ص ٥٠

واذا كان الصناع لا يستطيعون أن يحققوا عاجلا الاختراع الذي شرحته في علم انكسار الاشعة ، فانني لا أعتقد أنه يمكن القول من أجل هذا بأنه رديء : لانه ما دام الحذق والمران لازمين لصنع الآلات التي وصفتها وضبطها دون ان ينقص هذا أي شرط ، فان دهشتي اذا نجحوا الأول وهلة لن تكون أقل من دهشتي لو استطاع انسان في يوم واحد ان يتعلم العزف بالعود ببراعة وذلك لانه أعطى لوحا جيدا للرموز الموسيقية . واذا كنت أكتب باللغة الفرنسية التي هي لغة بلادي بدلا من ان أكتب باللغة اللاتينية التي هي لغة أساتذتي فذلك لانني آمل أن هؤلاء الذين لا يستعينون الا عقلهم الفطري الخالص سوف يكونون أحسن حكما في آرائي من أولئك الذين لا يؤمنون الا بالكتب القديمة . وأما من يجمعون بين العقل [٧٨] والتحصيل وهم وحدهم من أتمنى ان يكونوا قضاتي فانني على ثقة من أنهم لن يكونوا من التحزب للغة اللاتينية بحيث يأبون الاصغاء لحججي لأني أشرحها بلسان عامي

بقي أنني لا أريد ان أتحدث هنا حديثا خاصا عن التقدم الذي آمل ان أتقدمه في العلوم في المستقبل ، ولا أريد ان آخذ على نفسي أمام الناس عهداً لا أثق من انجازه ؛ ولكنني أقتصر على القول بانني صممت على ألا أنفق بقية حياتي في غير الاجتهاد في تحصيل شيء من العلم بالطبيعة يكون بحيث يمكن ان تستخلص منه للطب قواعد أوثق مما وجد حتى الآن ؛ وان ميلي ليبعدني بعدا كبيرا عن كل أنواع المقاصد الاخرى لاسيما تلك التي

لا تكون مفيدة للبعض الا اذا أضرت بآخرين [١] . فلو اضطرتنى بعض الظروف الى ان أعالجها فما كنت لأعتقد أننى أكون أهلا للنجاح فيها . وانى لأعلن هذا وأعلم خير العلم أن هذا الاعلان لا يستطيع ان يجعلنى مبجلا في العالم . ولكن ليست لى أي رغبة في هذا أيضاً ، وسأكون دائما معترفا بالجميل للذين بفضلهم أستمتع بوقتى من غير عائق أكثر من اعترافي بالجميل لمن قد يهدون الى أكبر ما في الارض من مناصب التشريف

— انتهى —

(١) ربما يريد ديكارت أن يقول هنا إنه لا يقبل أن يجيب دعوة أحد الأمراء كى يطبق في مصلحته علومه في حيل الحروب . وهذا تفسير لاستاذنا مسيو لالاند شافهنا به سنة ١٩٢٧ عند قراءته للمقال في الجامعة المصرية ووافق على اثباته هنا أثناء طبع هذا الكتاب

شكر

لما علم استاذي الجليل الدكتور منصور فهمي أستاذ الفلسفة فى الجامعة المصرية بأنى أنجزت هذا العمل وقدمته للطبع ، طلب الىّ أن أقرأه عليه وعلى استاذي العلامة الجليل الشيخ مصطفى عبد الرازق أستاذ الفلسفة الاسلامية بالجامعة ، فلم يسعني الا قبول هذه المعونة الكريمة . وبالفعل أخذ الاستاذان الفاضلان يراجعان معي الترجمة على النص الفرنسى ، ثم عاق الاستاذ الدكتور منصور بعض المشاغل بعد أن انتهينا من القسم الاول واستمر استاذي الفاضل الشيخ مصطفى يراجعها معى على النص مراجعة دقيقة جداً ، كدأبه في كل حياته العامية ، بل وقرأت عليه أكثر التعليقات ورجع في أحايين كثيرة الى مراجعي ليحقق ما كتبت ، وكان يطالب الى فوق ذلك مراجعة الترجمتين الانجليزية والالمانية في بعض المناسبات

وأنا أعترف بأن هذه الترجمة والتعليقات عليها تدين الى حضرته بتصحيحات وتعديلات مهمة كلفته جهداً بالغاً وزمناً غير قصير ، يخجلنى أن أعترف بعجزي عن اظهاري لتقديرهما والتعبير عن شكري اياه على بذلهما في سبيل هذا العمل ، ومع ذلك فانني أقول انه اذا كان لعملي قيمة أدبية فانها راجعة الى حد كبير الى فخر الجامعة المصرية الاستاذين الكبيرين الشيخ مصطفى عبد الرازق والدكتور منصور فهمى

وصف الكتب

التى أشرنا اليها بأرقام فى المدخل والتعليقات

وهذه الارقام تابعة لورود الكتب التي تشير اليها أثناء العمل

(١) **القواعد لقيادة العقل** وهو من مؤلفات ديكارت باللاتينية ظهر بعد وفاته وعنوانه *Regulae ad directionem ingenii* في مجموعة من كتابات ديكارت عنوانها *Opuscula posthuma physica et Mathematica* ونشر لاول مرة في أمستردام سنة ١٧٠١ وله تراجم عدة فرنسية وهو مدرج في ج ١٠ من مطبوعة أدام وتاري . وهو مشروع **المقال عن المنهج** (انظر ص ٣٠و٣١)

(٦) **مبادىء الفلسفة** : ظهرت باللغة اللاتينية بعنوان RENATI DES CARTES *Principia Philosophiae* في أمستردام سنة ١٦٤٤ وهي مدرجة في ج ٨ من مطبوعة أدام وتاري . وظهرت بالفرنسية لاول مرة بعنوان *Les principes de philosophie*, écrits en latin par RENÉ DESCARTES et traduits en francais par un de ses amis في باريس سنة ١٦٤٧ والمترجم هو الاب پيكو Picot والكتاب مهدى الى الاميرة إليزابيت بنت ملك بوهيميا والناخب البلاتيني في الامبراطورية الرومانية المقدسة

(٧) **البحث عن الحقيقة** (راجع عنوانه بأكمله في ص ١٦ التعليقة رقم ٢) نشر بعد وفاة ديكارت بعنوان البحث عن الحقيقة بواسطة النور

القطري *Inquisitio Veritatis per lumen naturali* في أمستردام سنة ١٧٠١ ضمن مجموعة *Opuscula posthuma* . ويرى مؤرخ حياته بايه أنه كتب هذا الكتاب في الاصل بالفرنسية وعنوانه على حسب روايته هو :

La recherche de la vérité par la lumière naturelle qui, toute seule et sans emprunter le secours de la Religion ni de la Philosophie, détermine les opinions que doit avoir un honnête homme sur toutes les choses qui peuvent occuper sa pensée وزاد في نسخة ليبنتز *et pénètre jusque dans les secrets des plus curieuses sciences*

والنص الفرنسي على حسب النسخة التي كانت في حوزة ليبنتز مدرج في ج ١٠ من مطبوعة أدام وتاري

(٨) أوليمبيكا *Olympica* وهي رسالة صغيرة كتبها ديكارت في حوالي سنة ١٦٢٠ وفيها وصف لليلة ١٠ نوفمبر سنة ١٦١٠ وأزمته الصوفية وأحلامه (راجع المدخل) وهى منشورة بنصها اللاتينى في ج ١٠ من أعمال ديكارت من ص ١٧٩ — ١٨٨

(١٢) التأملات والاعتراضات والردود ظهرت الطبعة الاولى لهذا الكتاب في باريس سنة ١٦٤١ بعنوان *Renati Descartes meditationes de prima philosophia, in qua Dei existentia et animai immortalitas demonstratur* أى تأملات رينيه ديكارت فى الفلسفة الاولى وفيها اثبات وجود الله وخلود الروح وظهرت طبعة ثانية في أمستردام سنة ١٦٤٢ ، وأضيف الى عنوانها *His adjunctae sunt variae objectiones doctorum viromrum in istas de Deo et anima demonstrationes cum responsisnibus auctoris* اى مضاف اليها اعتراضات مختلفة لرجال علماء فى نفس اثبات الله

والردود ، ومعها ردود المؤلف . وفي عام وفاة الفيلسوف ظهرت الطبعة الثالثة . وظهر للكتاب ترجمة فرنسية راجعها المؤلف ونشرت في باريس سنة ١٦٤٧ . وقد طبعت النصوص اللاتينيـة في المجلد السابع والترجمة الفرنسية في المجلد التاسع من مطبوعة أدام وتانري. ومن أشهر الذين كتبوا الاعتراضات الفيلسوف الانجليزي هبز Hobbes مؤلف الاعتراضات الثالثة وأرنولد Arnauld صاحب الاعتراضات الرابعـة والفيلسوف جاسندي Gassendi صاحب الاعتراضات الخامسة وهي أطولها

(١٤) أعمال ديكارت غير المطبوعة *Oevres inédites de Descartes*

نشرها الكونت فوشيه ده كاري Foucher de Careil في باريس سنه ١٨٥٩ و ١٨٦٠ وأدمجت فيما بعد في مطبوعة أدام وتانري

كتابات عن ديكارت

(٢) هانكان منهج ديكارت HANNEQUIN *La Méthode de Descartes*

في مجلة ما بعد الطبيعة والاخلاق Revue de Métaphysique et de morale السنة الرابعة عشر الجزء السادس نوفمبر سنة ١٩٠٦ من ص ٧٥٥ الى ص ٧٧٤

(٣) هملان مذهب ديكارت HAMELIN *Le système de Descartes*

نشره الاستاذ روبان L. Robin في باريس سنة ١٩١١ الطبعة الثانيـة سنة ١٩٢١

(٤) جلسون التعليق والعنوان الكامل هو RENÉ DESCARTES, *Discours de la méthode*, texte et commentaire par E. GILSON في ١٦ صفحة بالترقيم الروماني ثم ٤٩٤ صفحة من قطع الثمن الكبير ظهر في باريس سنة ١٩٢٥

(٩) ميلو أزمة صوفية عند ديكارت في سنة ١٦١٩ MILHUD *Une crise mystique chez descartes en 1619* في مجلة ما بعد الطبيعة والاخلاق السنة الثالثة والعشرون الجزء الرابع يوليه سنة ١٩١٦ من ص ٦٠٧ الى ص ٦٢١

(٥) وله أيضاً مسئلة صدق ديكارت *La Question de la sincérité de Descartes* في نفس المجلة السنة السادسة والعشرون الجزء الثالث مايو ـ يونيه سنة ١٩١٨ من ص ٢٩٧ الى ص ٣١١

(١٠) كينوفشر حياة ديكارت وعمله ومذهبه وهو المجلد الاول من كتابه تاريخ الفلسفة الحديثة KINO FISCHER *Geschichte der neuern Philosohie* ; Descartes' Leben, Werke une Lehre الطبعة الخامسة هيدلبرج ١٩١٢

(١٣) بوترو دروس في تاريخ الفلسفة E. BOUTROUX *Etudes d'histoire de la philosophie* وهو يحتوي على فصلين عن ديكارت . الاول بعنوان *Descartes* من ص ٢٨٩ الى ص ٢٩٨ وهو مقال كان قد نشر في مجلة ما بعد الطبيعة والاخلاق سنة ١٨٩٤ . والثاني بعنوان

العلاقة بين الاخلاق والعلم في فلسفة ديكارت *du rapport de la Morale a la Science dans la Philosophie de Descartes* وهو في الاصل مقال في العدد المخصص لديكارت في سنة ١٨٩٦ من مجلة مابعد الطبيعة والاخلاق

(١٥) ناتورب : **نظرية المعرفة عند ديكارت** والعنوان الكامل هو *P. Natorp Descartes' Erkenntnistheorie. Eine Studie zur Vorgeschichte des Kritizismus* أي نظرية ديكارت للمعرفة : بحث في تاريخ النقد المتقدم كانت . ظهر في سنة ١٨٨٢

(١٦) ينكمن (وكتب أحياناً يونجمان) **رينيه ديكارت مبحث في عمله** *René Descartes. Eine Einführung in seine Werke* ظهر في ليبزج عام ١٩٠٨

(١٨) شارل أدام **حياة ديكارت** والعنوان الكامل هو **حياة ديكارت وأعماله درس تاريخي** CHARLES ADAM *Vie & Oeuvres de Descartes. Etude historique* وهو ملحق بمطبوعة **أعمال ديكارت** التي قام بها الاستاذ أدام والاستاذ تاري ، وقد ظهر الكتاب في باريس سنة ١٩١٠

(١٧) برنشفيك **الرياضة وما بعد الطبيعة عند ديكارت**

L. BRUNSCHVICG *Mathématique et Métaphysique chez Descartes*

في مجلة مابعد الطبيعة والاخلاق السنة الرابعة والثلاثون الجزء الثالث يوليه — سبتمبر سنة ١٩٢٧ من ص ٢٧٧ الى ص ٣٢٤ .

كتب عامة في تاريخ الفلسفة

W. WINDELBAND *Geschichte der neuren Philosophie*

المجلد الاول من عهد الاحياء الى كانت . الطبعة الاخيرة في ليبزج

سنة ١٩٢٢

H. HŒFFDING. *Histoire de la philosophie moderne*

المجلد الاول من عصر الاحياء الى روسو . الطبعة الفرنسية الثالثة باريس سنة ١٩٢٤

UEBERWEG *Grundriss der Geschichte der Philosophie*

المجلد الثالث عن الفلسفة الحديثة لغاية آخر القرن الثامن عشر . الطبعة الاخيرة برلين سنة ١٩٢٤

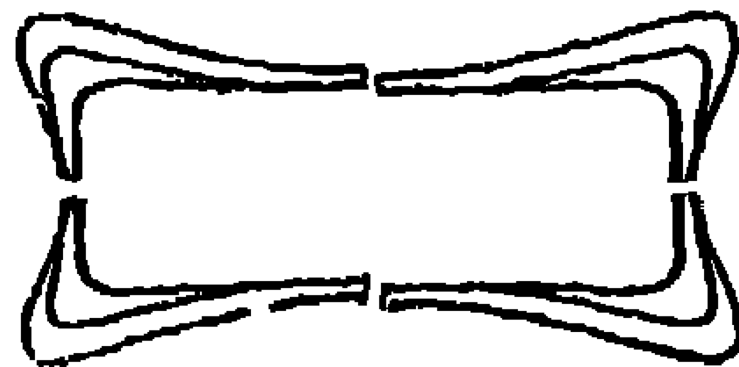
BRÉHIER *Histoire de la philosophie*

الجزء الاول من المجلد الثاني باريس سنة ١٩٢٩

معاجم الاصطلاحات

أهم ماانتفعنا به هو معجم استاذنا المسيو لالاندوقد أشرنا له في التعليق برقم ١١ ANDRÉ LALANDE *Vocabulaire technique et critique de la philosophie* مجلدان الطبعة الاولى باريس سنة ١٩٢٦

أما معاجم الاصطلاحات العربيـة فهي موصوفة وصفـاً كافياً في التعليقات



فهرست تحليلى

للنـــص والتعليقـــات

فهرست للاعلام

في النص والتعليقات

تفيد الارقام الكبيرة أن العلم التى تشير اليه ورد في النص ، أما الارقام العادية فهي تفيد أن أعلامها وردت في التعليقات والمدخل



تصحيحات

الخطأ	الصواب	صفحة	سطر
يقول به التفكير النظري	يقول به في التفكير النظري	٤٥	١ في الهامش
AVIRCENNA	AVICENNAE	٥٥	٣ من أسفل
قد حكمت	فحكمت	٥٨	٦
يتصور	تتصور	٦٤	٨
Beuveis	Beweis	٦٤	١٣
naas	was	٦٦	٦
hinzuk, ommen	hinzokommen	٦٦	٧
الردود والاعتراضات	الردود على الاعتراضات	٧٠	٤ من أسفل

ووقعت في بعض النسخ الغلطات الآتية :

الخطأ	الصواب	صفحة	سطر
الهام الشعراء بالبداهة	إلهام الشعراء أو بالبداهة	١٧	آخر السطر
magne	*magnu*	٢٨	١٣
نظرية المعرفة عند ديكارت[٧]	نظرية المعرفة عند ديكارت[١٥]	٣٠	٧ من أسفل
FOUCHET	FOUCHER	٣٠	٩

كما أني أنبه إلى أن التعليقة الاولى في صفحة ي تابعة لصفحة ط ، وهي ترجمة النص اللاتيني الاخير

